

عَمِيدُ السُّلُوكِ

د. رُشْدِي فَكَار

المفكر الاسلامي العالمي

في : حوار متواصل حول

قضايا اثرات لمسلمين

الناشر

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية / عابدين

القاهرة - ت ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع الحقوق محفوظة

مطابع المعارف الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا »

« صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

... وعن الإسلام والمسلمين

يتساءلون

كثيرة هي الأحاديث التي يدلى بها المفكر العالمى ابن قرية الكرنك فى أقصى صعيد مصر عن الإسلام وعقلايته التي تتحدى إيديولوجيات العصر بتفريعاتها الماركسية والبرجماتية والوجودية والوضعية المنطقية ..

وكثيرة هي الأحاديث التي يدلى بها الدكتور رشدى فكار المرتشح العربى المسلم الوحيد لجائزة نوبل فى الأدب عن تشريحه لحضارة الغرب ، وتقنيده لأصولها الفلسفية وتبشيريه بقرب زوالها لتفسخها وعجزها عن مواكبة إنسان العصر الأوروبى والأمريكى الذى يستبد به شبح الماديات البغيض ويتقيأ الشبع والترف فى مجتمعاته التي وصلت إلى القمة وتحدّر الآن إلى السفح لترتطم بالقاع ، بعد افلاس العقل الغربى وترديه فى خواء الماديات دون إروائه لتطلعات الإنسان الروحية ..

وكثيرة هي الأحاديث التي يدلى بها الدكتور رشدى فكار فى التيارات الفكرية التي يموج بها عالمنا العربى والإسلامى رغم تلايف تأزمات وتوعكات وتخلف المجتمعات الإسلامية التي يعتبرها رغم كل إسرافها وتمزقاتها وتناصراتها مجتمعات فتيّة ، تسكب كل سمومها ، وتتخلص من كل أدرانها أثناء خوضها لصراعات التحدى ، وتتهيا لمولود جديد يشق

بصرخاته جدار الكون من خلال عملية المخاض الهائلة التي تمكنها في نهاية الأمر ، وبعد نضوج ظروفها الموضوعية ، من أن تحدث ثقباً واسعاً في شرنقة تخلفها ثم تخترقه وتنطلق إلى رحاب الحرية والتقدم والعدالة .. لهدور الزمن دورته « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (١) .. وليست بمستغربة كل هذه التحليلات الفكرية على الدكتور رشدي فكار الذي تربو مؤلفاته الآن وأبحاثه ومعظمها باللغة الفرنسية على ١٤٠ (مائة وأربعين) مؤلفاً وبحثاً ، تشمل كثيراً من مناحي العلوم والثقافات .. وهو يقف بذلك في مصاف جيل الرواد الموسوعيين الذين يلمون في حنايا حقولهم بمختلف المعارف .

والدكتور رشدي فكار باستيعابه لعلوم الإنسان من مصادرها الغريبة .. أو على حد تعبيره : « لقد عشت نصف عمري لاستيعاب ودراسة علوم الكفار » ..

ثم هضمها وفرزها في أعماقه الإسلامية وعرضها على منهج الإسلام ووزنها بميزانه الدقيق ، ثم مواجهة الأكاديميات الغربية في عقر دارها بنقائص حضارتها ، وجلاء أخطاءها بل خطيئتها على ضوء معطيات الإسلام .. فهو إنما يقف مجاهداً على ثغرة من ثغور الإسلام في بلاد غريبة عنه ، انحصر عنها المد الإسلامي المشرق ، بانحسار موجة المسلمين عن الأندلس ..

وللدكتور رشدي فكار مع ثقافته الموسوعية تخصص هو علم الاجتماع يمارس من خلاله عمله الأكاديمي كأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس - بالرباط - بالمملكة المغربية وطنه الثاني بعد مصر .. منبت رأسه ومنبع تعليمه ، حيث ارتوى في صباه تحت قباب الأزهر الشريف ، وبين أروقتة وتحت أعمدته الرخامية التي طالما استندت إليها ظهور علماء غيروا وجه العالم .. تخصص الدكتور رشدي فكار علم الاجتماع ذلك العلم الذي أسسه وشاد بنيانه عالمنا العربي المسلم الفذ « ابن خلدون » ، وقد قاده

(١) آل عمران : ١٤٠

هذا التخصص إلى التعمق في « السان سايمونية » حتى أصبح أحد قلة قليلة من العلماء تمكنوا من التعمق في أصول الماركسية حتى جذورها ، بل ونخاعها .. ووصل به الأمر بأن قرأ معظم الكتب التي قرأها « كارل ماركس » الذي كان من عادته أن يعلق برأيه على هوامش الكتب ، وتمثل هذه الآراء العفوية ترجمة لمكنونات عقل ماركس في شتى مراحل تكونه ، وقد نقل الدكتور رشدي فكار هذه الهوامش ، وكثيراً منها تصدم الماركسيين أنفسهم الذي فتنوا بهذا الرجل الذي وضعوه في مرتبة الألوهية ، وقد برهن الدكتور رشدي فكار من خلال تعليقات « ماركس » الهامشية هذه أن فكرة الإلحاد التي تبنى عليها المادية الجدلية وتقوم عليها « الماركسية » ، كانت مهتزة لدى « ماركس » .. الذي كان في بعض الأحيان يخفي إلحاده .. ووضح ذلك من خلال مراسلاته مع « بابا الفاتيكان » ! وهذا التعمق في أصول « الماركسية » قاد الدكتور رشدي فكار إلى أطروحاته العالمية التي وضعته على مقعد « أكاديمية العلوم الفرنسية لدائرة ما وراء البحار » ..

وهذه الأطروحات تحتويها مجلداته وهي عن « السوسيولوجيا والاشتراكية الدولية » وأصول « الماركسية » ومجلداته الخمسة في المراهنة الصناعية وأزمة الحضارة بالاشتراك مع أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من دول الكتلة الشرقية ، ومعجمه الموسوعي العالمي في مجلدين من أربعة أجزاء عن علم الاجتماع وعلم النفس والانتروبولوجيا الاجتماعية وغيرها ، حتى انتهى مؤخراً من تأليف موسوعته الضخمة في علم الإنسان التي تتكون من أربعة أجزاء حاول فيها أن يعيد النظر في مضامين « علم الإنسان » على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة يعتبرها الدكتور رشدي فكار قمة بحوثه العلمية وقد أفادت الجامعات الأوروبية ومراكز البحوث الاجتماعية من تخصص الدكتور رشدي فكار .. كعالم اجتماعي موسوعي ، وكمحاضر ومحاوّر وباحث ..

كما أفادت دول أوروبية أخرى من أبحاثه الاجتماعية الميدانية ، مثل سويسرا ، التي ساهم مع فريق بحث عالمي اجتماعي في علاج مشكلتها

وهى مشكلة الثراء والترف التى تواجهها وكادت تشق تركيبتها الاجتماعية وثقافتها الذاتية ..



ومن خلال حواراتى المتواصلة من الدكتور رشدى فكار والتى امتدت عبر سنوات عشر ثمة معطيات فكرية ظلت تستقر وتبلور على لسانه ، فهو يؤكد - وهو الذى سبر أغوار علوم الغرب الأوروبى الفلسفية والاجتماعية - أن الإسلام ما يزال قادراً على المواجهة والتحدى ، حتى فى هذا الهزيع الأخير من القرن العشرين الذى يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة .. ليشرق فى عصر العملة الذهبية وولوج الكواكب فى عصر الكمبيوتر . وثورة المعلومات والتكنولوجيا .. ذلك العصر الذى فاق بمعطياته كل خيال ..

وحينما أدور مع شريط حواراتى السابقة والمتواصلة مع الدكتور رشدى فكار .. أقف عند هذه المقولات التى نشرت بعضاً منها فى صحف ومجلات متناثرة ، هذه المقولات التى تصطبغ كمعظم عباراته بصبغة الأقوان المأثورة أو جوامع الكلم :

.. حقيقة الأمر .. حينما ننظر إلى الإسلام فى عصره الأول ، ثم إلى الإسلام عبر القرون ، سنجد أن الإسلام بخير .. قادر بمبادئه ، وقادر بعبائنه أن يعطى للمسلم ما يريد أن يناله منه ..

.. الإسلام مسيرة طبعت مسيرة الأمة الإسلامية ، بل ومسيرة البشرية ..

.. وحينما ننظر إلى الإسلام حالياً ومستقبلاً سوف نكتشف حتى مع صرامة المنهج وقدرة التفكير والرؤية الموضوعية الهادئة انزياحه أنه ليس للإسلام قضية ..

فالإسلام بالنسبة لعقل القرن العشرين ، ومهما كانت المجازفات المطروحة حالياً فى ساحات المدارس الوضعية ، من المستحيل أن تسجل إصابة واحدة على مشروعته باسم العقل .

فها هو الإسلام - وبعد أربعة عشر قرناً - ما يزال يتحدى ،

ومن الصعب على عالم نزيه أن يزعم غير ذلك .. من أجل هذا نرى العديد من كبار مفكرى الدنيا يشهرون إسلامهم على الملأ والبعض الآخر هم الآن فى صالة الانتظار ..

.. إن الإسلام بخير وأعطى من الحثيات فى عصر النبوة ما ينزه ابن القرن العشرين بأن ينحنى إجلالاً وإعزازاً أمامها لأن معجزة النبوة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً تبقى معجزة خالدة ، وعلى علوم الإنسان أن تتواجد معها من منطلق تفهمى بعيد عن المضاربة والافتعال ..

.. إن الإسلام يتميز . بل ويتفرد دون سائر الديانات . بل والإيديولوجيات قاطبة بأنه ليس له قضية تؤخذ عليه فى التراث (وهذا هو موضوع كتابنا الثانى فى حوارنا المتواصل) ..

فالإسلام اقتناع ويقين .. الإسلام وحيا وأحاديثاً صحيحة وقدسية ، وقدوة وأسوة حسنة بسيرة نبي الإسلام محمداً عليه أزكى الصلاة وأتم السلام .. هذا التراث من الأولى ألا يطرح فى جو من الافتراضات المغشوشة . وإنما يوضع فى مكانه الحق ، وهو دين سماوى وحدانى شامل لمسيرة هذه الوحداية مصداقاً لكل ما سبقه من رسل وأنبياء : يهدف إلى أن ينقذ هذا الإنسان . صاحب الرسالة التى حملها . وعلى ذلك فإن افتعال قضية للإسلام يوجب علينا أن نبحث عن تعليلها فى عقول واضعيها وصانعيها لأن المسلم فى القرن العشرين ، كما هو الحال بالنسبة للمسلم فى كل القرون هو مؤمن بالله ، مصدق لذلك بعمله ومطبق لشريعته وشعائره .. وهو وإن كان له أن يكسل ويضيف فإن عليه أن يبدأ من حيث انتهى من سبقوه فى الإيمان واليقين من السلف ، فهو مرتل للقرآن ، خاشع فى ترتيله ، متدبر ومتفهم لمضامينه ومعانيه ، متقبل لها ، وهو مستوعب لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقتد بسلوكه ، وعليه وقد ارتقى بعقله

وفكره وبصيرته أن يضيف إلى اجتهاد من اجتهدوا ، لا ليعتم ما أضىء ،
وإنما ليلقى البصيص من الإشعاع المعرفى على ما بقى من موضع تساؤل ..
ليجتهد ولكن لا على المستوى الفردى ، وإنما من خلال عمل جماعى لعلماء
الإسلام وفقهائه تتبناه منظمات .. لا لتطرح التحفظ والتساؤل ، وإنما
نسد الطريق أمام هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ويبحثون لحاجة فى نفس
يعقوب عن ثقب تفتعل بهدف بث الضوضاء .. لا أكثر ولا أقل ..

شعبان ١٤٠٧ هـ

أبريل ١٩٨٧ م

خميس البكرى

* * *

(١)

المسلمون .. لماذا تخلفوا وكيف السبيل لتقدمهم ؟

- المسلم في طبيعته مع الاسلام .. غاب عنه النص .. واحتفظ بمجرد العنوان ! ..
- الاسلام لماذا يظل « شادية الحى » ..
التي لا تطرب ؟ ..

النظرة العابرة الى عالمنا الاسلامى الممتد عرضاً من شواطئ الأطلسي حتى تخوم الصين .. وطولا من سهول اواسط آسيا وحتى عمق القابات الاستوائية الآسيوية والافريقية .. تكفى للحكم عليه بالتخلف ..

الانسان المسلم فى معظم الاقطار الاسلامية يحيا تحت خط الفقر ، بل ويتهدده شبح المجاعة ..

والسؤال الذى نطرحه اليوم هو لماذا تخلف المسلمون ، بعد ان كانوا سادة الحضارة ، وكيف السبيل لرفع رتبة التخلف عن اعناقهم ، واستعادة قوتهم وتقدمهم على الامم ؟ ..

فى حوار مع الدكتور رشدى فكار حول هذه القضية قال : إن هذا سؤال منطقي ، يقبل المناقشة والحوار ، على عكس سؤال مفعم بالمغالطة كثيراً ما أواجه به خارج الحدود وهو : لماذا تخلف الإسلام ؟ ..

وطارحو مثل هذا السؤال هدفهم مفضوح ، فهم يحاولون أن يلبسوا الإسلام قميص عثمان ليتحمل الإدانة عن هذا التخلف ، برغم أنهم يعلمون فى قرارة فكرهم أن الإسلام ذاته هو الذى يعانى من تخلف المسلمين ..

بعد هذه المقدمة الموجزة التى ترسم خطوطاً أولية لصورة القضية ، يبدأ الدكتور رشدى فكار حديثه لالقاء الضوء على كل الحقائق :

.. نعم التخلف واضح ، من الصعب أن ينكره من يرى الأمور بموضوعية .. فالمسلم متخلف في إنتاجه ومتخلف في استهلاكه أيضاً .. متخلف في عطائه الذهني ، وتخلف معه بالتالي عطاء الأرض وعطاء التكنولوجيا .. تخلف يجعله يعيش في هذا القرن خارج عصره ، فكانت النتيجة أنه يعيش في زمن تراجع عن زمانه الذي أسماه عصر من له القدرة على المكر والدهاء ، عصر التدافع ولمواجهة الذي يفتقد ما يسمى بالإحسان والبر واقلب الطيب .. عصر الطاقة النووية التي تخزن في قنابلها ، بل وحتى في مفاعاتها السلمية فناء البشرية . ولقد قالها أبو الذرة « أوبنهايمر » : إنني أبكي وأنحسر وألوم نفسي بشدة لأن انطلاق الذرة من عقلها يتطلب الذكاء الكامل للسيطرة عليه ، وهذا الذكاء الكامل لا يوجد على الأرض ! .

وأنا بدوري أتساءل : بدون الإسلام أكان من الممكن أن تظل للمسلمين حياة وسط بؤر النزاعات والصراعات وموجات الشر العالمية التي لا تبقى ولا تذر ؟ .

لولا الإسلام لاندثروا وتفتت مسالكهم ودولهم ولأصبحوا أثرا بعد عين !

وحقيقة الأمر أن سر تخلف المسلم أنه في قطيعة مع الإسلام .. غاب عنه النص ، واحتفظ بمجرد العنوان ، غاب عنه جوهر أكمل الرسائل ، وأصبح يردد الشعارات ويزعم أنه خير من يمثل الإسلام بهذه الشعارات برغم أن ممارسات حياته وسلوكه كثيراً ما تتعارض مع تعاليم الإسلام والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » (١) .. . ولم يقل يا أيها الذين كفروا ! .

فينبغي على المسلم أن يكون عمله مطابقاً لعقيدته .. أن يكون واضحاً ونزيهاً .. بعيداً عن الزيف والغش .. فالإسلام يطلب من المسلم أن يكون واضحاً حتى في خطئه ، ويعلن التوبة . ويطلب المغفرة ورحمة ، نوع من المحاكمة العلنية الرائعة ..

والمسلم فى قطيعته مع الإسلام ، وتمسكه بمجرد العنوان ، يمارس الغش مع خالقه ، وبالتالى يغش نفسه .. وبذلك فهو ليس بمستغرب عليه أن يمارس الغش مع الآخرين ، وهو بابتعاده عن المضنون وتمسكه بالشعائر يغش دين الإسلام الذى ما جاء إلا ليحارب الطقوس والرهينة ، وينبذ شكلية الشعائر ..

فى البداية هنالك جانب معنوى لتخلف المسلمين فى هذا العصر ، وأعتقد أن البناء الذهنى والبناء الأخلاقى غالباً ما يشكل أرضية البناء الاقتصادى والاجتماعى ، والسياسى . ولا أعتقد كثيراً فى جدية أن العامل المادى هو الذى يملئ على الإنسان السلوك العملاق .

العامل المادى قد يملئ على الإنسان سلوكاً اجتماعياً يجعله أكثر ترويضاً وأكثر استئناساً حينما تحاول أن تشبع له غرائزه ونزعاته الاستهلاكية فتصبح له طبيعة الانقياد .. وهذا ربما الذى طبع هذا العصر بطابع التبعية .. ينسا العصور السابقة كانت عصور عمالقة ، ومواجهات بطولية ..

عصور خلت من استراتيجيات الأكاذيب والغش والنفاق .. كن الإنسان آنذاك له مبادئه التى يضفى من أجلها .. إنسان هذا العصر مستعد فى سبيل إرواء شهواته أن يفتعل الأكاذيب ، وينفل كل الإهانات ، ويسلك سبل الرشوة لمجرد الرغبة فى أن يمتلك أشياء مادية تافهة .. سيارة ، فيديو ، ثلاجة ، جهاز تكييف ، وهكذا حتى أصبحت سعادته فى إشباع بطنه وكل جسده ولكن جاعت النفس .. يشعر الإنسان أنه فى قمة الرفاهية المادية والجسدية ولكن شخصيته مهانة .. يكذب ويغش وينافق ، ومهما وصل إلى قمة المجد المادى ، يشعر فى قرارة نفسه أنه ضئيل ويقع فريسة لأزمه الضمير ..

أما الإسلام فقد منح الإنسان كل ما تسعى الدراسات السيكلوجية إليه ، بل وتقف عاجزة أمام تحقيقه ، وهو بناء السعادة الكاملة المتجاوزة للسرور واللذة ، بأن يشعر الآن أنه حقق ذاته ، وأنه راض عن نفسه ، وأنه فعلاً يمارس إنسانيته وبالتالى ينعكس عليه رضا الآخرين ..

الإنسان المسلم رأسماله الحقيقى يكمن فى شعوره بإنسانيته أمام نفسه وأمام خالقه وأمام الناس .

وحضارة الإسلام تكمن فى توظيف المثل العليا لا لمجرد تقع الذات الفردية ، وإنما لما ينفع الآخرين ، ويدفع الضرر عنهم « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (٢) .. و « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .. وفى خارج الديار يقولون إن المجتمعات الإسلامية أكثر المجتمعات دفاعاً عن الشرف والكرامة ويصورون ذلك على أنه من سمات الخلف ، وعكس ذلك صحيح لو يعلمون ، ولكن بشرط البعد عن المغالاة والتطرف ، وبشرط ألا يكون ذلك على حساب الآخرين ، بمعنى أن يشعر أن شرفه من شرف الآخرين ، وكرامته من كرامتهم واعتزازه بنفسه من اعتزازه بنفسية الآخرين ..

هذا هو سلوك الإسلام المتقدم ، وليس منه مطلقاً أن يسعى الإنسان إلى الاحتفاظ بكرامته غير عابئ بأن يدمر ويحول كل من حوله إلى شظايا وضحايا .

ثم يبرر ذلك كما تفعل القوى العظمى العاشمة الآن بأن هذا التعبير فى حد ذاته دفاعاً عن الذات .. لا .. مطلقاً ، إن هذا النوع من الحالة المرضية .. أمور ركز عليها الإسلام ، ركز على سلوك الإنسان كفرد ، وسلوكه داخل دائرة الأسرة وفى نطاق الجماعة والأمة ، ولكننا وللأسف نردد هذه المبادئ .. نقرأها ونرتلها وقد نحفظها عن ظهر قلب أو حتى تغنى بها ولكننا لا نمارسها .. فنقع فى بئر المقت الأكبر أن نقول ما لا نفعل « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٣) ..

وكل هذه انعكاسات تخلف المسلمين نتيجة للقطيعة مع الإسلام ، انعكاسات لإنسان غير قادر على أن يعيش فى عصره ، يعانى من التردى الاقتصادى ، من الأمية ، من الفقر ، من الأمراض المتوطنة ، حتى أصبح ضحية فى محاولة للنفاذ من دائرة التخلف ، ضحية لعقول الآخرين كل يأخذ منه ما يريد ، ثم يحوله فى النهاية إلى بقايا ونفايات ..

وأمة الإسلام لم تخلق لهذا ، فهي أمة معيارية ، أمة وسط ، يعنى تقاس عليها الأمم « لتكونوا شهداء على الناس » (٤) . وهذا هو العطاء الإلهي لهذه الأمة ولكن الإنسان المسلم المعاصر الذى أصابه الوهن ، أصبح يتهرب من هذا العطاء ، لقد تخلى عن مبادئ المعيارية التى منحها الله له لكى يتبنى معيارية ضياعه وتخلفه .. الإنسان المسلم الحق غير قابل لأن تعلق به أدران التخلف ولا ينبغى له أن يكون كائننا هامشيا كل هدفه أن يستهلك وإنما هو له رسالة .. بل هو شهيد على الكون يوم العرض العظيم .

وإن تخلف المسلمين فى الواقع قضية كبرى آن الألوان لأن تطرح بموضوعية ، وبمقاييس تختلف عن مقاييس عالم اليوم المادى ، بمعنى ألا نوزن كمسلمين بميزان كم ربحنا ، وكم بدلة لدى المسلم ، وكم إناء ، وكم غرفة مفروشة ؟ فإذا قسنا المسلمين بهذا المقياس بين الأمم ، فالقضية خاسرة منذ البداية : لأن هذه قضايا الآخرين الذين صنعوا أثاث المنازل ومكائن المعامل ، وعبروا القضاء .. والمسلم ليست هذه بصناعته ، وهم يدفعونه دقعا نحو هذا الميزان حتى يظل دواما فى إطار النفايات ، وبقايا الموائد .

وأعتقد أنه قد آن الألوان للمسلم أن يطرح معياريته انطلاقا من المثل العليا التى أعطاها له الإسلام ، أعطى له المثل فى كيفية تربية طفله ، فى علاقاته بالآخرين ، فى سلوكه مع ذاته ، فى كيفية تعامله مع شهواته وغرائزه ، ومع النفس الأمارة بالسوء وبالخير « فإلهمها فجورها وتقواها » (٥) .. ما أروع أن يتجاوز المرء فجور النفس إلى تقواها .. من خلال سلوك خلقى ملتزم . كل هذه أمور تطرح عادة ولكنها تحتاج فى الواقع إلى وسائل توضيح .. كيف نخرج المسلم من تخلفه ؟ .

هل يتم ذلك عندما يبنى ناطحة سحاب ؟ لا ليس هذا صحيحا ، لأنه سوف يبنيتها بإمكانات الآخرين ، ولا يكون له من البناء إلا الاسم .. وأعتقد أنه يمكن أن يحترم ذاته إذا ما بنى بيتا ولو من طابق واحد بإمكاناته الذاتية .. نعم اقتربنا الآن من طرح قضية تخلف المسلمين فى إطارها

الموضوعى .. وهو الإنسان المسلم الذى يعانى من قطيعة مع إسلامه ، فدخل فى شبكة علاقات لا موضوعية مع ذاته وما يحيط به ومع مجتمعه الإسلامى ومع مجتمع الآخرين وأصبح فعلاً فى مهب الريح .. كل يحاول أن يكيف له لماذا تخلف ؟ ، هو يستع لكل شادية . أما شادية الحى الذى يسكن فيه فلا تطرب .. نقصد بذلك الإسلام الذى لا يستع إليه فى داره ، لأنه بالنسبة له مجرد مواعظ وإرشادات وطقوس . مكانها سرادقات أمّته . أو الاحتفالات التى تأتى مع العام مرة أو مرات . وهكذا أصبح الإسلام موسى لزرعة . وبالتالي تحول المسلم إلى مسلم المناسبات .. وهذا المسلم الذى تدع عليه الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .. لقطيعته مع إسلامه . وهو إذا تأمل فى تاريخه ، بل إلى التجارب العالمية المعاصرة سيصل إلى قضية التناعات الكبرى ..

إن لعقيدة هى الطاقة اللامتناهية للقوة . وهو يرى رأى العين . كيف أن ثمة عصابات مغتصبة تحاول أن تحول أساطيرها الوهمية إلى حقائق تاريخية تفرضها على العالمين ..

أما المسلم صاحب الحقائق التاريخية فحينما يتغاضى عنها تتحوّل إلى أساطير فهو فعلاً الآن مسلم الأساطير ، بينما هؤلاء الذين كانوا يخلقون فى الأساطير أصبحوا هم أصحاب الحقائق التاريخية .

هذا نموذج محزن ومأساوى نعيشه فى القرن العشرين .. هذا هو جوهر تخلف المسلمين ..

إن البناء الذاتى للمسلم إذا كان قائماً على نهضة لإسلامه فإن أغلب مشكلات التخلف التى نعجز عن حلها سوف تطرح باقل قدر ممكن من الصوغاء ..

أما الآن وقد غابت عنه القاعدة ، وغابت عنه أرضية الإقناع ، راح يبحث فى مشكلته الاقتصادية ويلهث وراء حلول الآخرين ، فإذا به يجد نفسه مكتفاً فى المديونيات ، ثم تتداعى أمامه ما تسمى بـ "المشكلة الديمغرافية (السكانية) ويصطدم بمشكلات الإيديولوجيات السياسية ، فيبدأ يقلب

في النظم ، وإزاء فشله يخرج بالرشاشات معتقداً أن خلاصه من مشكلته السياسية يكمن في أن يتخلص من أكبر قدر ممكن من النظم ..

ومشكلته الأساسية أنه إنسان نسى اسمه ، ويطلب من الآخرين أن يسموه .. وهؤلاء كل منهم يسميه حسب هواه .. يقول له : أنت جو كوف ، أنت جورج ، أنت جان ، أنت كوهين ! .

وكما قلت في البداية : الإسلام ليس هو المدان ، إن المسلم وقد تخلف في إسلامه يريد أن يسقط على الإسلام ذلك فيجعله يتخلف ، ويحاول أن يطرح بديلاً للإسلام الشامل الكامل ، القادر المنقذ للكون ، المعيارى الوسطى ، مذاهب أخرى يملئها عليه خصومه ، ثم يقولون له : انظر أين أنت بين الأمم ؟ .. لا شيء .. إذن فأنت الإسلام المتخلف ..

هم يعلمون يقينا أنه غير متخلف بذاته ، ولكنهم يحاولون أن يقنعوه بأن يعمم تخلفه هذا على إسلامه ، حتى يضيعوا على الأجيال القادمة فرصة الانقاذ باسم الإسلام ، بمعنى أنهم لا يكتفون بدفنه بذاته وإنما يتطلعون عبثاً إلى دفن الإسلام معه في قبره ! .

ولهذا أعتقد أنه آن الأوان لأن نجعل الإسلام على الأقل الملجأ للأجيال القادمة إذا كنا مكتوفى الأيدي عن الاتفاف به حالياً .. وربما يأتى جيل يصبح قادراً على أن يتفهم الإسلام .. لا ينبغي أن نوصد الباب على الإسلام ، فلندع الباب مفتوحاً أمام الإسلام فقد يدخل فيه من يبحث عن كمال الحلول ، وسيجد الإسلام مستقبلاً له برحابة الصدر يضمه بالرحمة الكبرى .. بالشمول الكونى المتعادل .. بالعطاء المتكافل ، وسيمنحه الإجابة عن كل الأسئلة المحيرة ..

لنكف أيدينا عن أن نورث مأساتنا للأجيال القادمة حتى لا نفسدها كما أفسدنا أنفسنا وبأيدينا .

... وفي محاولة متأنية لتشخيص الداء بحثاً عن الدواء وإجابة على نصف السؤال المطروح .. ما هو السبيل إلى الخلاص من هذا التخلف واستعادة الامجاد يقول الدكتور رشدى فكار :

.. واقع الأمر أن المسلمين انقسموا في تعاملهم مع الإسلام إلى مجموعات ..

مجموعة تعلن الإسراف والمغالة في القطيعة واللامبالاة ، وتحاول دائماً أن تعكس مشكلاتها النفسية وهمومها على الإسلام .

ومجموعة أخرى تتعامل مع الإسلام تعاملًا موسميًا لحاجة في نفس يعقوب ، ومجموعات تتجسد على قشور النصوص ولا تسبر أغوار الجوهر المضيء ، وغيرها تنفلت عنه تمامًا بالقطيعة وتتصور بأنها هي الانقاذ من التخلف .. وهذه المجموعات لا أعتقد مطلقاً أنها هي المجموعات المستنيرة التي يمكنها أن تقود المسيرة .. مسيرة الإسلام الخالد القادر على أن يحتوى الإنسان .. ليس فقط في تطلعاته الإيجابية ، بل وحتى في سلبياته ، وفي شروره ، وحتى في فجوره ..

ولا داعي لأن نصور لأنفسنا إسلامًا حسب المقاس فالإسلام بكل بساطة هو الدين المتفهم ، والقابل لأن يفهم ، وكثيراً ما أتساءل من أين جاءت مواقف كل هذه الفرق الضالة التي نلاحظها الآن .. ربما هي أيضاً تدخل بدورها في حلبة تخلف المسلمين ..

المسلم متخلف أمام الإسلام ، نعم هو متخلف في إسلامه ، ثم انعكس هذا التخلف بدوره على بقية الأبعاد .

وقد يقول البعض وهو يبدى أسارير الامتعاض والدهشة .. كيف هذا .. أين القرن العشرون ؟ .. أين العقلنة وأين التكنولوجيا والتقدم الصناعي ، وأين الجدلية وأين ثورة المعلومات والذكاء الالكتروني ؟ إنه متخلف في فهم بعض الأمور التي تمت منذ أربعة عشر قرناً في إطار لاهوتي ميثولوجي وأسطوري ! .

وأقول : هؤلاء هم بداية المأساة لأنهم فعلاً يبيعون بضاعة ليست بضاعتهم ، وقد يكون ذلك مستساغاً من أناس تبنا منذ البداية القطيعة والإلحاد واللائية ، واتخذوا منها قاعدة لوجودهم ، وأعلنوا مبدأ الحيوانية ، وحاولوا طرح الإنسانية من خلال تدافع جسدى .

وهذا ما نلاحظه الآن من القوى العظمى ، التى تتدافع بالصواريخ والدبابات وعبور القارات ، وتلويث الكون ، ثم تغرهم قوتهم ويستمرئون جبروتهم فيقولون هذا الذى يقولون ..

أما أن يأتى إنسان هو أساسا عاجز عن أن يتسلق هذا الإطار الرهيب ، إطار اللائمة والإلحاد ، ثم يعتز به ويتبناه ويعتقد أنه وسيلة الإنقاذ ، ويسبح مع هذه الموجات الغريبة ، موجات التدمير والحيوانية الباطشة ، فهذا أمر مستغرب تماماً ويصعب تفسيره .. إنه يقول إن هذا الماضى أسطورة ، إذن فأنت أسطورة فى عصرك وأسطورة فى ماضيك ، فلا أنت بقادر على أن تعيش فى عصرك بلغة الماديات والمواجهات ولغة هذا التدافع المهول لعصور الذئاب ، ولا أنت بقادر على أن تبحث عن البديل .

* * *

(٢)

السيرة النبوية تتحدى كل محاولات النيل منها و « دنونتها » باسم المنهج العلمى !

بعد رحلته المضنية الراصدة عبر سراديب الاستشراق المظلمة .. يؤكد الدكتور رشدى فكار من خلال هذا الحوار معه .. أن معظم أسلحة المستشرقين المعادين للإسلام - الملحدون منهم أو اللاهوتيون - قد سقطت وأن أبحاثهم السوداء قد عدل عنها تماماً أو لأجل غير مسمى ، وأن ملفاتهم قد أغلقت منذ ربع قرن .. لا بالانتصار وإنما بالهزيمة ، كما يؤكد الدكتور فكار أن ثمة دراسات علمية جادة تنشر في الغرب منذ الستينات تعلن صراحة أن مؤلفات الموظفين الاستعماريين من أساندة الاستشراق التى وضعت فى معمة فترة المد الاستعماري لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم .. والتى هى مصدر وحدتهم وجهادهم وموطن قوتهم .. لم تكن تتمتع بالموضوعية الكاملة وأن مخططاتهم الخبيثة للنفاذ من باب السيرة النبوية ، وطرح علامات استفهام حولها بهدف (دنونتها) أى التعامل معها بميزان الدنيا لا الدين .. الأرض .. لا السماء ، بمعنى التعامل معها كتراث بشرى دنيوى لا كمعبر لوحى السماء .. قد باءت بالخسران المين .. كما باءت من قبل محاولاتهن اللبائسة للنيل من القرآن العظيم الذى تعهده الله تعالى بحفظه ، يقول الدكتور رشدى فكار :

نعم هناك مخطط خبيث من فئة من المستشرقين يحاول أن يستغل ويوظف القدرات المعاصرة فى المنهج العلمى وفى علوم الإنسان وباسم مصداقية التاريخ ، وتصحيح الوقائع ، وإعادة النظر فى التراث لإخضاع العصر النبوى لإطار الترائى وجره إليه ليعيد النظر فى السيرة النبوية المشرفة .. لا بقلب المؤمن ، وإنما بقلب الباحث المحترف .. حتى يصبح الشئ المقدس

ليس مقدساً ، اخضاع السيرة النبوية لعلمنة الفكر وقدراته الذهنية باسم
انفضول العلمى لا باسم التعاطف مع حضارة الآخرين .. هذه الفئة تفجرت
بالحق ضد الإسلام من خلال مؤلفات توالى في الظهور منذ بداية القرن
التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين .

وهذه الفئة ظاهرها العلم والتحضر والالتقاء إلى حضارة
سائدة غربية ، وباطنها التخريب والتشكيك .. والقطاع العلماني الملحد من
هذه الفئة بذل محاولات للتشكيك في الأنبياء والرسل .. وهم بعد مواجهاتهم
مع الكنيسة من خلال الصراع بين الفكر الوضعي واللاهوتي حاولوا أن
يوسعوا من نطاق معركتهم لمواجهة أكثر ضراوة مع الإسلام ..

وسعى هذا التيار الإلحادى المستشرق تحت رايات علوم ومعطيات
الإنسان الغربى أن يقحم الإسلام ليكمل فصلا من فصول الدراما المأساوية
التي أحاطت بالكنيسة الغربية منذ العصور الوسطى ، التي أعقبها عصر
التمرد ، وعصر الأنوار ، وعصر العقل المحتج ، والبدايل الوضعية ،
والمدارس المادية ، وشجع هؤلاء الانتصارات التي حققها التجريب العلمى
في الغرب والسيطرة على الظواهر ، واكتشاف القوانين للعديد من مكونات
الطبيعة ، وفتح ذلك شهيتهم فبدأوا يقدمون الإنسان كبديل للإله ،
واستبدلوا حوار السماء والأنبياء بحوار الأرض والإنسان .

حاول هؤلاء القوم أن يسقطوا كل هذا الفكر المادى على العصر
النبوى وإدخاله في إطار وضعى فراحوا يبحثون في تأثير العوامل
الاقتصادية والسياسية والبيئية في جزيرة العرب .. وهم أساساً متكررين
للعقيدة فى غربهم ..

وحاول هذا الاستشراق الإلحادى أن يعكس ظلماته على الأمة
الإسلامية ، والهدف هو تعميم موجة الشك لديهم إلينا بنوع من التقىء
للداء وللحق الدفين .. هم ضائعون في بلادهم ، ويريدون أن يضيعوا
الآخرين في ديارهم .

ومن المحزن حقاً أننا وجدنا بعض النفايات من المثقفين العرب

والمسلمين ، ممن لا يحملوا من الانتماء إلى هذه الأمة إلا مجرد الاسم ، ثم يستبيحون لأنفسهم أن يضعوا أنفسهم في خدمة الشيطان ، في خدمة هؤلاء المستشرقين لقاء حفنة من مال .. وأن يسطوا لهم بعض القضايا ، ويعاونونهم في دراساتهم المقنعة السوداء ، باعتبارهم من أبناء اللغة العربية السابرين لأغوارها .. تلك اللغة الصعبة التي تستغل على عقول المستشرقين مهما خبروها .. لقد تنكر هؤلاء المثقفين العملاء لأمتهم ، وعقيدتهم ، ووظفوا قدراتهم لصالح أصحاب المآرب ، وأصحاب القلوب المريضة من المارقين المضللين المزيفين .

ويتساءل المرء إزاءهم — كيف يمكن أن يصل الجحود بهؤلاء إلى هذا القاع السحيق المتردى ..

وثمة فريق آخر يقف في نفس الخندق المعادى للإسلام يتألف من هؤلاء المستشرقين اللاهوتيين الذين تمثل دراساتهم صليبية الفكر ..

وقد حاول من هؤلاء من أمثال القس لاماس وغيره أن يطرحوا القضايا الخاصة بالعصر النبوي بهدف (دنوته) لتدنيس المقدسات ، والتشكيك في أنها دنيوية ولا صلة لها بوحى السماء ، وأنها مجرد تراث بشرى قابل للأخذ والرد ..

حاولوا في البداية طرح المقولات الشهيرة حول تعدد لزوجات ، وفهر المرأة ولكن لم تلبث هذه القضايا التي أشبعوها بالتكرار أن توارت ، واختفت بعد أن استشرت في الغرب المتحضر ..

ظواهر الخلل في البنيات الأسرية والاجتماعية ، والتفسخ في القيم .. ولقد خفت هذه الموجة وتراجعت خجلاً أمام تماسك الأسرة المسلمة وأمام السلوك الذي مازال يتمتع برصانة التقاليد والعادات الصارمة والحياء العام والحشمة والوقار والاحترام المتبادل ، وصدق فيهم القول المأثور : « لا يمكن لعار أن يصف اللباس لمن لا لباس له » ..

لقد حاول هؤلاء أيضاً أن يخترقوا السيرة النبوية ، ويخضعوا حياة

نبي الإسلام لعلوم التريية والسيكولوجيا ، فصاربوا على فروع القضية وهوامشها ، ولم يصلوا إلى جوهرها وأساسها واختلت كل موازينهم ..

فالطفل محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي حرم من نعمة الأمومة والأبوة وافتقد الحنان منح الدنيا بأسرها عاطفة وحنانا ورحمة ، مع أن القاعدة المعروفة أن فاقد الشيء لا يعطيه .. وهنا يبرز حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربي فأحسن تأديبي » .. وقول الله عز وجل :

« وانك لعلى خلق عظيم » (١) . . . و « ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى » (٢) وصدق الله العظيم ، فقد كان من الممكن لهذا الطفل اليتيم الفقير أن يضل دون رعاية الأب وحنان الأم ، لولا تعهد الله له برعايته وفضله حتى اصطفاه وصدق فيه قوله تعالى : « ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى » (٣) . .

وهكذا - يقول الدكتور رشدى فكار - أعتقد أن قضية المضاربة على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاولة النيل منها باءت بالفشل ، وأن قدرات الذهنية الاستشرقية الغربية المتمردة الخبيثة وأبحاثها المكثفة لم تكن تحسب علينا وإنما حسبت فى النهاية لنا ، وأصبحت قضية طرح العصر النبوى كمقولات تراثية متجاوزة باسم قدرة العلم نفسه الذى بدأ يفيق ويعترف أن الإسلام هو رمز الكمال وأنه وصف العلاج لأمراض آخر الزمان .

وجدير بالذكر - كما يتحفظ الدكتور رشدى فكار ويقول - إن هناك فئة من المستشرقين انصب عملها على مجرد تحقيق المخطوطات والتعريف بتراث المسلمين فى التفسير ، والأدب ، والشعر والفقه ، والتأريخ ، هذه الفئة من المستشرقين تخصصت فى إحياء التراث والتقليب فى المخطوطات وتحقيقها باسم الفضول العلمى لا أكثر ولا أقل لا باسم التعاطف مع حضارة الآخرين .. وكثيراً ما انتهى الأمر ببعض هؤلاء المستشرقين النزهين إلى الاقتراب من الإسلام والتعاطف معه ، ثم التلاطف ، ثم المحبة ثم الاندماج ،

(٢) ألقى : ٦ - ٨

(١) ألقى : ٤

(٣) النجم : ٤ ، ٥

واعتناق الإسلام بعد أن وصلوا إلى روعة جوهره المتألق وأدركوا أنه ليس من صنع عقول البشر .. هذه الفئة حقيقة مشرفة ، ولا نملك إلا أن نعترف بها ، ولا يمكن أن ننكر ما قامت به من فضل وخدمات لإحياء التراث العربى والإسلامى ، لقد قاموا بإحياء لمخطوطات كادت تندثر . وأزاحوا التراب عن مخطوطات نادرة ، وحاولوا أن يستغلوا تقنيات البحث والنشر ليقدّموه فى شكل كتب قابلة للقراءة بعد أن حققوها وأزالوا عنها الصدا التاريخى وغبار الأثرية ، وهذه الفئة لم تغامر مطلقاً أن تحشر أنفسها فيما لا يعنىها ، ولم تقم كغيرها بالمضاربة على عقيدة مليار من البشر المسلمين لكى تقول : لا ، هذا ليس من السماء ، وإنما كان هؤلاء المستشرقين المنصفين العلميين محترفي أبحاث ، ومنهم من تخصص فى اللغة .. باحثو لغويات ، أو من كانت لهم اهتمامات أدبية فى الأدب العربى ثراً وشعراً .. هذه فئة تستحق منا الشكر والعرفان بالجميل . « واما ما ينفع الناس فيمكنك فى الأرض » (٤) ..

الكعبة المشرفة وقبر الرسول ﷺ ثواب تاريخية راسخة في عصر العقل المتمرد

وفي اطار الحديث مع الدكتور رشدى فكار عن العصر النبوى وكيف حاول المستشرقون المفرضون عبثاً أن ينالوا من قدسيته يطرح من خلال رحلته الأخيرة للأراضى المقدسة لأداء شعائر العمرة انطباعاته عن الكعبة والروضة الشريفة وكيف أنهما سيكونان ثوابت تاريخية راسخة امام عقل الانسان المتمرد فى القرن الحادى والعشرين .. فى الوقت الذى ينبش فيه غيرنا فى أعماق الصخور والتراب للعثور على حجر يبرهن فيه على مقدساته على بقعة من الأرض .. هذا هو بيت الله الحرام شامخاً مهاباً جليلاً وهذا هو مقام محمد بن عبد الله رسول الله ونبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، كائناً متألّفاً تحفه الأنوار .. التى تضىء قلوب المؤمنين المحبين ، وتعشى أبصار الملحدّين الذين اتبعوا شياطينهم .. يقول الدكتور رشدى فكار :

فى رحلتى للعمرة .. التقت عيناي لأول مرة بالكعبة المشرفة وبضريح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى هذه الأثناء كان عقلى مهتما برصد محاولات المستشرقين الفاشلة لتلويث تاريخنا الإسلامى ودنونة السيرة النبوية .. وكنت قد حشدت كل طاقاتى الإيمانية وبراهينى العقلية لصد كل هذه المحاولات وتكسير أساحتها المفلولة ، ولكنى ما كنت أحسب أبداً أن زيارة العمرة ستفتح أمامى أبواباً جديدة لمجادلة هؤلاء المستشرقين .. يبراهين لا تقبل المجادلة ..

ومع شريط انطباعات الدكتور رشدى فكار فى الأراضى المقدسة استمع الى عباراته التى اضعها كما هى دون مقاطعة أو حتى تزويق .. لأنها تنبعث من القلب :

كما أكرر دائماً ، هناك زائر وزائر .. هناك المتجه إلى الحرم النبوى بقلب ثابت بالإيمان ومصدق العمل ، بمعنى أن قوله وفعله متكاملين ، وهناك

الزائر إلى خاتم الأنبياء لأداء التحية ، وهناك من يذهب لأنه رأى والده يذهب ورأى الآخرين من المسلمين فهو يذهب بدوره كما ذهبوا لاستكمال الشعائر وأداء الفريضة .

وهناك فئة - وأسنى أن تكون محدودة - تزور هذه البقاع المقدسة بهدف السياحة .. وهذا السائح أقول إنه من الأولى ألا يضيع وقته وينتظر حتى يشعر بانتسائه الإسلامى ..

والذى يعنينا هو ذلك المؤمن الزائر الذى لا يذهب إلى ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الكعبة المشرفة بقدميه فقط ، وإنما بكل مشاعره وروحه وجسده ، ويتمنى أن يلتحم مع هذه الأرض التى تضم الجسد الظاهر .. فى إطار من الهدى والنور ..

أما عن انطباعى ، بمجرد أن عبرت باب السلام بالمسجد النبوى الشريف .. فله الحمد ، كان انطباع المؤمن الذاهب لتحية هذه الأسوة الحسنة ، القدوة الخالدة وسارت قدماى لعبور الروضة الشريفة ، وعقلى يدور بأفكار تتشابك مع أعماق الإيمان وأمام الضريح الشريف ، كان يقينى بأنه سيكون بمشيئة الله معلما من معالم التحدى فى القرن الحادى والعشرين ، حيث العقل المتمرد والإنسان المادى .. لإثبات العودة إلى إعلاء كلمة الإسلام ..

وابن القرن الحادى والعشرين حسب تصورى والله أعلم - فهذا من باب الاحتصالات المبنية على التقنين الذهنى الواعى إلى حد ما - سوف يندرج تحت ثلاث فئات :

فئة التقت تحت راية الله ، وفئة مزقت هذه الراية نهائيا وتكاملت مع شيطانها ، وبينهما فئة ثالثة مذبذبة بين هذه وتلك ، والفئة الملحدة والمذبذبة سوف نبحثان فى عصر العقل المتبجح المتمرد عن مرجع إحالة بصفة نهائية .. وفى عصر الكمبيوتر لن يسمح إنسان القرن الحادى والعشرين بالتخدير والتغيبض والمجازفات وهو يرى ببصيرة حذرة ناقدة رهيبة .. والذين تكاملوا مع إيمانهم فى هذا العصر سوف يحاولون ما أمكن أن يرتكزوا على معطيات يتقبلها العقل ..

أما الذين التحموا مع شياطينهم .. فهؤلاء يمكن أن نسميهم فئة الاستهلاكين ، فئة بلا علم حقيقى ولا هدى ولا كتاب منير « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (١) ..

الإنسان من هؤلاء من بطنه وإلى بطنه ، هو ولد ليشبع ويتلذذ ويموت ، وفى انتظار الموت يمر عبر مأسورة استهلاكية تمر فيها المواد الغذائية لتتحول إلى نفايات لا أكثر ولا أقل .. ويوم يذهب ، ويوم يأتى ، ثم فجأة يتزحلق فيجد أقدامه إلى القبر وإلى الحساب الأخرى الذى لم يكن يخطر بباله ! هؤلاء هم فئة الضلال والتكبر والاستكبار فئة عباد الشيطان ، هم دعاة الإلحاد .. وهم بعجزهم عن أن يهزموا الإله سيهزمون أنفسهم ، وسيحل شيطان النفس فى قلوبهم محل هدى الله وصدق الله تعالى : « كتب عليه أنه من تولاه فانه يضل » (٢) ..

وما أروع الآية القرآنية الأخرى التى تعطى لنا بعض الإرهاصات لهذا النوع من الضلال الشيطاني لدى المتكبرين باسم العلم الضال حينما يقول الحق سبحانه وتعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً » (٣) ..

هم الآن يحلمون بخلق الإنسان وهم لم يشاهدوا أصلاً خلق أنفسهم . إن العالم الملحد يحاول الآن أن يقوم بعملية الخلق ، فيستأجر رحم ، ويستأجر بويضة ، ويستأجر خصية .. عملية رهيبة ، وهم يقينا سوف ينكبون على أنفسهم وسيرد سهمهم إليهم ..

إن الله سبحانه وتعالى فصل فى آياته الكريمة بين العلم وبين الشيطان .. فالذى يجادل بغير علم ، يمشى وراء الشيطان ، وطريق الشيطان هو طريق الجهل لا العلم ، حتى لو صور له شيطانه أنه على علم فهو يفرق فى جهالاته .. لأنه لو علم ما تبع الشيطان .. وهناك فئة المتسائلين ، أو المذبذبين وقد أنبأنا عنهم القرآن العظيم « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » (٤) ..

(٢) الحج : ٤

(٤) الحج : ١١

(١) الحج : ٨

(٣) الكهف : ٥١

ونلمس هذه الفئة وللأسف بوضوح مع بعض الجوقات ، أو من يسموا
ببروجي المواسم أو مفكرى المناسبات ، بمعنى يعطوا لكل موسم رداءه
ولكل مناسبة ما يليق بها ، وأعتقد أن هذه الفئة حرفية أبدع القرآن الكريم
في وصف أتباعها .

عودة إلى خواطرى أمام الضريح الشريف ، إن هذا الضريح كما قلت
سيكون قمة الثواب المتحدية في القرن القادم .. لأن هناك فئة سوف تجادل
في الله بالعلم إلى جانب الفئة التى تقبلت الإيمان بالهدى والنور .

هذه الفئة ستقول نعم .. العلم أوصلنا إلى أن هناك مبدع للكون وخالق
.. وهذه الحقيقة أدركها آينشتاين حينما قال : « إن الكون بقوانينه المبدعة
لا يمكن إلا أن تكون من وراءه قوة مبدعة خالدة ورائعة تقوم بتنظيمه
وتنسيقه » لاحظ آينشتاين ذلك فى ضوء مشاهدته للإيقاع المتناغم هائل
الدقة بين جاذبية الكواكب والنجوم ..

وبعد نصف قرن من آينشتاين يأتى عالم عملاق آخر هو ألفريد هويل
الذى قال : إن الحياة على هذه الأرض لا يمكن أن يكون سببها قانون الصدفة
والضرورة ، كما يعتقد البعض ، لأن لدى يحرك الأرض وما عليها هو
« ما أسماه » بالذكاء الكونى .. وهكذا نرى ان ثمة علماء بدأوا يؤهلوا
الذهن البشرى إلى إشراقة النور باسم العلم ..

وعلماء القرن الحادى والعشرين من قمم العقول والدهنيات القادرة
سيطرحون قضية .. نعم هناك إله ونعم هناك أنبياء ، ولكن من يؤكد لنا
أن ما أوحى به إلى الأنبياء هو الذى وصل إلينا بعد مسيرة تلوث التاريخ
الرهية وافتعالات الإنسان فى مسيرة منفعه الذاتية ؟ سيقول إنسان ذلك
العصر : نريد نبيا له ثبات تاريخى .. هنا يشخص القبر الشريف لرسولنا
صلى الله عليه وسلم .. بأنه هو الثبات التاريخى ، وكذلك الكعبة المشرفة .

إن من أراد راية الله ، فهذا هو نبي الله وهذا ضريحه .. لن يبحث فى
الأثرية ولا فى الهياكل ولا فى المعابد .. إن أمامه ضريح ثابت ، يرام أمامه
أحبابه لتحيته والسلام عليه .

أما عن انطباعي أمام الكعبة بيت الله الحرام فقد ظننت على الطائفتين حولها وراودني شعور بأنني أرى مجموعة صحابة رسول الله عليه الصلاة وأزكى السلام يطوفون .. ارتباط في الرؤية ، أما من بين بين يطوف اليوم ، وطاف بالأمس لم أستطع أن أفصل بينه وكأن القرون الأربع عشرة لم تكن .

هل هناك أروع من ذلك ؟ .. نعم .. اتجهت إلى الكعبة المشرفة ، وصليت ركعتين في مقام إبراهيم عليه السلام ووقفت وقفة العارف بكمال الدين ، بالدين الكامل الذي هو المؤشر للكون بأسره .. إن من أراد النجاة .. فهذه هي الثوابت والدليل على أن التحدى قائم ودائم .. إنها الكعبة التي طاف حولها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام .. وهي الكعبة التي طاف حولها حفيدهما محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نبي الإسلام وخاتم الأنبياء ، رمز الوحدة الكاملة .. الكعبة ثابتة وباقية ، بينما نلاحظ عمارات ناطحة شيدت في أوروبا وهدمت بعد ربع قرن من إنشائها بفعل الحروب ..



(٣)

أثر الفكر الاسلامى على الحضارة الأوروبية

.. بين العرفان والجحود !

فى حوار مع الدكتور رشدى فكار حول أثر الفكر الاسلامى فى أوروبا بين العرفان والجحود .. يؤكد أن الاسلام سوف يقوم بدور المصحح للسلوك للإنسان الغربى بعد أن وصل مع تطوره التكنولوجى اللاهث الى حالة من الخبل الجماعى ، كما وصفه بذلك « هاججر » عميد فلاسفة القرن العشرين ..

الاسلام سوف يعيد له التعادل والموازنة بعد أن أصبح يعاني من حالات الاهتزاز التى يهرب منها فى عيادات الطب النفسى أو جلسات المخدرات .

وبذلك تتحقق نبوءة رائد المدرسة الوضعية « أوجست كونت » الذى قال : « أن كان لابد من دين فى مستقبل القرون فلن يكون الا الاسلام » .. يقول الدكتور رشدى فكار :

حينما نقول الحضارة الغربية ، فإننا نقصد شقيها الرأسمالى والماركى على حد سواء فالأم واحدة ..

والحضارة الغربية تركز على قدرات ثلاث هى : الأسس العلمية ، والتطبيق الصناعى .. والمعرفة التكنولوجية .. هذه هى حضارة الغرب التى تسود بشقيها ، ولكن بطرق متباينة على الأقل من حيث المظهر ، أما الهدف فواحد ونعنى به الهيمنة على الإنسان الآخر ، إما بصادرته كلية كما فى الكتلة الماركسية ، أو بصادرته جزئياً كما فى الكتلة الليبرالية (الرأسمالية) .

هناك فعلا هيمنة لإنسان سائد يسمى إنسان الغرب بوسائله الثلاث لا بمثله الإنسانية وقيمه الروحية ، وقدراته الخلاقة لإنقاذ البشرية ، بقدرات القهر والتحكم التكنولوجى ومحاولة توظيف العلم والتطبيق الصناعى للتدمير .. وهذه الحضارة مرت بعدة مراحل :

مرحلة جاءت مباشرة فى نهاية العصر الوسيط ، وهى مرحلة التحفظ المتردد أو الخجل على المبتاعين والفكر التجريدى والاتجاه المدرسى فى العصور الوسطى لتتحول إلى مدارس نقدية فلسفية ..

ومرحلة حاولت فيها أيضاً أن تستأنف قدرة التجريب فى الظواهر الطبيعية ، وقدرة المنهج ووسائله وتقنياته فى علوم الإنسان لتتحول إلى دورة علمية ، بمعنى أنها انتقلت من دورة فلسفية إلى دورة علمية ..

وحالياً فى القرن العشرين ، الحضارة الغربية أصدق اسم لها - كما أطلقنا عليها هذا الاسم فى نظريتنا عن المراهنة الصناعية وأزمة الحضارة - فى مجلدات خمسة - هى حضارة تكنولوجية ..

ومن الخطأ أن يطلق عليها حضارة علمية أو فلسفية .. لأن الثالث المتحرك .. الأسس العلمية . والمعرفة التكنولوجية ، وتطبيقات الصناعة ، استطاع فى مرحلة أن يصدر العلوم ، ثم فى مرحلة ثانية ، وهى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أن يصدر الصناعة ، ثم الآن بدأ يصدر التكنولوجيا .. الحضارة الغربية تخصصية لا ترقى إلى مستوى التنظير العقلانى ، وإنما نركز على خصائص توزيع العمل إلى آخره من الخصائص المعروفة بالنسبة لهذه الحضارة السائدة التى تحاول - كما أكرر دائماً - أن تستغل الانتصار الذى حققته فعلاً وموضوعياً فى حقل التجريب العلمى ، أى الظواهر الطبيعية لتحواله إلى انتصار فى علوم الإنسان وبالتالي على الإنسان الآخر ، إنساننا وإنسان العالم الثالث بصفة عامة أن يحاكي ويقلد الإنسان الغربى السائد ..

يعنى بفسر ما استطاعت هذه الحضارة أن تنجح فى السيطرة نسبياً على الظواهر الطبيعية وتحقق ما نراه الآن من هول ومخاضات كبرى بالنسبة

حتى للفضاء وللصواريخ . ولكنها فشلت في أن تحقق شيئاً يستحق الذكر للإنسان ، وهذه الحقيقة بعترف بها حالياً كبار فلاسفة الغرب بتوقعات مختلفة .. هايدجر . ماركيز ، كامى ، جاسبرز . الجميع متفقون أن المأزق والطريق المسدود يواجهان هذه الحضارة .. إن إنسان الغرب شغل بما حوله بأكثر مما انشغل بذاته .. لذلك فنحن نسميها أيضاً بحضارة الأشياء .. إن الأشياء هى التى تحضرت .. التلفزيون والفريجدير والطائرة والسيارة .. كلها تحضرت أما الإنسان فلا .. الإنسان هذا قضية أخرى والآن نتقل إلى تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب الأوربي .

إذا كان عمر الحضارة الغربية كله لا يزيد على ٢٥٠ أو ٣٠٠ عاماً فإن الحضارة الإسلامية ظلت زهاء ٩٠٠ عاماً أو تزيد هى الحضارة السائدة كونيا تقلد (بفتح اللام) ولا تقلد (بكسر اللام) تعطى ولا تأخذ .. هذه الحضارة الإسلامية . تعز وتفتخر لأنها لم تسهر فقط على أن تربط الإنسان بإنسانيته السامية لا بحيوانيته الاستهلاكية ، وإنما برهنت على أنها لم تكن حضارة (الفيتو) ، يعنى لم يكن لدينا فى حضارتنا الإسلامية تلك المنوعات والمناطق الفكرية المحظورة الاقتراب منها : كانت حضارة تعز دائماً بالإنسان فى كل مكان . وتعطى ، وتحاول أن ترتفع بهذا الإنسان ، شريطة أن يكون واعياً بإنسانيته ، أى يعلم جيداً أنه مخلوق وليس بخالق وأنه عليه أن يعى أنه فى خدمة الآخرين بالبر والإحسان والتقوى ، وكل المثل المعنوية والمبادئ الأخلاقية العليا إلى جانب القيم الروحية .. هذه الحضارة الإسلامية ، عند محاولة تقنينها - كانت كريمة ومعطاءة .. بل وكريمة بلا حدود ، وهى ربما تدفع الآن ثمن هذا الكرم والعطاء بلا حدود وعدم رقابة للآخرين ، لأن هدفها لم يكن فردياً أو جهوياً أو إقليمياً ، كانت حضارة الإنسان لإنقاذ الإنسان . حضارة الأمة الإسلامية الوسط ، الأمة الخيرة ، القدوة بين الأمم .. ومن يراجع الفترة التى تعيننا وهى فترة تراجع الإنسان العربى - محور هذه الحضارة الإسلامية - أمام أسباب متعددة وعوامل مختلفة ، وفى فترات دفاعه عن معقله ، ويقظة الحضارة الغريبة ، تتأمل دورات تطور الحضارات الثلاثية فهى دورات سلالية ، تصبح دوران ثقافيه ثم تصبح دورات حضارية .. ومن الممكن للدورة الحضارية أن

تراجع لتحول إلى دورة ثقافية والدورة الثقافية يمكن أن تنفت لتصبح دورات سلالية .

والدورات السلالية دائما ما تأخذ شكل دورات متعددة ، فهي ليست دورة واحدة ، بمعنى أن كل جماعة تدافع عن سلالتها وعن عشيرتها وعن قبيلتها ، وعن منطقتها وعن هويتها وهذه هي الدورة التي عاشتها حضارتنا قبل الإسلام ..

والمعروف أن الإسلام جاء ليعطى هذا الإنسان العربي الدورة الثقافية .. ماذا نعني بالدورة الثقافية ؟ ..

نعني أن مثل تشمله هذه الدورة لا يتمركز بانتمائه نحو مركزية محددة سلالية أو عرقية ، وإنما يلتقي مع الآخرين في نطاق قيم ومثل مشتركة تفرز الثقافة المشتركة هذه هي الدورة الثقافية من الزاوية الدنيوية . أما من زاوية الجانب الديني ، فهي تمثل الفترة الخالدة بالنسبة لنا وهي التي أعقبت فترة الجلود المتشلة في حروب الردة والتي اعتبرها هي نقطة التحول بين دورة ثقافية ودورة حضارية ..

إن الردة كانت محاولة للاتكاس بالدورة الثقافية للعودة بها من جديد إلى دورات سلالية ونعرات .. الخ .

وحينما تجاوزت الأمة بحمد الله فترة الردة انطلقت الدورة الثقافية إلى دورة حضارية وانتشرت عن طريق الفتوحات الإسلامية ، ولتساءل أيضاً .. ما معنى الدورة الحضارية ؟ إن الدورة الثقافية حينما تتبناها شعوب خارج معقلها وتتجاوز الحدود التي كانت تتحرك فيها تصبح دورة حضارية .. فلا يمكن تصور دورة حضارية بدون دورة ثقافية في داخلها ، باعتبار أن الدورة الحضارية دورة أمم ، أما الدورة الثقافية فدورة شعوب ، إن الثقافة تنتسب إلى الشعوب ولا تنتسب إلى الأمم ..

أيضاً وبالتالي الدورة الحضارية توصف بالعظمة ، أو بالتراجع ، فنقول حضارة مندفعة ، أو حضارة متراجعة ، أما الثقافة فإن لها الصفة الاستمرارية

لأنها تعبير تلقائي عن وجدان الشعوب — هذه نقطة مهمة ينبغي أن نأخذها في الاعتبار من حيث التقنين الموضوعي ..

الدورة الحضارية الإسلامية إذن دورة أقلعت بعد حروب الردة ، واستمرت والله الحمد ٩٠٠ عاماً .. وللأسف لا نستطيع أن نقول إنها استمرت حتى اليوم .. لماذا ؟ لأن من خصائص الدورة الحضارية أن تكون سائداً . فالحضارة تجذب إليها ولا تنجذب هي نحو أخرى .. وتكون لها قدرة السيادة وقدرة تبنى الآخرين لها .. ولذلك فهي تحولت في فترة الأزمة بالنسبة للحد الإسلامي إلى دورة ثقافية ، لها خصائص حضارية ، ولكن في معقلها ، أما إذا بحثنا هل من امتداد آخر للحضارة الإسلامية ، فهذه قضية لا بد وأن نتطرق بإذن الله القرن الحادي والعشرين لتشهد تصدر الإسلام بفضل الأجيال الصاعدة المسلمة من أجل أن يستعيد دورته الحضارية ليحقق من جديد التعادل والموازنة ويعدل موازين الكون التي اختلت تحت ثقل حضارة الأشياء ، حضارة المادة العاشمة ، حضارة التكنولوجيا ، وحضارة الإسلام في القرن القادم لن تتحول إلى دورة حضارية بأسلحة أكثر فتكاً وصواريخ أدق تصويهاً وتدميراً ، وقنابل أقوى من الهيدروجينية ولكنه سيكون دورة حضارية لهذا الإنسان الذي غالى في الاستهلاك وغالى في وسائل التدمير ، وبدأ يبحث عن ذاته ، وسوف يجد إنسان الغرب وكل البشر هذه الموازنة الرائعة لهذا العقل القادر . والذي هو في نفس الوقت متقبل لأوامر السوء وتوجيهاتها ولا يتنكر لها لأن إنسان الغرب بدأ يشعر — وهذه حقيقة لا مبالغة فيها — أن حضارته وصلت إلى مأزق .. ولنرجع إلى دورتنا الحضارية في فترة الدفاع عن معقلها ، ولا نقول فترة تراجعها وانتكاسها .. إن هناك اتجاه لدى المتخصصين في الحضارة الغربية للبحث عن أصول الحضارة الغربية عن المصادر الحقيقية لهذه الحضارة ، بعد أن انتهت موجة الفروسية والشخصانية لهذه الحضارة ، وأصبح الغرب الآن واثقاً في نفسه .. ففي الماضي كانت تطرح المصادر اللاتينية والإغريقية فقط كمرجعية للحضارة الغربية ، وطالما قلبوا في أشتات أساطيرها .. وغاب عنهم أن هناك ألف عام من القطيعة ، واكتشفوا أنهم كمن يبحث في الأساطير والأثرية عن حقائقه التاريخية .. وهم بذلك كانت قضيتهم تطرح بقياس أن كل شيء

صنع في الغرب ؛ وهم حتى لم يسلموا بمقولة أن الحضارة الإغريقية أساساً هي انعكاس للمدارس والحضارات الشرقية القديمة — لأن أرسطو لم ينزل هكذا بمعجزة ، وإنما هو امتداد لمؤثرات سابقة له ..

والذي يعني أنه حالياً بدأت علامات الاستفهام تطرح أمام وضوح الحيشات والبراهين ..

ولنتناول بعض الأمثلة :

حالياً .. دول الشمال الأوروبي الاسكندنافية والاتحاد السوفيتي الدولة العظمى ، حينما تقلب عن مصادر تروى لهم حالهم منذ ألف عام فلن يجدوا إلا مصدر إسلامي لتوثيقها هي كتابات « يحيى غزال » وهو سفير عربي أندلسي ذهب إلى بلاد الشمال وسجل حياة الفايكنج ، لم يسجلها بطريقة بدائية ، كقوله إن هؤلاء القوم مجوس وعبداء نار ، وعليهم اللعنة . أبداً لقد أعطى هذا السفير العربي صفات لهذه الشعوب وكيف تعيش حياتها اليومية ..

وتاريخ روسيا .. الاتحاد السوفيتي .. مصدره الأساسي رحلة الرحالة العربي ابن فضلان .. وقد طبعت رحلته بالروسية وترجمت للعربية .. مما يدل على أن الإنسان المسلم كان مهتماً بغيره ، كما هو مهتم بنفسه .. لم يتكلم ابن فضلان عن تخلف الشعب الروسي كلام المتشفي ، أو المحتقر ، وإنما وصف أجناس الصقالبة والبلغار والأوكرانيين والروس في كل المناطق التي تسمى الآن بأوروبا الشرقية ..

بل وهناك دليل ، المفروض أن نتفح منه في مواجهات معينة مع بعض الكيانات المصطنعة في هذه الأرض العربية المسلسلة .. فإن محاولات اليهود للبحث عن آثار لهم في فلسطين تبرر وجودهم لم يكتب لها إلا الفشل ، أما إذا بحثنا في شرق أوروبا سنجدها واضحة تماماً من خلال كتابات ابن فضلان في رحلاته الأوروبية ، فقد حكى كيف أنه كانت في شرق أوروبا إمارة تسمى إمارة الخرز ، وهي كما ذكرها آخر

إمارة يهودية قبل أن تنتهى نهائياً ويبدأ شتات اليهود التاريخي ، وكانت هذه الإمارة بالتحديد في تشيكوسلوفاكيا .. وكان يحميها المسلمون .. هذه الحقيقة التاريخية كثيراً ما أواجه بها كبار المفكرين اليهود .. قلتها لترافسكي وهو من أكبر فلاسفة التاريخ في القرن العشرين وهو يهودي :

في الوقت الذي كانت دول أوروبا تحرق اليهود في الميادين العامة في يوم الأحد حتى تستمر لعنة المسيح .. كان اليهودي في الأندلس يتبوأ منصب الوزارة في بعض الإمارات الأندلسية .. مثل ابن ميمون الذي كان وزيراً وكان يكتب بالعبرية كتاب دلائل الحيران ليدافع عن سيرته وهو محاولة لإقناع الحائر لأن يضع حداً لحيرته .. وفي نفس الوقت كانت هناك إمارة الخرز التي لم تتمكن من البقاء في شرق أوروبا إلا بحماية جيوش المسلمين ..

وقلت لترافسكي : وفي أحضاننا انطلقت موجة الانتعاش بسا لنا من كرم وسخاء ، وقلت : إن الحضارة كانت كريمة أكثر مما يجب ، كانت حسنة النية لدرجة أنها عانت طويلاً من هذه الأريحية والحاسية المتزايدة ..

إن كتاب ابن ميمون كان يحكي عن أول رحلة لليهود في الأراضي المقدسة . أو القدس وفلسطين التي كانت تحت راية الإسلام .. رحلة ١٥٠٠ عائلة يهودية أندلسية ، إلى هناك في ظل ساحة الإسلام .. في حين أن الامبراطورية الرومانية المسيحية كانت تحرم دخول اليهودي إلى القدس .. ومع كرم الإسلام بدأ تسلل اليهود إلى فلسطين والأراضي العربية عبر دروب المروعة العربية والبر والإحسان العربي ..

وقلت لليهودي العالم ترافسكي : إذا كان لليهود عودة فليعودوا إذن إلى إمارة الخرز التي كان لها وجود في تشيكوسلوفاكيا ، فليعودوا إلى أرض خاقانهم الأكبر أو صاحب الـ ٢٥ قبراً المعلقة في براغ .. والتي تشمل آخر تراث لليهود على وجه الأرض وذلك بدلا من أن يعودوا إلى أساطير وأباطيل وبدلا من أن يبحثوا في الأثرية .

هذه هي الحضارة الإسلامية التي عانت طويلاً من روح التكر والجحود

.. برغم أنها أعطت الكثير للنهضة الأوروبية طيلة ٥٠٠ سنة من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر الميلادى ، وهى الفترة التى يسمونها الآن فترة تصيد المخطوطات العربية .

ولكنى أستطيع أن أؤكد أن موجة النكران والجحود لفكرنا الإسلامى وعدم الاعتراف بأنه يمثل جوهر الصحة العقلية الأوروبية سوف تنكسر تماماً مع مطلع القرن الحادى والعشرين ، بعد أن تفتحت الدراسات العلمية المنصفة ، وأدرك العلماء فضل الحضارة الإسلامية من خلال الحثيات والأدلة الموضوعية ، وأن النكران والجحود من صنع المنتفخين الذين لا يكتفون بأن يجرّدوا الشعوب من حاضرها وإنما يعمدون إلى سلب ماضيها ! .

إن المخطوطات العربية التى ترجمها رواد عصر النهضة الأوروبية باقية فى متاحف ومكتبات العواصم الأوروبية ، وقد شهدت القرون الخمسة من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر فترات الانتحال الفكرى الكبرى ، لقد أطاروا رؤوس المخطوطات العربية وحذفوا عناوينها ، ثم ترجموها إلى انلاتينية واكتفوا بنقش توقيعاتهم عليها .

إن « روجر بيكون » رائد التجريب العلمى و « فرانسيس بيكون » و « ديكارت » ، نقلوا فلسفة التجريب من الحضارة الإسلامية وانتحلوها لأنفسهم ، فى غيبتها ، سرقوها من ابن الهيثم وابن حيان والبيرونى والخوارزمى ، بعد أن استولوا على مخطوطاتهم ..

وكما شاهدنا فقد عرفت حضارة الإسلام الغربى بأرضه وتاريخه ، ولعبت رحلات ابن بطوطة والإدريسى والتيجانى دوراً فى فتح المسالك أمام الكشوف الجغرافية البرتغالية والإسبانية والإيطالية بعد عصر النهضة .

إن الحضارة الإسلامية العربية كانت كريمة ومعطاءة ، ولقد أنقذت الإنسان الغربى الذى صادرتة الكنيسة طيلة ألف عام ، كان إذا أراد ان يتسم لزوجه يستأذن من أقدس يوم الأحد ..

هل أبتسم لزوجتى ؟

فيقول له القس : لا ليس هذا يوم الرضا ! .

فيطيع هذا الإنسان المستعبد ! .

كان الأوروبي مجرد رأس في قطيع من الأغنام ! ..

وهذا يفسر لنا هذا الحقد الرهيب في حضارة الغرب على الميثافيزيقا وعلى اللاهوتية وعلى كل ما هو تجريدي ، وذلك لتصفية حسابات ذاتية .

أما الحضارة الإسلامية العربية ، فهي أول من لفتت نظر الغربي الرافض المحض الذي استسلم للأباطيل والأساطير فاكشف وهو في ذهول ان الإنسان يمكن أن يكون مؤمنا ويفكر ، وجد الأوروبيون بشرا مؤممين ويفكرون في العمران وشتى العلوم ، يرتكز فكرهم على الوحي وفي نفس الوقت لا يصادروا العقل ..

وهنا بدأت صحتهم العقلية ، وحمل ذلك مفكريهم على التمرد على العصور الوسيطة والاختصاص مع الكنيسة ورجالها والتطلع إلى الاحتكام العقلي ..

ومن هنا صاح « أوجست كونت » رائد المدرسة الوضعية الذي يثقل قبة التمرد :

« إن كان لابد من دين في مستقبل القرون فلن يكون إلا الإسلام » .

لماذا ؟ لأنه الدين الذي سمح للعقل أن يشرق وبسط له الشعائر وأعطى نه الطريق الذي يجعله إنسانا لا مجرد حيوانا استهلاكي ..

فحضارة الإسلام سوف تعيد الابتسامة الطبيعية للإنسان الغربي الذي أوصلته حضارة الأشياء المادية إلى جفاف العاطفة ، الإنسان الغربي ارتوى من الخارج ولكنه جف من الداخل ، جفت لديه العواطف ، ورغم أنه سيد الابتسامة المقننة ، فإنه فاق الابتسامة الطبيعية ، يعني يمكن أن يتسم لعدوه بالاستراتيجية والتكتيك ، ولكن حينما تطالبه أن يتسم بطريقة طبيعية يقول لك كيف ؟ ..

لا يعرف .. كما أنه لا يعرف كيف يبكي ؟ . لقد سألت البعض في بعض

المناسبات المحزنة حينما يتوفى صديق مشترك لى ولبعض الفرنسيين أو السويسريين .. فى لحظة الدفن كنت أنظر فى الوجوه .. وجوه أقرب الناس إليه فلم أجد إلا الجفاف الرهيب ، وكأنهم يدفنون كلبا ..

وفى لحظة من هذه اللحظات سألت أقرب الناس إلى الميت المدفون وكان استاذا كبيرا فى أوروبا وله ثقل علمى ضخيم ..

قلت له : ألا تعتقد أن هذه الأرض تستحق دمة منك بعد صداقة استمرت زهاء ربع قرن .

قال هذا الأستاذ الكبير : فعلا تستحق ولكن ليست هذه هى المشكلة ..

قلت له : ما هى هذه المشكلة إذن ..

قال : المشكلة هى كيف نجد هذه الدمة ؟ ..

جفاف .. جفاف فى العواطف .. جفاف فى العلاقات فى ظل هذا الجبروت الجديد الذى فرضته الحضارة التكنولوجية .. حضارة الاختزال .. اختزال الأمكنة واختزال الأزمنة ، واختزال المسافات ، واختزال العواطف ، واختزال الابتسامة .

وتسأل المفكر الأوروبى : لماذا كل هذا الاختزال ؟ .. يقول لك : لا أدرى ! .

والحقيقة أنه جزء من مسلسل مندفع يقوم هو بعملية التنفيذ تلقائياً كأنه مجرد حلقة فيه ..

ومن هذه الزاوية ، وربما فى الوقت القريب . وهذا ما ألاحظه خلال بعض التيارات الفكرية الكبرى فى الغرب .. سوف يطرح الإسلام لا أقول كبديل للحضارة الغربية ، ولكن وعلى الأقل سي طرح كتناسؤل .. لماذا الإسلام ؟ .. حينما يلاحظ الغرب أن شعوب الأمة الإسلامية التى تعدادها مليار نسمة تعيش مع عواطفها وابتسامتها وآملها وتطلعاتها رغم المعاناة الهائلة والتخلف .

والإنسان المسلم يريد رغم كل عوامل سحقه وإبادته وبعد أن غضى
بالأثرية .. بالاستعمار والقهر .. أن يكتشف ذاته وينطلق لاستعادة مجده ::

إن مفكرى الغرب فى دهشة من الإنسان المسلم الذى مازال أسرى .
يعمر قلبه بالعواطف لأبنائه وزوجته وأقاربه . هو إنسان مازال علاقات فى
إنسانيته رغم فقره وتخلفه ، والإنسان الأوروبى والغربى عموماً رغم كل
عوامل قوته ورفاهيته تخلق عن إنسانيته وجفت شجرة عواطفه .

الإنسان الغربى ليس له مشاكل ويخشى من أى شىء ، أصبح فى قمة
الاهتزاز والتوتر ومفكرو الغرب يقولونها الآن وبصراحة : نحن نحتاج
لمن يقودنا إنسانيا لا حضاريا ، وهنا يأتى الإسلام ليصحح السلوك ويعدل
الموازنين ويحقق التعادل ..

وهنا تعلق أمة محمد صلى الله عليه وسلم شاهدة على الناس .. كل
الناس ..

* * *

(٤)

قضايا تراث المسلمين .. ليس للإسلام قضية

● الإسلام ، ماذا نعني بالإسلام ؟

سؤال يبدو في مظهره مدعاة للبساطة . ولكن من حيث المضمون والجوهر يعنى الكثير ، الإسلام كأصول . وكما هو معروف يتجسد أساساً في القرآن كأساس أولاً وقبل كل شيء . إلى جانب الأحاديث القدسية ، والأحاديث الصحيحة باعتبار أن هذا الجانب له طابع إلهي ، أو طابع العصاة الإلهية ، أى لا ينطق عن الهوى ، هذا فيما يعنى المصادر . وتشكل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجاً لقدوة المسلم في حياته اليومية . في علاقاته الأسرية والاجتماعية ، في التعامل مع الأقربين ومع الآخرين ، مع المرید ، ومواجهة الخصم العدو . وبالتالي لا يمكن تصور الإسلام دون هذا الجانب العلمى المجسد في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

عناصر ثلاثة تطرح كما طرحت من قبل باعتبار أن العصر النبوى وهو الذى يحتوى زمانياً هذه العناصر يرمز إلى الإسلام . فهل يمكن اعتبار هذا العصر قضية تراثية ؟ قابلة للاجتهد ، أو التحفظ ؟ أو تصحيح بعض أحداثها ووقائعها ، أو محاولة الانشاء والافتعال حولها ؟ .

نعتقد وفي إطار هذا الحوار للإجابة على هذا السؤال أنه لا بد وأن نتعامل موضوعياً مع هذه الإشكالية حتى نوضح ، ومنذ البداية . لا بد من أن نشير إلى أهم التيارات التى تضارب حالياً كما ضارب غيرها من قبل تحت شعار علامات الاستفهام حول العصر النبوى : أى حول الإسلام ، هذه التيارات يمكن أن نجملها - فيما يلي - فى ثلاث :

التيار الأول : يحاول باسم مزيد من الغيرة ، ومزيد من الحماس أن يوسع ويضيق معتمداً على جانب من الإنشاء التاريخي ليدعم رأيه . وكثيراً ما يتقدم بحسن نية ليعلن أن كل هذا محبة في الإسلام ، وفي رسول الإسلام .

التيار الثاني : يتبنى أروحة الحياء ، مقدماً لنا ما قيل ويقال . هذا هو القرآن وهذا ما قيل فيه . وهذه هي الأحاديث القدسية وهذا ما يقال عنها ، وهذه السيرة وهذه هوامشها . وهو في كل هذا يرفع راية الموضوعية . بل وباسم هذه الراهية كثيراً ما يدع جزئيات صفيت حساباتها . على أن الالتزام الموضوعي يتطلب أن يعاد النظر فيها مرّة أخرى ، ويعرف بها . مجرد مثل : مسألة الغرائق العلى وأن شفاعتها عند الله لترتجى . كذلك يحاول هذا التيار أن يعرض لنا ما قدم منذ ثلاثة عشر قرناً على نفس المستوى الذي تقدم فيه معطيات القرآن الكريم من اجتهادات ينقصها عنصر المشاهدة والمعاصرة . باعتبار هذا رأى وهذا رأى . وفي ذلك تجن على الموضوعية باسم الموضوعية ، حينما لا يأخذ في الاعتبار الفارق الزمني . وفاعلبة المشاهدة والمعاصرة . وإنا لتساءل هل يسكن لباحث في القرن العشرين . أن يكون موضوعياً حينما يحاول أن يزعم الثقة بشكل مقنع فيما وصل إلى مرتبة اليقين ، وفي عصره لا في عصرنا . لذا وإن كنا قد تحفظنا على التيار الأول ، آخذين عليه المغالاة في التحمس والإنشاء ، مع تقديرنا لما له من مشاعر وحب وتوادم مع العصر النبوي ، نأخذ على هذا التيار الثاني تجاوز الموضوعية باسم الموضوعية ، حينما يسوى ويعادل بين اليقين ومجرد الاجتهاد . وهو في ذلك أقل - بلا شك - تطرفاً في احتسائه برداء الموضوعية من التيار الثالث والأخير ، الذي سوف نتعرض له .

التيار الثالث : ونعني به التيار الذي جمع بين شتات ذوى النيات المخرضة ، وحاجات يعقوب الماكرة ، بهدف إفراز رسوم التشكيك احتشاء بساً تزخر به ساحة الفكر المعاصر من تجديد في المناهج والقراءات والخطاب ، وتخصيص للعرفة وتعميق لها . شتات التقى فيه من له حسابات راسية يريد أن يصفها مع الإسلام ، أو من حاقد فاقد الطمأنينة وقناعة الإيمان ، فيريد أن يعمم حقه وقلقه عن طريق إقناع الآخرين به ، وبين عسيل كلف

بمهمة محددة ينال بها من الإسلام وبين شتات اتخذ حالياً من الإسلام الذى يستعيد نوره ، لا لأنه انطفأ ، ولكن لأنه تظلل بضباب سلوك المسلمين وسحب تكبرهم لجوهره مع مغالاتهم فى التمسك بمظهره .

هذا التيار ينطلق فى تحفظاته صريحة أو مقنعة من القرآن ، فمن المعروف أن الاستشراق ، ونعنى به الاستشراق المغرض لا الاستشراق البناء ؛ فهناك استشراق واستشراق ، عبأ كل طاقاته باحثاً عن علة ولو باسم الافتعال التاريخي ، كى يبحث من خلالها التحفظ على حفظ القرآن .

فهذه فئة من الاستشراق تتكلم عن آيات قرآنية حذفت ، وهذه فئة تتحدث عن آيات أضيفت . وقت طويل ، وجهد كبير من الضوضاء وبث السموم . انتهت فى النهاية إلى الإلغاء . ومن نفس الاستشراق .

فكم من جهد لإثبات « الغرائق » التى أشرنا إليها من قبل ، وكم بذل من جهد للافتراء ومحاولة الباس القرآن ما ألبس للأناجيل . ولكن الآية الكريمة مرة أخرى برهنت لنا على مصداقيتها : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١) وبقي القرآن كما هو ، ورد كيد الكائدين لنحورهم من عصاباتهم ممن تصدوا باسم البحث العلمى لكى ينفدوا هؤلاء الماكرين مرتكزين على نص القرآن فى النسخ : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » (٢) ، وأن القرآن الكريم الذى حفظ ، بعد أن جمع وأعيد جمعه من حفصة رضى الله عنها وزيد إلى مصحف عثمان ، بقى القرآن وبفضل من دفعنهم الغيرة وعمق الإيمان ، بقى القرآن كما كان ، توالى القرون والعصور وتعددت الأزمنة والأمكنة ، وبقي القرآن صامداً يعبر التاريخ مرتلاً باللسنة المؤمنين ومحفوظاً فى قلوبهم . وها نحن اليوم ، وقد انقشع غبار وضباب هذا الافتعال حول القرآن . نشاهد أن فئة الحاقدين ومجموعة الشتات غيرت الموقع ، ونوعت المنهج ، وعدلت من اختياراتها وأهدافها . فاتجهت بعد أن خسرت معركة القرآن إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ملهمة القدسية أو صحيحة فى محاولة لافتعال إشكالية القرآن .

(٢) البقرة : ١٠٦

(١) الحجر : ٩

الحديث القدسي ، والحديث الشريف الصحيح ، عرف من البداية القلوب المحبة الساهرة على متنه وسنده . وما زالت الروائع العطرة تغم سماء الجزيرة بعد رفع روح الرسول إلى الرفيق الأعلى . وهكذا حملت إلينا علوم الحديث ومدارسه ومصطلحاته أصداء هذا الجهد العملاق الذي بذل من المحدثين ومن رواه الحديث . وكيف أن من غاروا وأحبوا الرسول أفنى البعض منهم سنوات طوائف ليتأكد من جملة واحدة وردت في متن حديث ، أو ليؤكد سنداً من الأسانيد ، ما عرف البحث والتدقيق مثلاً عرف لدى أصحاب الصحاح والسنن . ومن ثم لم تسخ قرون ثلاثة حتى كانت المعايير النهائية لما هو صحيح ، وما داخله الوهم ، أو الوضع ، وتخصص المحدثون وصاغوا مصطلحات التقنين والتقويم . وما حاولوا أن يتقولوا مهساً كانت الأسباب بكلمة لم يتأكد صدق قائلها من الرسول .

أين نحن من هؤلاء ؟ هذه الأجيال التي جمعت بين عمق الحب والغيرة وقدرة الصبر والإصرار . كل هذا من أجل رسول الله عليه السلام . لصيانة ما قال وهو النبي المعصوم .

من أين لنا أن نساوي بين هذا المحدث القريب مكانياً وزمانياً من عصر الرسول . والقريب عاطفياً وإيمانياً من ذاته الطاهرة ، ولا يضن بوقته وزمانه ، وبين هذا البعيد بزمانه ومكانه ، بعواطفه ومشاعره ، البخل والمختزل لوقته ؟ .

ولهذا إن كان للحديث قضية فهي قضية المتفتلين لها . فضية الحديث ، الأحاديث الثابتة الصحيحة من الأولى أن ننطق منها وعلى ضوء ما وضع من أسس ومعايير لدى المحدثين . لنكسل فيما تبقى للأحاديث التي داخلها الوضع أو الوهن . وبالتالي تصبح قضيتنا بيننا وبين من حاولوا أن يطرحوا أحاديث لم تأخذ بσειار الصحة من رواد المدرسة الحديثية في المشرق والمغرب : من البخاري وأصحاب السنن والموطأ والقاضي عياض وابن عبد البر ، وعبد الحق الشيبلي والقائمة طويلة . أحاديث الرسول الصحيحة والقدسية أمنت ليس فقط في التحقق من سندها . وإنما بالغيرة والحب لصيانة متنها لما فيه من طهارة وإجلال وإكبار .

بقى علينا ، السيرة العطرة ، وهل لها من قضية ؟ حتى يضارب البعض عليها الآن بأسماء متعددة ، مرة باسم المصادر ، وأخرى باسم اليوحنات الأربع ووثائقهم وما حولهم ، وثالثة في محاولة لاستغلال بعض مراحلها . في أغراض وتأويلات ، كلها تهدف إلى غاية واحدة . وهى بعد أن تؤكد الإفلاس والفشل في خلق أو افتعال قضية للقرآن ، سعت إلى تصنع وافتعال قضية للحديث الصحيح وباعت أيضاً بالفشل . فجاء دور السيرة للرسول صلى الله عليه وسلم الذى أكد بشريته القرآن لتصيد واقعة من هنا أو من هناك ، لنفخها وتضخيمها وغاب عنهم أن هذه الواقعة أو هذا الحدث إنما هو لرسول بشر ، يؤكد وقوعها موقعا أو سلوكا يقتدى به لبقية البشر . ولا يمكن لرسول الإسلام أن تجسد فيه الألوهية كما جسدها غلاة المغمضين نيسى في المسيحية .

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عبر مراحلها المختلفة واضحة المعالم في كل مرحلة عبرة ، وفي كل موقف عظة ، ولكل سلوك معنى وهدف . فصوله الرسول كشبابه ، بعثه وجهاده وتبليغ رسالته ، سيرة لا يطعن فيها إلا الباحث عن الطعن بعد أن طعن ليصدره للآخرين .

سيرة الرسول بدورها وجدت من السلف الصالح انطلاقا من أصحاب رسول الله وأتباعه وأتباع أتباعهم ، ما يسهر على كل صغيرة ، وعلى كل جزئية تتعلق بالذات الطاهرة . ومن هنا كان الثراء والوفرة في المعلومات التى حملت إلينا عن سيرته عليه السلام ، وحرص هؤلاء على أن يقدموا لنا ما هو قابل لأكثر من رؤيا ورأى ، كما هو ، دون تفريط أو إفراط . وجاء الخلف بدورهم ليكملوا مسيرة السلف في سيرة الرسول وأفرد له العديد من مؤلفات ومؤلفات طابعها الرزاة والاتزان والحرص والأمانة . حتى جاء عصرنا يغص بقضاياها ، وحاول أن يصدر كما هو شأنه بالعصور الأخرى ما فاض من هذه القضايا وما طغى ، وهكذا رأينا في وقتنا هذا باسم إعادة النظر ، وإعادة القراءة ورؤية الهوامش وهوامش الهوامش ، قضايا بدورها ، من الأولى أن تنعت بأنها قضايا عصرها ، بدلا من أن يلقي بها في عصور الآخرين ، وتوسع مفتعلو القضايا بعد أن أعيتهم الحيل ، بعد شهادة ابن الدار

المعاصر لها : الاستشهاد بالخصم والعدو . وهكذا كانت قضية اليوحنا وما حولهم .

فقد حاول البعض تحت مسيات القراءة الجديدة ، أو الرؤية العلمية لإعادة صياغة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بمصادر بررها بقدره المعاصرة ، وهي في جملتها مصادر من الخصم ، وذلك لأن ما قدم عن السيرة - تحت راية الإسلام كأنه لم يأخذ بعين الملاحظة ما أخذته هذه المصادر ونعني بذلك مصادر ركز عليها خاصة الاستشراق الألماني والإيطالي من أمثال « كيتاني » وغيره . ونعني بها وثائق كتبت عن العصر الأول . منها وثائق « اليوحنا » كمشال : يوحنا لنيكي ، ويوحنا « الكلدوني » ويوحنا الدمشقي ، ويوحنا بنكاية (بن كاية) وغيرهم ... وذلك باسم الزعم أن الوثائق الإسلامية جاءت متأخرة كتدوين عباسي بينما هذه المصادر تتمتع بالمعاصرة المباشرة . وكأن اليوحنا كانوا من حوالى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته فمن المعروف أن لكل منهم خلفيته تضرر للإسلام ما تضرر ، ولا يمكن أن يأخذ الخصم بمقياس الحكم . ومع هذا يلاحظ أن حتى هذه الوثائق ، احتوت فيما احتوت على اعتراف وتأكيد لوجود الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته . وفتوحات الإسلام ، بل وانتصاراته . أما ما تحصل - أو بعضها على الأقل - من فضلات النقيء وبقايا الحق . فبهذه لا يمكن أن تؤخذ بسعيار الجدية على أى حال .

إن غيبة العلمية لا تعادلها إلا المغالاة والإفراط باسمها للاحتساء بصفتها لتقديم افرازات اضعف والكراهية . العلم والدين قضية كبرى علينا أن نراها بموضوعية : هل يمكن للعلم أن يتحول إلى سيف مسلط يستغل بنسابة وبغير مناسبة ليحملة أى غادر أو حاقد ويظعن به من يشاء معتبرا أنه لا سيف يعلو على سيف العلمية .

قد تكون مناسبة أن نطرح حدود وإمكانات العلم بالنسبة لمثل هذه الأمور الهامة ، ومثلها الدين وبصفة خاصة الإسلام كأصول قرآنية . تتمتع بالوحي الإلهي والأحاديث الصحيحة يتمتع قائلها بطهارة العصمة . لا ينطق عن الهوى وسيرة مكرمة يعتز بها كل مسلم .

من البداية وكما نكرر دائماً نستبعد أن يحل العلم محل الدين والعكس أن يحل الدين بدل العلم . كما نتحاشى بالضرورة أن نبرر صحة وصلاحيه الدين بالعلم ، وإن كان من الممكن أن يتدخل الدين بالعكس ليحكم إليه في مدى صلاحية ومسيرة العلم بالنسبة للإنسان .

ونميل إلى طرح العلاقة بين الدين والعلم على مستوى مدى التوافق أو التنافي بينهما . أما إننا نستبعد أن يحل العلم محل الدين ، فهذا وإن كنا نعيشه آتياً ، إلا أنه أكد مدى استيلااب الإنسان بالاستهلاك ، حينما تنقلص وتتقوقع رؤياه منه وإليه ، حتى ولو ارتضى هذا المصير الاستهلاكي فسيظل في أعماقه شاعراً بأنه اختزال البراهين . وأن ما اعتسد عليه في إلغاء الدين لا يتجاوز موقع أقدامه . ويكفه أنه فى كونه الصغير الذى قاس عليه الكون الأكبر ، لا يتجاوز مخلوقاً هامشياً يعيش فوق ضاحية بدورها مهشحة فى نظام شمسي يتحرك فى مسار ومدار مهش ، وما تبقى من الكون ينحدها بمجراته ونظمه ، وما خفى كان أعظم . هذا التبجح إن كان يستجيب مع مشاعر بعض المرضى ممن يتعاملون مع الخالق الأعظم على مستوى المقاصة والثأر . فهو بالنسبة للمفكر بعسق يدفع إلى التروى ومزيد من التأمل .

ولذا فحتى يحل هذا العلم محل الدين ، والذى أوحى به ، على هذا العلم أن يؤكد لصاحبه أنه قد تمكن من أن يجول فى هذا الكون شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ، وعبر كل المجرات والكواثرات . ومن لم يعثر للإله على أثر . فعاد وانكب على الأرض ليعلم أنه البديل .

ولكن قد يتساءل بعض الخبثاء : من بائعى الكلم ، إننا نطلب المستحيل للبرهنة على غيبة الدليل . نقول لهؤلاء : دعونا من الكون الأعظم ولتكتشفوا لنا الكون الأصغر . اكتشفوا لنا إذن سر الإنسان لا سر الكون ! .

الإنسان كجسد ، كجسم ، لم يعطه حوار السماء من الأهمية أكثر مما يستحق فهو مجرد وعاء . ولذا نجد فى القرآن ندرة التحدث عن الجسم أو الجسد (مرتين أو ثلاث) ودائماً فى إطار التهكم المتواضع

« تعجبك اجسامهم » (٣) ، « عجلاً جسداً له خوار » (٤) . . . بينما الإنسان كسر . بمعنى نفس واصل به الاستشهاد في القرآن إلى المئات ، وكان دائماً موضع التحدى والتقتين .

« وفي انفسكم ، افلا تبصرون » (٥) . . . وحدد لنا النفس المطمئنة والراضية والأماره بالسوء وهي التي تسوى « ونفس وما سواها » (٦) . . . وهي التي تفلح وتخب إلى غير ذلك من الاستشهادات الخالدة .

سيفل هذا الإنسان ما لم يكتشف سره الأعظم — وهو النفس — سرّاً من أسرار الله وإلا فلماذا لم يستطع هذا العلم العملاق ، وقد تعرف على قوانين الجسد أن يتحكم فيه فيقصّر فيه ويظيل . فالعكس هو الصحيح . لقد لوحظ أن الذين انكبوا على التعميق في دراسة أسرار النفس راحوا ضحية لهذا السر : فمن المعروف أن المعالجين للنفس هم أكثر الناس مرضى بها (مثال : مأساة « مولينو » وانتحاره والقائمة طويلة) ..

لهذا نستبعد قدرات العلم المنتفخ ، وتتقبل معطيات العلم المتواضع الذي هو تكريم من الله للإنسان « اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (٧) . . . هكذا نستبعد إحلال العلم محل الوحي الإلهي . فيما يعنى هذا الوحي ، فعلى العلم كما كرر أحد رواده « هربرت سبنسر » — فيلسوف النظرية التطورية — أن يبقى حيث هو في اختصاصاته . ويترك للأديان الفتوى في الغيبات على أن يتم العكس أن تترك الأديان للعلم أن يتحرك في نظريته دون مضاربة على الغيبات . ومن ثم فمن نفس المنطلق لا نبيّل أن يحل الدين محل العلم . وتحول المبادئ الخالدة والقيم العليا لنقاذاً الإنسان إلى مجرد أسس لتجارب مخبرية ، ومجرد فرضيات يحتكم عليها في المعامل قابلاً للتصويب والتخطيء . إن الذين أسمى من أن يتحول إلى فرضية لمخبر أو معمل فهو لم يأت لإجراء تجربة مخبرية ، وإنما جاء لنقاذاً التجربة الإنسانية بأكملها .

يبقى تساؤل إذن ، وهو ما يتبناه البعض باسم الهدف والغاية من الحياة . ونعني بذلك ما يردده البعض من أن الغاية من الحياة والخلق عبادة الله . « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (٨) . لا شك أن هذه هي الغاية المثلى . ان اتفق عليها الجميع في هذه الأرض . ولكن كيف يمكن لتعبد في صومعته أن يعيش بين الذئاب الكاسرة في غابة الكون حالياً ؟ هل يتركونه لعبادته وخشوعه ؟ أم ينقضون عليه في صومعته ، وقد عجز عن الدفاع عن نفسه بعلم العصر - أى بسلاح العصر - فيحولونه إلى مجرد سخر أو رقيق ؟ وإنا لنبرأ بعباد الله أن يكونوا عبيداً لمن خلق ، ويستعبدوا في الأرض وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » فلا مجال إذن . للتشكر للعلم باسم رهينة لا موضوع لها . الدين - والإسلام بالذات - نصح ووجه وشجع الدعوة للعلم ، وقدر العلماء وأعلى شأنهم فأحلال الدين محل العلم مردود ، لا باسم عدم الصلاحية ، وإنما باسم ضرورات العصر ومتطلبات الدفاع عن الذات .

تبقى بعد هذا قضية التبرير ، من يبرر من ؟

يحاول البعض بحسن نية ، والبعض الآخر ، والله أعلم بالسرائر بنية سيئة أن يحتكموا إلى العلم ، بمناسبة ، وبدون مناسبة ليدافعوا عن دين استساغوا له الهزيمة ، وأنه في حاجة لمن يحميه ، ومن يثبت له صلاحيته . وحتى يقبل مبدأ من مبادئه لا بد من أن يسمح العلم بتمريره . هذا ادعاء مغشوش ، فلا يمكن لمعلق أن يحتكم للتأكد من قدرته بحشيات قزم ، الوحي الإلهي بما له من صلاحية لكل زمان ومكان أسمى من أن يحتسى في علم يخطئ ، ويصيب ، بل كثيراً ما يخطئ ذاته في مرحلة تالية . لو أننا قبلنا مبدأ « البرهنة العلمية » ثم تأكد في قرن تال خطأ هذا العلم من أساسه ، كيف يكون مصير ما برهنا عليه ، بعد أن تجاوزته الأحداث . هل علينا أن نحذف الآية موضع البرهنة ؟ أم نحرفها ؟ أم نسخها ؟ ، وقد ولى زمن النسخ ، ثم ماذا ؟ ..

لذا قضية تبرير الدين باسم العلم ، بالنسبة لمن يضاربون عليها بحسن نية نقول لهم : رفقا ، فالقرآن ليس ملك لعصرنا وإنما وحي لكل العصور .. ليتملوها ، ولا يصلوا بالتبرير والبراهين لحد القطع والتحكيم النهائي ، حتى يتركوا للأجيال القادمة حق الاجتهاد بمعطيات عصرها ، ولم لا بعلم عصرها ؟ .

أما تبرير العلم باسم الدين فهذا بلا شك قد يطرح بالفعل حاليا حيث نحاول بعض العقول الماكرة أن تستغل قدرات العلم باسم الإنسان لتدمير الإنسان (علوم الحروب البيولوجية + علوم الصواريخ + علوم الحروب الهيدروجينية) كل هذه التخصصات التي تكثف تلوث الإنسان لا إشراقه وإشعاعه ، وتعمم طغيانه بدلا من عدالته وبره ، يمكن للدين أن يتدخل ليدلى برأيه في مدى صلاحيتها وأحقيتها في المشروعية والبقاء .

ونلاحظ في السنوات الأخيرة من هنا وهناك ، صيحات صاح بها حتى « بابا الفاتيكان » في خطاب له منذ سنوات حين حذر من خطر العلوم المدمرة « وشهد شاهد من أهلها » ..

ومن ثم فالدين يمكن أن يتدخل ليحتكم إليه لتبرير أو عدم تبرير مسيرة علم بمقدار عطاءه الإيجابي للإنسانية .

وبعد هذه المواقف الأربع بين الدين والعلم والعلم والدين وإحلالا أو تبريرا ، نرى في النهاية أنه يمكن للدين والعلم أن يتواجها موضوعيا للتعرف على مدى التوافق أو التنافي ، وذلك دائما لما فيه إسعاد الإنسان والمجتمع . فالدين لازم كما يرى « سان سيمون » ضرورة للإنسان وتأصيله بقدر لزوم العلم فيما يعنى مستقبله وإنجازاته . أما كيف يلتقيا أو يتنافيا ، فهذه مطروحة فعلا ، على أن يكون الحكم في النهاية للواقع الملموس دون خلفية أو غرضية - الواقع الملموس آتيا ، وبعد أربعة عشر قرنا من وحي الإسلام كشمول ، وكمال لكل الأديان ، يمكن أن يملأ علينا موضوعيا التطلع للإجابة على تساؤلات ي طرحها ابن القرن العشرين بعد أن نسلم بقدراته العلمية حول القرآن والأحاديث الصحيحة والسيرد لنكتشف مدى توافق أو تنافي منظور الإسلام مع منظور القرن العشرين . هل اكتشف

ابن القرن العشرين ثقبوا أو شروخا في هذه الأصول الخالدة بعد هذه المسيرة التاريخية أم العكس في كل يوم تزداد القناعة بمصادقية القرآن والحديث ومصادقية سيرة الرسول كسلوك وقُدوة . ولم يستطع العلم ، ونعني به علم الإنسان أن يسجل أى هدف أو ينال من أصول الإسلام . اللهم إلا ما افتعل من قضايا لحاجة في نفس يعقوب ، حاولنا أن نصفى حساباتها تحت شعار « ليس للإسلام قضية » .

ويبقى التوثيق فيما يعنى سيرة الرسول عليه السلام .

لقد غاب عن أدياء هذه المقولة المغشوشة أن سيرة الرسول عليه السلام وأحاديثه لو أنها حفظت في حينها كما حفظ القرآن ودونت لكائنات فعلا الآن قضية كبرى من قضايا الإسلام حينما يدون كل صاحب هوى على حسب هواه ؛ ويكتب كل صاحب انشاء انتسائه على أنه انتماء للإسلام . لهذا نعتقد أن وراء صيانة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته في القلوب بدلا من تسطيرها في الكتب معجزة تضاف إلى سلسلة المعجزات .

لقد صانت القلوب بغيرتها وحبها كل دقيقة من دقائق حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وكل كلمة من كلماته . ومن ثم ، فيقين القلب وطمأنينته وجه أكثر رصانة من سجلات يفتعل فيها التاريخ باسم التاريخ . ولهذا لبس لسيرة الرسول وأحاديثه « أناجيل » ، كل يكتب انجيله حسب ما يترأى له ثم تتطاحن الأناجيل فيما بينها ، أما القلوب فقد تلاقت بما صانت ، وسهرت على السند وال متن كما سهرت على صيانة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كقدوة لكل مسلم .

التوثيق هنا لا يطرح لأن ما وفقته القلوب وصاتته الأفئدة لم يتبادر إليه الإنشاء والتصنع . وإنما ظل بصحيحه وسننه ، وبتكامل مصادره صورة صادقة على مدى وفاء علماء الإسلام للإسلام من محدثين ومفسرين وفقهاء .

وهكذا لم تتوقف مسيرة الإعجاز من الإعجاز البياني بصفاء القرآن وقدرته ولسانه والإعجاز الفلسفى حين التجاوز مع الفلسفات المتداخلة والغازية من حسن توظيف لها وتجاوز قادر ليصل بنا موكب الإعجاز إلى

مرحلة العلم والمنهج في النهضة الحديثة المعاصرة ، وفي كل مرة لا يتهرب الإسلام من المواجهة وإنما يتصدى لها بكل عطاء وتفتح وتظل ، ويظل الاحتكام إلى الصلاحية هو المعيار للإعجاز .

الإسلام أكد إعجازه بمواجهته البيانية ، وكانت له الصلاحية وفي الإعجاز الفلسفي كانت له الصلاحية ، والآل الإعجاز العلمي والمنهجي يطرح نفسه محذراً أن يتزيا بزى قضية للإسلام ، وسوف نجمل ، وبنفس الإصرار كيف أن الإسلام يمكنه أن يواجه تحت راية الصلاحية العلم بقدرات العلم والمنهج بقدرات المنهج ليثبت ما يتحلى به من خلود وفاعلية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، وأنه ثابت يتجاوز ولا يتجاوز .

ولنبداً بالماضى ، ومعجزة النبوة لنواجه العلم باسم العلم ، والمنهج باسم المنهج ، ومعجزة النبوة ، حينما تتواجه مع العلم وباسم المنهج وتواجه نستبعد من الأساس المواجهة باسم العلوم التجريبية ومناهجها . وذلك لأن النبوة لم تأت لمناصرة تجربة كيميائية أو فيزيائية ، واكتشاف قانونها ، أو إعطاء دروس في علم وظائف الأعضاء ، وإنما جاءت لتحقيق هدف أسمى وأبل ألا وهو إنقاذ الإنسان من الورطة بعد أن ترسم له الطريق السوى في دنياه ليحسن مآله . ومن ثم فإن كان لها ما تواجهه كما نكرر دائماً ، فلتواجه علوم الإنسان ، (لا العلوم التجريبية) التي تزعم أنها جاءت لدراسة سلوك الإنسان والتعرف على نفسيته ، وصياغة تراثه وتواجه بهدف أن تعطى له الحركة التاريخية الواعية التي تدفعه من حسن إلى أحسن ، وترتقى به .

ومع هذا لا تساءل ، قبل أن نطرح المواجهة مع علوم الإنسان ، هل استطاعت العلوم التجريبية أن تكشف عورة في علوم الإنسان ؟ في قرآنه ؟ وفي أحاديثه القدسية والصحيحة ؟ هل هناك نص خطأته الاكتشافات التي استجلت في العلوم الفيزيائية والبيولوجية والفزيولوجية والكيميائية بصفة عامة بعد أربعة عشر قرناً من التطور ؟ أم مازالت المبادئ المبسطة التي طرح القرآن من خلالها نشوء الإنسان حتى يومنا هذا ، وحتى إشعار آخر

تتميز بصلاحيتهما : النظفة ، العلقه ، والمضغة .. ثم سويناهما ، كما هو معروف
في الآيه الكريمة ؟

لم تستطع - باختصار - العلوم التجريبية أن تسجل إصابة تؤخذ على
القرآن أو الحديث الصحيح والقدسي . ولذا فلا نكتفى فقط بأن المواجهه
معه مغلوطه ، وإنما حتى لو وجهت لأصوله ، ليس للإسلام ما يخشاه .
بقيت علوم الإنسان ، وكيف تتم المواجهه ، فيما يعنى معجزه النبوة في الماضي
والحاضر والمستقبل . ولنبدأ بالماضي ! .



لقد جدت تخصصات هامة في الدراسات الإنسانية ، ونضجت تخصصات
أخرى ، مما يؤكد لنا إشراق الذهنية المعاصرة ، وتعدد عطاءها . فإلى جانب
العلوم الإنسانية التي عبرت مسيرة الحضارات المختلفة : كالتاريخ بشتى
فروعه ، وما يعرف الآن بالجغرافيا ، وما حولها من أوصاف البلدان . هناك
تخصصات تبلورت في الفترة الحديثة والمعاصرة ، وأخذت طابع القدرات
الأصيلة فيما يعنى تفهم الإنسان وفهمه ، كاستمرار تراثى ثقافى واجتماعى
كالانثروبولوجيا . بما في ذلك التاريخ الطبيعى وأعرافه ونقائده وعاداته .
أو تفهم الإنسان وفهمه في أغواره النفسية : سيكولوجيا ، أو تفهمه في
علاقاته وبيئته وبنياته المختلفة كالسوسولوجيا أو دراسته ككم وحجم :
الديموغرافيا .. إلى آخره من التخصصات التي تتعدد حالياً
وتتنوع ، تحت شعار علم الإنسان وعلوم المجتمع . هل في استطاعة هذه
العلوم المستجدة ، وبما لها من قدرات وصفية وتعليلية وتخريجية . وما لها
من منهج وطرق بحث أن تضيف أو تأتى بما يؤثر في مصداقية معجزه النبوة
أولاً في الماضي . وحينما نذكر الماضي تنصدر الدراسات التاريخية والأثرية
والانثروبولوجية بصفة عامة . هل في استطاعة المتخصص في علوم الإنسان ،
أن يتجاوز معجزه النبوة وينفيها . بحيثيات موضوعية دون مزايدات
كلامية ، أو تضاربات عفوية ؟ أم أن هذه العلوم ، لو احتكم إليها في مدى
مصادقية معجزه النبوة ماضياً لأكدت لنا ، وبكل تواضع أنها تؤيد معجزه
النبوة ولا تنفيها ؟ ، وسنوضح لماذا ؟ لأن المعجزه تمت تاريخياً ومرت عليها

قرون ، وبالتالي من الصعب على ابن القرن العشرين ، وبعد ثلاثة عشر قرناً وأكثر فيما يعنى الإسلام أن يزعم الاستدلال أو البرهنة انطلاقاً من التجريب والملاحظة فالمكرر والمؤيد كلاهما أصبح أثراً تاريخياً ، ومن المستحيل استنتاجه بشكل مباشر أو استجوابه . ولكن تبقى حيثيات الملاحظة لمن عاصروا النبوة ، وواجهوها منكرين لها في البداية ، ثم متعاطفين ومؤيدين ، بل ومستشعدين في سبيلها . فكيف تهون الحياة على إنسان ، ليس له قناعات بما يضحى من أجله ؟ أيهما نصدق ؟ هذا الذى عاصر وشاهد معجزة النبوة ؟ أم هذا المزايد والمضارب الذى لم يشاهد شيئاً ، وإنما يتشدد فى داخل جدران مكتب أو قاعة مكيفة بأن معجزة النبوة لا وجود لها ؟ .

إن البحث العلمى دائماً يستنطق ويستجوب من شاهد ولاحظ ، ولا يستنطق الغائب والمجهول ، وإلا فيستحول العلم إلى غيبية معتنة ، لا ترى حتى ما تحت أقدامها . أيهما نصدق ؟ من أنكروا في عصر النبوة ، في البداية ، ثم أشرق النور فى قلوبهم بعد أن كرروا ما يكرره جهلاء القرن العشرين ، من أدعاء التحدى بقولهم « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (٩) . . ومن ثم ، فإن كان لابد من اختيار بين اللاتيين فى هذا القرن أى القائلين لا للنبوة . واللاتيين فى عصر النبوة . فمن الأولى أن نطلب شهادة من شهد من أهله « وشهد شاهد من أهلها » (١٠) ، إن شهادة المعاصرين للنبوة وقد حملت إلينا بكل أبعادها . لا تدع مجالاً لمحترف زيف وبهتان أن يزعم انطلاقا من عقوباته . إنه اكتشف غيبة معجزة النبوة . علوم الإنسان إذن — وتتصدر فيها الدراسات التاريخية — تقدم حيثيات ودلائل لإعجاز النبوة لا نفيها . وعلوم الإنسان فى الحاضر هل فى إمكانها أن تحتفظ على ما فى النبوة من إعجاز . وتعطى بديلاً قادراً على الإحلال بأسسه الإنسان . لقد حاولوا فعلاً من خلال حضارة الغرب ، حضارة البدائل أن يتجاوزوا إعجاز الأنبياء بإعجاز الإنسان ، منه وإليه . ومهدوا لذلك بمسيرة كبرى من التحفظ على الميتافيزيقيا والفكر التجريدى ، إلى استيعاب المعارف

فى عصور الأنوار بعد موجة من التمرد والاحتجاج ، فى محاولة بديلة باسم
فلسفة الأرض بفلسفة السماء . وكان دعاة الوضعية والتطورية والداروينية
والماركسية ، والوجودية اللائية اللاروحانية . هذه المحاولات قدمت
للإنسان المعاصر فلسفة ، بل فلسفات ، ومذهبا بل مذاهب وظنرت له وحددت
له هدفا وغاية وهى الإشباع الاستهلاكى ، ومزيذا من الإشباع وارتكزت
على الأسس العلمية والتجريبية والمعرفة التكنولوجية لتروج بضاعتها ، ولم
تنس الإطّار الجذاب الذى تضعه حول كل هذه المعطيات لتقبل وتستساغ
ونعنى بذلك الإنسانية . باسم الإنسانية والدعوة إليها باسم الإنسان الذى
تحرر وتمرد ، واعتمد على ذاته . متخلياً عن كل ما هو غيبى ومجهول .
ها نحن اليوم ، وفى نهاية القرن العشرين يحق لنا أن نتساءل : هل فعلا هذه
البدائل وهذه الغاية التى خطت للإنسان المستهلك ، هل أشبعت
الإنسان أم أفقرته ؟ وهل أسعدته ، أم أشقته ؟ لنواجه بينها وبين معجزه
الأنبياء . والإسلام هو الذى يعيننا . الإسلام نظر للإنسان . نعم منذ أكثر
من ألف عام . الإنسان فى كل زمان ومكان . نظر له ككيان متعدد الإشباع
غرائزيا ونفسيا وعقليا وروحيا . وأعطى أولوية لإشباعه الروحى والنفسى
والعقلى دون أن يغفل إشباع الغرائز ، دون مغالاة أو إفراط . نظر له كفرد
وكأسرة وكجماعة وكطبقة وكأمة فى بساطة ومباشرة فيما يعنى مرجعية الإحالة
أو الشعائر والتطبيق وأعطى تعليلا موضوعيا لمسيرة الحياة بأنها بلاء دون
أن يتهم بالوجودية . فهى بلاء واختبار ، ولكن بهدف ، وهى كد وكدح ،
ولكن دون عبث أو غثيان . أعطى للإنسان صورة واضحة عن وجوده حتى
لا يتزيف ويزيف بمتاع الدنيا وزخرفها . وكان دائما يذكره أن هذه الدنيا
هامة ولكنها مدخل لما هو أهم . الإسلام نظر للحاضر وعلينا أن نقارن بين
تنظيره وبين ما قدمته بدائل وعلوم الإنسان فى حضارة الغرب . لن نطيل
فى الإجابة . بل سنكتفى بمثال :

بقدر ما أشبعت حضارة الغرب مظهرية الإنسان ، ورخاء ورفاهية
جسده بقدر ما سلبت منه روحه ومشاعره ، بل ومثله العليا . فما عرفت
البشرية غشا منضبطا وزيفا مخططا وأكاذيب منمقة كما تعرف الآن باسم
التكتيك والاستراتيجية فى عالم تحول إلى غابة كبرى ، لا يفترس فيها

القوى الضعيف بوحشية كما هو الحال في كل الغابات . وإنما يتلذذ باقتراحه . ويبدأ رويداً . ويتسقى في آلامه . مذرفاً دموع الفس كجبرات من الأكاذيب . أين المشاعر الصادقة ؟ وأين الوفاء ؟ وأين التضحية ؟ وابن البر ؟ وأين الإحسان ؟ وأين الإخاء ؟ وأين ؟ وأين ؟ .. كما قال الشاعر العربي :

نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان إذن هجانا
يعاف الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

بعد دمة كاذبة في مسرحية فيما يسمى لعبة الأمم ، أو هيئة الأم أو غار أنبياء الأكاذيب ، وحواريي التضليل . إن الإسلام يفخر في هذا العصر . في الحاضر أنه يقدم بديل البديل فما نحن اليوم نستمتع وفي كل مكان إلى صيحة المعاناة النفسية التي أصبحت وبائية في الكون . كون الملمات والاستهلاك والتلوث وساسرة الحروب وأدعياء الفتن ومروجيها . صيحة هذا الإنسان الذي تحول إلى إنسان آلى ، لا مشاعر ولا عواطف ولا قيم بل ولا دين . إنسان الحبوب المنومة والمهدئة والمقوية والمنهية — أى بها ينهى الحياة — تسهلاً للخروج من مأزق وجود افتعله حسب هواه ، وغاب عنه مصداقية الآية الكريمة : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » (١١) ..

معجزة النبوة بلا شك تطرح نفسها من جديد كثورة لاستعادة الإنسان الذى ضل بسلوك خلاق يصحح له تطوراً يدفعه إلى المأزق والطريق المسدود . الإسلام كمعجزة نبوية يتحدى في الحاضر بقيسه الخالدة التى تؤمن للحائر والضال كيف يتعادل دون تفريط أو إفراط ؟ فى مأكله ومشربه . فى نومه ويقظته ، فى لباسه ومعاشه ، فى حبه وكرهه . فى التوفيق بين غرائزه ومشاعره ومصالحه ؟ .

نعم معجزة النبوة حاضرة فى الحاضر كما كانت ثابتة فى الماضى . وبقى المستقبل . الإسلام كمعجزة النبوة فى المستقبل هل يمكن عاوم الإنسان أو حتى العلوم التجريبية أن تزعم أنها تجاوزت معجزة النبوة فيما يعنى

الكشف عن أسرار المستقبل وأسرار الكون . ومن باب أولى خالقه . دون
إضافة حتى هذه اللحظة وحتى إشعار آخر . المستقبل في علم الله . وإلا ليأتونا
بهذا العالم أو هذا العبرى أو ذلك الفيلسوف الذى استطاع بعد أن فارق
الحياة كما فارقها هذا الإنسان البسيط العادى أنه عاد إليها ، ليحدثنا كما
كان ينتظره فى المستقبل أو ما حدث له بعد الرحيل . المستقبل رغم كل
ما تقدم فى إطار علوم الفضاء يظل دائماً نقطة الاستفهام . وهذا العالم الغيبى
الذى لا يسكن أن يقرأ إلا باسم الذى خلق .

بل وسر الكون الذى نعيش فيه هو : هذا الإنسان ، سر شامل لو أننا
نظرنا إليه من خلال قدرة الإيقاع والانتظام ، لا من خلال المجازفات التى
تتم على بعض الجزئيات ، وصف جسد الإنسان وشرح . كما وصف الكون
بمجراته وممراته ونجومه وكواكبه . ومع هذا تظل الطاقة التى تحرك
الإنسان وتطفئ بموته . والطاقة التى تسير الكون بعلم خالته السر الذى
يتحدى ، وما علينا وحتى إشعار آخر إلا أن نتواضع ونفهم لما أوحى به
للأنبياء والرسل وما وضع من ضوابط لما يجوز وما لا يجوز . ضوابط
للمسكن والمستحيل .

وهكذا : معجزة النبوة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً تبقى معجزة خالدة
وعلى علوم الإنسان أن تتواجه معها من منطلق تفهمى بعيد عن المضاربة
والافتعال . وهذا ما حاولنا أن نطرحه عبر هذا التدخل من الحوار .

وعلىنا فى النهاية أن نتساءل قبل أن نجعل ما انطلقنا منه وهو أن نيس
للإسلام قضية فى التراث . فالإسلام قناعة ويقين ، الإسلام كوحى وكأحداث
صحيحة وقدسية وكقدوة بسيرة الرسول عليه السلام . من الأولى ألا يطرح
فى جو من الافتراضات المغشوشة . وإنما يوضع فى مكانه الحق وهو دين
سماوى وحدانى شامل لمسيرة هذه الوجدانية : مصداق لكل ما سبقه من
رسل وأنبياء . يهدف إلى أن ينقذ هذا الإنسان صاحب الرسالة الذى
حساها . وعليه فافتعال قضية للإسلام علينا أن نبث عن تحليلها فى عقول
واضعيها وصانعيها . لأن المسلم فى القرن العشرين كما هو الحال بالنسبة
للمسلم فى كل القرون هو مؤمن بالله : مصدق لذلك بعلمه ومطبق لشريعته

وشعائره ، إن كان لابد من أن يكمل ويضيف ، فعليه أن يبدأ من حيث انتهى من سبقوه في الإيمان واليقين من السلف . فهو مرتل للقرآن ، خاشع في ترتيله متدبر ومتفهم لمضامينه ومعانيه ، متقبل لها . وهو مردد لأحاديث رسول الإسلام ، مقتد بسلوكه ، وعليه - وقد مكن بعقله وفكره وبصره وبصيرته - أن يضيف إلى اجتهاد من اجتهدوا في أحاديث رسول الله . وفي سيرته ، لا ليعتم ما أضيء ، وإنما ليلقى البصيص من الإشعاع المعرفي على ما بقى موضع تساؤل بالنسبة للأحاديث التي لحقها الوضع أو الوهم ولم تتأكد صحتها . ولحقها الضعف في المتن أو السند . كما أن عليه أن يتأمل في سيرة رسول الإسلام . ولم لا يجتهد ؟ ولكن الاجتهاد فيما تبقى من أحاديث لحقها الوضع والوهم . أو الاجتهاد في مراحل من سيرة الرسول الأولى ، وحياته العطرة ، من الخطأ أن يتم على مستوى فردي أو شخصي . وإنما هو عمل جماعي لعلماء الإسلام وفقهائه تتبناه منظمات ، لا لتطرح التحفظ والتساؤل وإنما لتسد الطريق أمام من في قلوبهم مرض ومن يبحث حاجة في نفس يعقوب عن ثقب تفتعل بهدف بث الضوضاء لا أكثر ولا أقل ، أما كيف ؟ فنجمل ذلك في أنه قد آن الأوان فيما يعنى ما تبقى من أحاديث نسبت إلى الرسول . ولم تثبت صحتها أو ما ذكر عن سيرة الرسول من قبل أصحاب الأغراض الذاتية أن تقوم أمة الإسلام ممثلة في علمائها الأوفياء بـ :

١-ولا : فيما يعنى القرآن الكريم ، وما ورد حوله من تفسير وتأويل عبر مختلف العصور . تسهر على صيانة هذه الذخيرة الهامة . وإن كان ولا بد من اجتهاد فمن حيث انتهت هذه التفاسير والتأويلات ، لا أن نبدأ بوضع تفاسير وتأويلات للقرآن . لا تلتزم بما وضع من أسس لدى التفسيريين من السلف والخلف الصالح . ومن ثم تسود الاجتهادات الشخصية ، ويتغلب موكب الأهواء والميول ليدلى كل بدلوه . حسب ما يريد هو من القرآن لا ما يريد القرآن منه .

ونلاحظ حالياً ، هذه الموجة من الموجات المحدثّة التي تسعى ربما بحسن نية أو بسوءها إلى تحويل القرآن إلى مجرد مطول أو وسيط ، أو مدخل

للمبادئ الكيميائية أو الفيزيائية ، بينما القرآن أسمى من أن ينزل إلى مستوى التجريب المخبري لأنه ليس رسالة من أجل الأشياء ، وإنما رسالة من أجل الإنسان ، وحتى الإنسان لم يره القرآن بمقياس الهدف في حد ذاته لتشريح جسده ، ومعرفة دخائله الفيزيولوجية ، والبيولوجية ، وإنما غاية ، لتحقيق قيم ومثل عليا من خلاله ، عبر بلاءه في هذه الدنيا ، وكده وكدحه . وهكذا نرى أن أى تفسير للقرآن أو تأويل ، عليه أن يراعى هذا التسامى ، ويتأى بالقرآن عن كل هذه المضاربات .

ثانياً : فيما يعنى الأحاديث الصحيحة والقدسية . علينا أن نبدأ أيضاً من حيث انتهى اجتهاد المحدثين ، لا أن نكرره في غيبة من عصرهم . فمن المفروض أن الأحاديث الشريفة صحيحة وقدسية سهر عليها الساهرون من محبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والغيورين على سنته العطرة . وكان لديهم من الوقت ومن الرغبة ، بل ومن التعلق والتفانى . ما يؤمن لنا مصداقية هذه المسيرة الحديثية الطويلة ، ليس فيما يعنى فقط صحة السند ، وإنما صحة المتن . فضلاً عن الإطار الزمني القريب ، والذي لا يتجاوز ثلاثة قرون . بعد وفاة الرسول عليه السلام .

كل هذه العوامل تجعلنا نأخذ بمقياس الجدية والرزانة والاتزان فيما جاء حول أحاديث رسول الله عليه السلام . وشكل علومها وتخصصات . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لا يمكن إلا أن ننحنى بخشوع وإعجاب وإجلال أمام ذكرى هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . من صاحب الموطأ إلى صاحب الصحيح ، إلى كل أصحاب السنن في المشرق وفي المغرب من القاضى عياض إلى ابن عبد البر ، إلى الشيبلى حتى القطان الفاسى والقائمة طويلة ومع هذا تبقى الأحاديث التى لحقها الوضع والوهن مجالا لكى تكمل هذه المسيرة وبنفس روح الجدية والتفانى والإخلاص . مستغلين معطيات العصر منهجياً وعلمياً لا لندخل الشك على ما ثبت صحته ، ولكن لتؤكد من صحة ما لحقه من وهن أو وضع واعترف بذلك من أئمة الحديث ورواته .

ثالثاً : السيرة العطرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تشكل

بالنسبة لتاريخ هذه الأمة منارة للاجتهاد والبحث ، فما أكثر ما جمع من مادة حول سيرة الرسول . وما كتب فيها وعلى كل المستويات وعبر كل العصور . والآن : ماذا علينا أن نفعل ؟ وقد بدأ يحلو للبعض أن يبحث عن ثقب ينفذ منها إلى ما استحال أن ينفذ إليه ، أو يفتعل متنكراً في رداء العلمية أو المنهجية لقضايا منه وإليه ، مستغلاً في ذلك تعدد التيارات التي اهتمت بحياة الرسول عليه السلام ، عبر فتراتنا المختلفة . محاولاً أن يفضي من خلال تساؤلات على حدث أو واقعة ، طابعاً يكسوه التهويل أو التقليل أو الاعتراض الضمني والمقنع . لأمر شخصية وردت في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام البشر ، ولكنه المعصوم ، لا ينطق عن الهوى بنص القرآن .. لهذا وإغلاقاً لباب الفضوليين ، بل والوصوليين . ومرترقة الكلم ، علينا وهذا ربما أن آوانه وباسم كل علماء الإسلام أن نضع سيرة متكاملة في عشرات المجلدات لرسول الله لا من خلال إنشاء وخلق وتصنع ، وإنسب استنتاجاً واستجواباً لكل المصادر والمراجع ومواجهتها موضوعياً لنقدم تخريجاً متكاملًا يغطي فترات حياة الرسول عليه الصلاة والسلام . خصوصاً فترة ما قبل البعث والوحي ، الطفولة والشباب ، وبذلك نحد من المضاربات التي تتحرك في الظلام متزينة بزي العلمية والرصانة ، لنعرفها من مآربها ، وأغراضها الدفينة ، وذلك بتقديم سيرة رسول الإسلام : لا كما يراها أعداءه وخصومه وإنما علماء الإسلام ودعائه .

وكخلاصة لهذا الحوار حول الإسلام تحت شعار : ليس للإسلام قضية يمكننا أن نميز بين المضاربات التي تحاول أن تتخذ من هموم المسلمين ، مدخلاً لافتعال هموم للإسلام وبين التطلعات الموضوعية التي تبدأ من حيث انتهى الغيورون على الإسلام ، كقناعة إيمانية أولاً وقبل كل شيء باعتبار أنه في النهاية يمكن تصور البشر على مستوى فئتين ، فئة القانعين بالإسلام انطلاقاً من التسليم لخالق الكون ومدبره ، أمام أسرار هذا الكون الذي تتحدى انطلاقاً مما وضع في الإنسان من أمانة حتى هذه المجرات والمجموعات الشمسية والكونية التي نتحدثنا بوجودها وانضباطها كدليل على حكمه وتدير المدبر « وما قدرُوا الله حق قدره » (١٢) ..

أمام كل هذا سوف يجسد الإسلام القاسم المشترك بين فئة المؤمنين بالخالق وبرسله وأنبيائه على أساس أن الإسلام يغطى برسائله الدين 'لكامل الشامل الذى تمثل فترات الرسل والأنبياء مراحل منه . فما من رسول أو نبي إلا وصف فى القرآن بأنه مسلماً أو نعت بإسلاميته لذا الإسلام هو راية المؤمنين القانعين بإيمانهم وعليه أن يتحمل طبيعة هذه المسئولية الكبرى فى مواجهة الفئة الأخرى التى تضم منكرين لائين ومنكرين ومتشككين بل متسائلين . وهذا قدر الإسلام وغايته .

أما افتعال قضايا تراثية وصنع الإسلام بصباغة متحفية ، وطرح تساؤلات متصنعة ، بهدف النيل عن طريق الدس والتقنيع باستغلال مسميات وشعارات إن كان مظهرها يحمل صفة العلمية أو المنهجية فجوهرها يعنى تقيء السموم ، وبث الحقد المضر والمبيت .

نقول لهؤلاء مرة أخرى وفى النهاية ليس للإسلام قضية تراثية ، وإنما للإسلام مواجهة مع المتكرين واللائين الذين عبدوا أنفسهم بدلاً من عبادة الله ، وهذه مواجهة من الأولى أن تكون صريحة ونزيهة حتى نرى بوضوح أين تكون الصلاحية والمصادقية ، وفاعله الحيثيات ؟ وتبقى التطلعات بالنسبة للباحثين القانعين براية الإسلام والمعتزين بها كى يسهموا انطلاقاً من مبدأ الغيرة والحرص باجتهاداتهم فى التعريف بعطاء الإسلام عقيدة وشعاراً وحددوا كمعيار يضمن للإنسان التوازن والتعادل بين متطلباته الروحية والمعنوية والمادية والجسدية . دون تفریط أو إفراط ، دون مغالاة أو تزمت . هذا هو الإسلام الذى علينا أن نميزه من تراث المسلمين على مختلف مستوياتهم ، ومراحلهم ، وانتماءاتهم ، سلفاً أو خلفاً ، فقهاء أو أئمة ، ومتكلمين ، وفلاسفة ، علماء ومذكرين وبحاثين . تراث عملاق ، لأمة عملاقة ، أقطع من الإسلام واستمر تحت رايته رغم تعدد المشارب والأماكن والأزمنة والأغراض والأهداف . تراث آن الأوان أن ننظر إليه . بمنظار موضوعى بعيد عن الانفعال والمجازفة بعيداً عن الركود والجسود . تراث المسلمين ، لا الإسلام كتراث فليس للإسلام قضية وإنما القضية ، بل القضايا هى قضايا

تراث المسلمين منذ وفاة الرسول عليه السلام . بل انطلاقاً من واقعة السقيفة .

وابتداءً من أين يثوى جسده الطاهر ، أفي المدينة ؟ أم في مكة ؟ أم في القدس ؟ بمعنى منذ اللحظة الأولى التي كان على هذه الأمة الوسطية التي هي خير أمة أخرجت للناس أن تشق طريقها بعد أن أكمل رسولها الأكرم عليه السلام رسالته . بإكمال الدين الأوحـد للإله الواحد لما فيه انقاذ الإنسان في دنياه وآخرته .

من هنا يبدأ إذن تراث المسلمين ، ومن هنا تطرح قضايا هذا التراث وتعتبر التاريخ من عصر إلى عصر . تعبـره مع المؤرخين ، وهذا ما سوف نجعله موضوعاً لحوارنا القادم في الحلقة التالية تحت شعار « قضايا تراث المسلمين وتاريخ المؤرخين » . توطئة لاستنطاقه واستجوابه في حلقة بعد ذلك على ضوء علمية التاريخ وفلسفته ولم لا ؟ أيضاً على ضوء التعامل مع ما جد في علوم الإنسان ولنبداً بحلقة قضايا تراث المسلمين وتاريخ المؤرخين .

(٥)

قضايا تراث المسلمين من خلال تاريخ المؤرخين

حالياً ، وفي اطار حوارنا كثيراً ما تطرح قضية التاريخ ، والمؤرخين ، بل وكما هو معروف هناك منظمات عربية واسلامية تنعت بجمعيات تاريخية في العديد من الاقطار ، وهناك تجمعات للمؤرخين فضلاً عن جمعياتهم ومؤتمرات ، وهناك من يتكلم عن الثقل الخائق للتاريخ في حضارة الاسلام الى حد عدم السماح بالتنفس في هذا العصر فلا يرى المسلمون الا من خلال تاريخهم ، اما الحاضر والمستقبل فقضيته فيها نظر ..

وهناك من يرى أن التاريخ ليس بهذا الثقل ولا هذا الاختناق ، بل يكاد ان يكون هو هذا التاريخ ، لا نقول الضائع في مجمله ولكن في العديد من منحنياته أو من مناحيه ، فهناك ما افتقد من التاريخ وهناك ما صودر منه ومنع من العبور عبر الأزمنة وهناك ما شوه وزيف وصنع في عقول المؤرخين وفي لحظات انسجامهم ورضائهم عن المطاء أو في لحظات تآزمهم نتيجة لبخل من مدحوه وكرموه ، فهو تاريخ مقاس حسب المقاس وباسم المردودية وما يجنى من ورائها ، وهناك قضية تاريخ المؤرخين .. قضية كبرى تستحق منا ان نتساءل مع محاورنا الدكتور رشدى فكار ، ان لم نقل عن أعماقها وتفاصيلها ، فعلى الأقل نعطي للقارئ بعض المعالم التى تضىء له الطريق وفي اطار هذا الحوار عن قضايا تراث المسلمين .. فماذا اذن عن قضايا تراث المسلمين من خلال المؤرخين ؟ ..

* * *

من أين نبدأ ؟ ، من أين نبدأ التعامل مع تراث المسلمين ؟

أشرنا في حوارنا السابق أن ليس للإسلام قضية تراثية . فالإسلام واقع حي ، نشيط ، ملموس في وجدان الملايين ، يلمس عبر الشعائر : صلاة وصوماً وحجاً وزكاة ، كما يلمس في تعاملهم وسلوكهم اليومي . ومن ثم ، فحينما نطرح قضية التراث ، إنما نعنى بها هذه المسيرة التي أقلعت بالمسلمين حضارياً بعد عصر النبوة ، عصر النبوة هو الإسلام . وما أفلح المسلمون به حفاظاً على وحى النبوة ، صيانة ، واجتهاداً ، ومواءمة للعصور التالية مع هذا الوحي الخالد . بفضل قدرات العقل المستتير . يمكن أن يطرح كتراث للمسلمين .

تعطى كسلامح أولى لمنطلقه بداية تصرف المسلمين ، فيما جاءت به النبوة بعد وفاة رسولها الأكرم عليه الصلاة والسلام ، ولحاق روحه الطاهرة بالرفيق الأعلى ، من كيف يثوى جسده الطاهر في التراب ؟ ومن يخلقه في رعاية أمور المسلمين ؟ إذ أننا نلاحظ أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كانت لهم اجتهادات متعددة بالنسبة للمكان الذي يثوى فيه جسده الطاهر ، أفي المدينة ؟ أم في مكة ؟ أم في القدس ؟ .. كما كانت لهم اجتهادات في قضية الخلافة ، وما دار في اجتاع السقيفة كما هو معروف .

من هنا تنطلق بتراث المسلمين الذي خضع لرؤى التاريخ ، وتعدد مطامحها وتباين انتماءاتها ، وتنوع مشاربها ، وهكذا تعتبر هذه الفترة الأولى من تراث المسلمين ، فترة مورست فيها . ومن البداية ، نزعات المؤرخين ، وطبعت بانتماءاتهم ، وتلونت بنعراتهم ، فمنهم من حاول أن يبنى على تاريخ الإقلاع الإسلامى الربط بمعطيات العرب قبل الإسلام ، ويكفيه بتطلباتهم . ومن المؤرخين من حاول أن ينطلق بتاريخ المسلمين من الإسلام . وأن يجعله من البداية يتزيا بزي مغاير لما كان عليه حال العرب قبل الإسلام . وهناك من خط طريقاً وسطاً . يوفق بين ثقل الانتماء العربى ، ودفع الإسلام المقلع ، وعليه فالتساؤل الذى يطرح على مؤرخى تراث

المسلمين : هل يمكن لهذا التاريخ أن يرى بمعزل عما يدور في أعماقهم من أهواء واتمئات ؟ .

سنحاول أن نمارس الاجابة من خلال الواقعة الأولى لإقلاع تراث المسلمين ونعنى بها اختيار المكان ليشوى فيه جسد رسول الإسلام ، واختيار الخليفة وكيف أن تاريخ المؤرخين حاول أن يعطى لنا صورة لهذا التنوع السائد بين فئات المسلمين ممثلة في الفئة الأولى والأكثر وفاء ونقاء وعطاء . ونعنى بها فئة الصحابة .

فالصحابي ابن المدينة تحمس لها ، لتكون مأوى لجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابي المهاجر ابن مكة تحمس لموطنه ، وثالث تحمس للقدس أولى القبلتين وهذا الذي تحمس للمدينة مالم لأن تكون الخلافة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى عشيرته وأهله . وابن مكة أراد أن تكون الخلافة لها . وكان ما كان في لقاء السقيفة وحفظ الإسلام كما حفظ القرآن باختيار أبي بكر خليفة لرسول الله كما اختيرت المدينة لتكون مأوى لجسده الطاهر . وهكذا كان الارتضاء بين مكة والمدينة . واستقر الوفاء ، واستقر التلاحم ولكن لم يقدم لنا تاريخ المؤرخين ما يتمشى وطبيعة هذا الإيقاع الإسلامى الخالد ، وإنما ركز البعض في محاولة يائسة لإحياء نغرات الجاهلية وحماساتها بمناسبة اختيار الخليفة أو اختيار المكان ليشوى الجسد الطاهر .

ونحنا جانب من المؤرخين ليفاضل ويميز ، وكأنهم بعد أن يسوا من إثارة الفتن في حينها ، أن يفتعلوها فتنا بصيغة المبني للمجهول ليحملها إلينا التاريخ فيسهم في إذكاء نارها ، حينما تتاح الظروف أو تهيأ المناسبات .. إن كان العصر النبوى قد حفظ من التلوث التاريخي ، وفاء لحضور أكرم الأنبياء والرسول وغيره على دينه وحبا فيه . وسهر القرآن المحفوظ مكملًا بالأحاديث القدسية والصحيحة على أن يقدم العصر النبوى في صورة تتمشى وما له من قداسة وخلود ، وبالتالي لم يجد المتلاعبون منفذاً ليشوهوا من خلاله هذا العصر المنير والمستنير بهدى النبوة رغم أكيدة في إحياء ما انقضى ووصل ما انقطع . فكان التركيز على حروب الردة ، كما كان

التركيز قبل ذلك على ما تم في مسجد رسول الله حينما انتشر خبر رفعه إلى الرفيق الأعلى . وركز أيضاً على ما دار في السقيفة . وما تم من مناقشات حول تشوية جسد الرسول الطاهر في التراب وكان الصحابة وحوئلهم من خلص وأبرار ليس لهم إلا ما يفرقهم فور رحيل خاتم الأنبياء والمرسلين . إننا نتساءل لو كان الأمر كذلك ، كيف أتيح للإسلام مع هذه الفئة القليلة من الصحابة أن تتجاوز كل هذه الهموم . وتنتصر في كل هذه المواقع . إن لم تكن هناك قناعات عميقة تجعل الإيمان يجب ما عداه . وأن اختلاف الرأي لا يضيع للإسلام هدفاً ولا يحيد به عن غاية . فكل هم مهما صعب حينما يكون الاختيار بينه وبين بقاء الإسلام . فالهم يذوب وصيحة التكبير لا تعلوها صيحة .

ثوى جسد رسول الله في المدينة برضاء الجميع ، وأضحى أبو بكر خليفة للمسلمين وحواله الجميع . وتبقى للمؤرخين أن يفتعلوا أساطير الخلافات وخرافات الشقاق لتصبح موقعا للمحاكاة والتقليد وكان طبيعياً أن مد الإسلام وامتداد تراث المسلمين صاحبهما في نفس الوقت مد وامتداد لأهواء المؤرخين وتنوع تذوقاتهم . وتقى نعراتهم الدفينة . وهكذا صوروا لنا تاريخ الراشدين من البداية حتى وصلوا به إلى نهاية المواجهة بين الخليفة الرابع على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وما صاحب الفترة من أحداث على أنه تاريخ لنزعات دموية لا تنتهى ، كادوا أن يصلوا بها في نفخهم لافتراء الأقاصيص على أن الإسلام لن يعمر طويلاً ، ولن يخرج من دائرة مكة والمدينة ، ويتكوف في أحداث الكوفة ، وينتهى بنهايتها .

ولكن الإسلام مرة أخرى يؤكد قدرة التجاوز لامتصور بفضل ممراسم الواقع والإصرار على الاستمرارية وتهميش من حاولوا أن يهملوا .

لن نفصل كثيراً فيما حمل لنا تاريخ المؤرخين من أقاصيص ، وسنكتفى بنماذج على سبيل المثال لا الحصر ، فيما يعنى عصر الراشدين ، كمرحلة أولى من قضايا تراث المسلمين .

نذكر أسماء تعاقبت عبر أجيال متعددة مؤرخين ونسائين من ابن إسحاق ، والوفيدى ، وابن الحكم ، والمسعودى ، والبغدادى ، والطبرى ،

وابن هشام ، وابن الأثير ، والأزدي والجرحمي اليمني ، وابن مزاح ، كل يدافع عن خليفته واتمناه بطريقة صريحة أو مقنعة ، إلى جانب كتاب السير والمغازي . ويمكن أن نضيف الكلبي والمثنى التميمي وغيرهم ، وغيرهم الكثير تتداخل وقائع وأحداث التاريخ مع أقاصيص وإنشاءه بين التعطيل والاختزال والتعاطف والتحفظ والتعصب والتشيع بين من يريد أن يجيب جاهلية بنعراتها وحماستها ، وبين متشيع لآل البيت ، ومحب ومتوادم ، وبين طموح ، وهجاء ومداح ، ومنافق ومزيف لذاته قبل أن يزيف ذات الآخرين ، ومذبذب يبيع في كل الأسواق دون أن يعنيه مما يبيع أكثر من الثمن . وهكذا من الصعب أن نعطي رؤية أحادية لتاريخ حافل بالتزوقات والاختيارات والنزعات .

يمكننا أن نستخلص فيما يعنى فترة الراشدين تياراً صاغ الأحداث ملتزماً ما أمكن بتقاليد الرواية التاريخية ، أكثر من التزامه بصحتها . مفضلاً الإرضاء على التحييص والتحقيق . فهو مجامل في بعض الأحيان مهادن ، وفي بعض الأحيان الأخرى مداهن ، ومع هذا اقتصر في صياغته على السرد التاريخي موجهاً له الوجهة التي لا تفرز له المشاكل وتبلى عليه الهموم . فالخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، هو الخليفة الذي تجاوز بالمسلمين أزمة الردة منتصراً ومدعماً لنشر الدعوة وملتزماً بالمبادئ الخالدة التي أوحى بها السماء وفيا ، مصداقاً وصديقاً لرسول الله في حياته ، وبعد وفاته عليه السلام .

وعمر بن الخطاب بدوره خليفة راشد آل إليه الأمر فركز على الانضباط والعدل والمساواة ولا خشية في الحق ولا لومة لائم ، ولو أدى هذا في النهاية إلى استشهاده بيد آئمة فهو الخليفة الذي حكم ، وأمن « حكمت فعدلت فأمنت » لكن يد الغدر لا أمان لها مهما تعالى العدل وارتفعت رايته .

وعثمان بن عفان خليفة ثالث راشد . بدوره مد صفاء الإسلام كما مد أرض وإن كانت اليد الآئمة بدورها نالت منه ، فما ذلك إلا لتوغل الإثم في قلوب البشر الذي لم يغتسل بساء الإيمان ونقاءه .

وجاء دور الخليفة الرابع لتستكمل معه حلقة الاستشهاد ، باستثناء أبو بكر رمزاً لقمة التضحية في سبيل إعلاء كلمة الله . فهذا ضرب من البلاء والاختبار ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يزكى به ، وأن يمن بنعمة الاستشهاد أحباب رسول الله .

هذا التيار الذى قدم لنا فترة الراشدين في إيقاع واسترسال محاولاً تجفيف الدماء وتجاوز نزعات البشر وخلفياته ، وأن هذا الذى كان ، قدر فكان . إن كان قد اشتمل على جانب من المؤرخين اكتفوا بالحفاظ على الإيقاع التاريخي دون تساؤلات قد تدفع بدورها إلى مزيد من التساؤلات . فهناك جانب من المؤرخين من أصحاب هذه النزعة اتجهوا بجيادهم ليرتقوا به نحو تعميم مفهوم العصمة ، على الخلفاء الراشدين ، حباً وتعاطفاً مع أصحاب رسول الله ، مع أن القرآن الكريم ، جعل الرسول عليه السلام هو الذى ينفرد من بين بنى البشر بأنه لا ينطق عن الهوى . مع تمتعه بكل خصائص البشرية وميولها .

إن كنا نرى في هذا التيار اختياراً وسطاً ، حاول أن يوقف جسامه الأحداث فيسردها . ولصحابة رسول الله من مكانة وتفضيل فيتعامل معها بحسبان - فهناك تيارات أخرى من المؤرخين الذين تصدوا لهذه الفترة في عهد لاحق وجل التدوين للتاريخ ، كما هو معروف ، كان في عهد لاحق حتى العصر الأموي لم ينج من غيبة التدوين . استغلوا هذه الغيبة ليضعوا تاريخاً يتمشى وما لهم من ميول ونعرات ونزعات عصبية أم شعوبية . فمنهم من رأى عصر الراشدين من منظور جاهلي . ومنهم من رأى عصر الراشدين من منظور شعوبي وبين هذين التيارين تأرجحت أحداث ووقائع التاريخ . فبينما أبرز المنظور الجاهلي أحداث ووقائع عهد عثمان بن عفان وما أهل كردود فعل انتهت بقيام الأموية . نرى أصحاب المنظور الشعوبي المتشيع ركز على عهد على رضى الله عنه ليقراً من خلاله تاريخ الراشدين ، بل وما وقع بعد ذلك حتى قيام العباسية .

نفضل القول دون إطالة ، من حاولوا تجهيل العصر الراشدي ركزوا على خلافة المهاجرين ، فالخليفة الأول والثاني من قریش . والثالثة بن عفان

الأموى وكان حسب مضمراتهم وخلفياتهم استمرار هداية النبوة قضية قرشية وليست إنسانية ولا كونية .

العروبة والإسلام ، من يتقدم من ؟ تقدمت العروبة ليكون الإسلام في خدمتها . إحياء العروبة ضاربت على النعرة والعصية مع أن العروبة الحقنة تكليف لا تشريف . لتصبح هى الأكرم بتقواها . لا القهر بسيفها وجبروتها . وكان طبيعيا أن يتصيد هؤلاء المؤرخون من هنا وهناك ما يزكى انتماءهم وخلفياتهم . ويجعلون من الإسلام عنوانا وشكلا فى محاولة لصبغه بمضمون عربى لا يكتفى بعروبة اللسان والبيان وإنما عروبة المضمون والانتفاء والغاية .

وكان طبيعيا أن يجدوا فى الأحداث الأليمة التى أحاطت باستشهاد عثمان بن عفان لإذكاء حماسات جاهلية مضمرة ، وإخراجها إلى ساحة المواجهة تحت راية قيس عثمان رضى الله عنه . بل كما هو معروف ، انتفع هؤلاء المفتعلون لتاريخ صاغوه عبر انتماءاتهم من تطفل بعض العناصر المشبوهة إلى مراكز قيادية فى عصر عثمان وكان منها المبعد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليجعلوا من مأساة خلافة عثمان مأساة للعروبة ، يستوجب الردع والقصاص . وهكذا كان التأهيل لخلافة على رضى الله عنه التى اتخذ منها الجانب الآخر من المؤرخين من أصحاب النزعات الشعوية ودعاة التشيع فرصة لإحياء روايتهم قابعة فى شعوبيتهم ليتقيروها تحت راية مشروعة وهى راية التشيع لأهل بيت رسول الله ، بعد أن تأخر الاعتراف بحقهم فى وراثة الإسلام . وكان الإسلام جاء ليتبادل بين القرشى والهاشمى . بين الجاهلى والشعوبى . ولو قدر له هذا المصير ، وحددت له هذه الغاية ما خرج أبدا من معاقله وانتشر فى ساحة الكون .

دون التوسع فى مصادر هذه الفترة تاريخيا ، وما يعتمد عليه وما لا يعتمد عليه وما يؤخذ بعين الموضوعية ، أو يحكم عليه بالمغالاة والتطرف ، يمكننا أن نشير على سبيل المثال لا الحصر أسماء تتوارد سرداً وذكرأ حين التعرض لهذه الفترة التاريخية من أبو عبيدة معمر بن (المثنى) التيمى إلى الجرهمى اليمنى مروراً بابن وهب بن المنبه وأسماء أخرى منها ما تشم منه رائحة

الشعوبية والمغالاة في التشيع ، أو تلمس فيه سمات النعرة والعصبية الجاهلية ، أو تنعكس منه أبعاد التشويه والمغالطة نتيجة لأهوائه وخلفياته . وهكذا يلاحظ أن تاريخ المؤرخين لهذه الفترة لا يمكن بحال من الأحوال أن يعزل عن إطاره العام ، الذي كانت تغطيه النزعات والأهواء شعوبية أو جاهلية أو تشويحية . لحاجة في نفس يعقوب ، ولكن ولحسن الحظ الجانب الأصولي لما يشله من قداسة كمبادئ خالدة مثلة في حفظ القرآن وصيانة أحاديث رسول الله عليه السلام عبر هذه الفترة دون أن يتأثر بهذه التيارات التي اهتمت أساساً بجوانب الطموح السياسي وتخصنة الأغراض .. ومع هذا يظل التساؤل من أين نبدأ بتاريخ المؤرخين ؟ .

فبقدر ما خضع المصطلح لأكثر من اجتهد في أصله . تاريخ من أرخ الشيء ، بمعنى انتهى إلى ذلك ، أو إثبات الشيء ، أو من ورخ بلغة تميم أو أرخ بلغة قيس . أو تأريخ ، بل غالى بعض المجتهدين حينما ذهب به ترويضه للمصطلح أو للتعبير إلى أنه استقى من العبرية أو عرب كمقابل للفظ فارسي إلى غير ذلك من الاجتهادات ، فتاريخنا كمضمون ببداية محددة كثيراً ما يعطى له كمنطلق لإقلاع العام الرابع من خلافة عمر ، السابع عشر الهجري حينما بدأ الاهتمام بالأحداث والوقائع بدلا من أن كان التاريخ يبحث عنه على مستوى وصفى لحدث كبير ، كعام الفيل ، أو عام وفاة . أو عام حرب كما هو معروف .. قبل هذا الإقلاع . ولكن تظل قضية تحديد ما في هذا المضمون حيث إن العرب انصب اهتمامهم حول محاور ثلاثة : السيرة ، المغازي ، الأنساب . وكانت هناك طبقات : أولى وثانية وثالثة . مما يدخل تفصيلا في إطار الدراسات التاريخية ولا يجد له مكانا في هذا الحوار المقنن حول تاريخ المؤرخين . هذا إلى جانب طبيعة مراحل صياغة التاريخ عبر أجياله ، كمثال ما تم في القرن الثالث الهجري بعد الدينوري . وللبعض عليه بعض التحفظات في اتجاهاته ، وإغفاله لذكر سيرة الرسول عليه السلام . ثم اليعقوبي الذي وسع من مفهوم الحدث التاريخي ليدمج فيه الأصدقاء الثقافية ، والطبرى الذي بدوره وسع مركزاً على تاريخ الرسل والملوك ، وصاحب « مروج الذهب » المسعودي الذي جعل التاريخ يتداخل مع الجغرافية يتغذى بها ويغذيها . وهكذا توالى الاجتهادات كأمثلة :

أغايوس ، وابن هارون المالطى ، وابن مسكويه ، وابن الجوزى ، وأبى الفدا
وكمثال أيضاً لأصحاب الطبقات والأنساب : الكلبى ، وابن الأثير ،
وابن الأبار ، وابن خلكان ، وابن القفطى ، وأمثلة لأصحاب الاتجاه
الجغرافى فى صياغة التاريخ : كابن خردادبه ، والمروزي
والخوارزمي وابن روسته والهمداني وقدامة بن جعفر إلى جانب أصحاب
الرحلات وما أكثرهم : من ابن فضلان ، المقدسى ، الإدريسي ، البيروني ،
البكرى ، ابن جبير . إلى مؤرخى الخراج والحسبة : كابن حيان وابن محمد
الرازى الأندلسى ... أسماء وأسماء من الصعب أن تعطى قائمة مفصلة لها .
ولكن اكتفينا بمجرد أمثلة لنبرز إلى أى حد جاء تاريخ المؤرخين غنياً فى
كمه ، متعدداً فى تصانيفه وأنواعه ، ولم يكتف بتغطية جانب محدد من
جوانب التاريخ ، بل وسع من اهتمامه ليقدم لنا مادة غنية متشعبة . وإن
دلت على شئ فإنما تدل على مدى رغبة الساهرين على تراثنا من أن يص
وعلى وأسع صورة إلى الأجيال التالية .

أما مدى مصداقية هذا التاريخ وثباته ، فهذه قضية أخرى إن كانت
من قبل تطرح على مستوى التساؤل ، فحالياً وبفضل علمية التاريخ وفلسفته
تجسد اشكالية تتمتع فى طرحها بأولوية الأولويات ، ولكن قبل أن نتفل
إلى الاحتكام والتعامل مع علمية التاريخ وفلسفته كميادية لتقنين قضايا
تراث المسلمين علينا أن نستكمل فيما تبقى من هذا الحوار الخاص بتاريخ
المؤرخين جولتنا عبر المواجهات الكبرى التى تمت فى نهاية عصر الراشدين
مع على رضى الله عنه وقيام الأمويين . ما يعرف بالفتنة الكبرى . وكيف أنها
ساهمت بتاريخها ، وثقلها فى إبراز الاختيارات التى كان المفروض أن
تواجه إقراراً للحق ليصبح الحق فى النهاية مأساوياً مجسداً فى المواجهة
كغاية . وهذا فى حد ذاته . وهنا ، نشير بوضوح إلى مدى الالتباس الذى
وقع فيه البعض حين تقنيه للمواجهة الكبرى ، باسم الفتنة الكبرى ،
ارتكازاً على ما صاغه بعض المؤرخين ليجعلوا من هذه المواجهة ليس فقط
فتنة فى عصرها مفتعلين ومتصنعين ، وإنما فتنة لكل العصور . الفتنة الكبرى
إذن رداء لبس فوق قميص عثمان ليعكس من جديد ، وبعد غفوة لم تستطع
أن تقاوم نور وإشراق الإسلام . إحياء النزعات والنعرات والعصية من

ناحية ، كما يعكس رواسب الشعوية ونفائياتها ، لقد صيغت الأحداث صياغة شبت بهذه الخلفيات وانتخت بها ، وأصبح كل يرى فى الاستشهاد أنه منه وإليه ، بينما فى الواقع إن كان بين المواجهين طمع فى الاستشهاد فليس بين المفتونين ومروجى الأحقاد إلا الاقتتال والتطاحن ، كل يبحث عن ضالته . فهذا يشفى نعرته الجاهلية بدماء الأبرياء وآخر يشفى شعوبيته بدماء من تبقى ، وثالث مرجئى يكتفى بالملاحظة ، والحياد . وكأن الأمور لا تعنيه . وكأن الإسلام لم يدع إلى التصالح بين الفئات والطوائف بنص القرآن : « **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** » (١) ، وخارجى يرى فى الأحداث بدوره فرصة لينبذ الجميع ، ويحكم بأخطاء الجميع وخطأهم . متخذاً من هذه الأحداث الأليمة فرصة لينقض ودائماً بحيثيات ، لا شك أن الفتنة الكبرى من الأولى أن ترى بمنظارين : منظور المواجهة على مستوى الأنقياء والأبرار من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفاء منهم لما عاهدوا الله عليه . ومنظار آخر لمروجى الفتنة ومشعلى نيرانها لحوئج فى قلوبهم ورواسب فى أعماقهم . ونعرات تسرى فى أجسادهم مجرى الدم . لأننا نربأ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتنوا بهذه البسطة . وأن يستبيح بعضهم دماء بعض . ولكن هى قناعات الإصرار على الوفاء بالعهد . « **وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا** » (٢) . .

فما بالنأ إذا كان المعنى بالأمر فعل لا قول . يكون الإصرار . والصمود هو من باب الالتزام .

لقد استغل مروجو الفتنة هذا الالتزام بين أصحاب رسول الله ليحولوه إلى ساحة يتقاتل فيها من يتقاتل ، وآخر من يقاتل أو يقتل ، وهو مروج الفتنة ومبتدعها . لأن رأس مال المروجين هو الكيد ، والقيى والقال وملء النفوس بالحزازات والأحقاد . والتحريض والتحويل . لقد استطاع الإسلام بنوره . وبهديه أن يطهر القلوب الصادقة من رجس الجاهلية ولكن القلوب المريضة اكتفت بظاهر الإسلام . واحتفظت لنفسها بجذورها مترقبة ومنظرة لنقض وتستغل الإسلام لحساب خلفياتها واتمءأتها .

وهكذا أبرزت لنا ملامح حركات مقنعة ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب شغلت حيزاً واسعاً من تاريخ أمتنا . وما زالت تشغله رغم ضالة حجمها كما وكيفاً . ولكن الضوضاء التي صنعتها عبر التاريخ كادت بضبابها أن تغطي في بعض المراحل التاريخية سماء الإسلام الصافية . وإيقاعه المتجانس وانسجامه الوحيد الرصين . حاولت أن تملأ صفحات تاريخنا بتوسيع هوامشه وحواشيه على حساب نصه ولتقليل جوهره .

وفعلا طالعنا تاريخ المؤرخين ناقلاً إلينا ما شوهد تحت قبة الشمس المشرقة وسماء الإسلام الصافية . كما شوهد عبر الضباب . وما شوه من خلال العتة والتعتيم . ومع هذا سنحاول أن نحاور تاريخ المؤرخين ، وباختصار مشيرين إلى ما يحسب له ومتحفظين على ما يحسب عليه . لنشكل بذلك أرضية لحلقة حوار ثانی تخصص لقضايا تراث المسلمين على ضوء علم التاريخ وفلسفته وبقية علوم الإنسان المعاصرة بصفة عامة .

ولنبداً بالتحاور مع ما يحسب لتاريخ المؤرخين ، وبموضوعية . حين نقله لقضايا تراث المسلمين .

من حيث الصياغة والشكل بمعنى مورنولوجية تاريخ المؤرخين جاء هذا التاريخ متراباً متتالياً ، محاولاً تغطية التنوع والتعدد في إطار متكامل ما أمكن كل جيل من المؤرخين يسلم للآخر الراية أو ما نقل مضيئاً ومستميداً من عطاء غيره . بل ظلت بعض أسماء المؤرخين تتردد خارج عصرها وعبر عصور الآخرين كمجرد مثال للحصر : الطبري ، المسعودي ، المقرئ ، المبرد ، البلاذري ، ابن الجوزي ، ابن حزم ، حتى ابن خلدون ، والسخاوي ، والقائمة طويلة ، وغنية ومتنوعة لمن يريد التفصيل . بقدر ما نوعت واعدت اهتماماتها . فلم تقف عند حد التاريخ الخاص بنية الأمة كخلافة أو إمارة أو إمامة ، وإنما أرخت للجماعات من أصحاب الحركات البارزة : مرجئة وخوارج وشيعة . بل تجاوزت باهتماماتها بنية الأمة والجماعات النشطة التي تركت بصماتها في التاريخ لتغطي باهتماماتها الاتجاهات والمدارس الفكرية لبعض تيارات النخبة معترلة كانوا أم إخوان الصفاء جنباً إلى جنب مع تيارات الأصوليين الرصينة من أهل السنة ماتريديّة

وأشاعرة ، بل سلطت الأضواء على بعض الذهنيات الفذة . بعقلنتها واستيعابها كمجرد أمثلة : الكندي ، الفارابي ، ابن سينا ، وحتى بالأندلس والمغرب من : ابن طفيل ، لابن رشد ، إلى جانب ابن حزم ، وابن ماجه من العمالقة وعرفت بما قدمت هذه العقول من اجتهادات دفاعا عنها أو تحفظا عليها وفي مختلف مناحي الإسلاميات وما حولها . وهكذا تصدرت أولا التيارات التفسيرية والحديثية والفقهية ، وأبرزت ما لها من قدرات كما وصفت لنا البيئات والمناطق والبلدان . وما يهم الإنسان في وضعه الديني . وما يفيد في حياته اليومية ، بضمان حياته واستغلال امكاناته ، وتسهيل تعامله مع الطبيعة بما في ذلك الطب والفيزياء والكيمياء ورياضيات وعالم الحيوان والنباتات والكائنات الأخرى وحتى الفلك والكون .

وبالتالى جاءت صياغة تاريخ المؤرخين غنية بعطاءها . معرفة بمختلف مناحى حياة الأمة في مسيرتها حاملة لنا منجما من المعلومات ، وبالرغم مما صودر فلم يعبر التاريخ ، لسبب أو لآخر . أو ما ضاع وغطته أثرية الأحداث أو النسيان والتجاهل ، أو محيا أساسا بأيدي عابثة ؛ اعتقدت أنها فادرة على أن تمحو الماضى ، وتوقف 'المستقبل من موقعها المتحكم في حاضرها أو في النهاية ما لحقه التلوث نتيجة للمضاربات والمجازفات في تفسير الوقائع وتحميلها مالا تحتل من مبالغة أو ربما افتراء . وبهتاننا ، ومع هذا بقيت لنا مادة جديرة بالتحليل والشرح والإخضاع للتقنين المعرنى الأصيل قلبا وقالبا ، شكلا وصياغة ، ومضمونا وجوهرا .

فإن كان الشكل والصياغة أو القالب كما أشرنا جاء ثريا بالعطاء المتنوع ، المتعدد والمتوالى ، والمترايب الشامل المتكامل فالقلب والمضمون بمعنى جوهر التاريخ بدوره يجسد لنا تفاصيل هامة يمكن بفضلها الإسهام في بناء الفعل التاريخى . (مادة التاريخ) الذى يمكن على ضوئه إعادة النظر في فكر تاريخ المؤرخين ، وهذا ما نعنى به الإيجابية الثانية والخاصة بفيزيولوجية التاريخ وتوظيفه لتحديد من خلاله المعالم النشطة ، الموضحة لآفاقه وركائزه المفاهيمية .

لقد حمل لنا التاريخ العديد من المضامين منذ نشأتها ، وكيف مورست

ووظفت ؟ بل وكيف تطورت ؟ سواء في ذلك ما يعنى بنية الأمة ، والجماعات ، أو ما يعنى الاجتهادات ، والتيارات الفكرية . أى الأمة كبنية وكتائج ، وسوف نكتفى بسر بعض هذه المضامين كمثال :

الخلافة ، إمارة المؤمنين ، البيعة ، ولاية العهد ، الحركات الاجتماعية فكراً وفعلاً ، إلى جانب بعض المضامين النشطة مثل الحجابة ، والكتابة والوزارة أو بعض الظواهر المسيرة للبنىات الاجتماعية ، كالقضاء والحسبة والخراج والولاية والشرطة والجيش والبريد وتدوين الدواوين .. كذلك ظواهر العمران والمدن والزراعة والرى فضلاً عن مضامين الحياة الفكرية للإسلاميات انطلاقاً من التفسير والحديث والفقه حتى الكلام والمتكلمين والفلاسفة ، وتيارات أخرى زخرت بها عصورنا المختلفة .

وهكذا حمل لنا التاريخ : الخلافة ، إمارة المؤمنين ، البيعة ، ولاية العهد وكيف حددت ، وكيف مورست ، كما حمل إلينا الحركات الاجتماعية الكبرى والتي شغلت حيزاً كبيراً من تاريخنا كما أشرنا سلفاً .

فمن المعروف أنه بعد وفاة الرسول عليه السلام ، وتولى أبو بكر أمر المسلمين لقب بخليفة رسول الله ، فكان أول خليفة في الإسلام . ومع عر وخلافته كان على أصحاب وأحباب رسول الله أن يحددوا مضمون الولاية ، ولاية عمر ، فكان هناك اتجاه يميل إلى أن يكون خليفة خليفة رسول الله ، ولكن كان التساؤل : ثم بعد ذلك ؟ بالنسبة للتالين . لهذا كانت تسمية أمير المؤمنين لعمر رضى الله عنه . واستمر الحال بالنسبة لهذا المضمون فيما يعنى عثمان وعلى . لكن حينما انتقل الأمر للأمويين استجدت مضامين أخرى فيما يعنى بنية الدولة فكانت ولاية العهد والبيعة له (لولى العهد) ثم استمر الاجتهاد فيما يعنى شئون الأمة . فكانت الحجابة ، والكتابة ، وإن كانت الكتابة عرفت في عصر الراشدين ، بل حتى في عصر رسول الإسلام عليه السلام : كتابة الوحي . والقضاء بدوره والشرطة والبريد والجيش والبحرية والولاية وكلها معالم يمكن التعامل معها كوقائع وظواهر ملبوسة لبناء الفعل التاريخي . كذلك الوزارة . وقد استجدت في العصر العباسي : حيث إن الأمويين لم يتحمسوا لها لأن الوزارة من المؤازرة ، وهم ليسوا في حاجة

إليها . وإنما لكتاب وخدام . ومن المعروف أن العصر العباسي شهد أهمية هذه المعلمة . ويميل المؤرخون إلى أن أول وزير هو حفص بن سليمان ، وقد استوزره السفاح . ولعل أشهر الوزراء هم البرامكة ، ثم استجد مضمون أمير الأمراء من القرن الرابع الهجري لدى بنى حمدان ، وبنى بويه . ومما يلفت النظر فيما يعنى الحجابة كمثال أنها لم تمارس في عهد الراشدين ، وإنما انطلاقاً من الدولة الأموية . وبخاصة بعد استشهاد على بنى الخوارج ، ثم تصدرت الحجابة في بنية الدولة ، بل تعدد الحجاب في العصر العباسي إلى أن وصلوا إلى ثلاثة ، بمعنى يحجب راعى الأمة على مستوى حواجز ثلاثة . مغالاة في تغليفه وتباعده . وقد مورس هذا أيضاً في الأندلس كما هو معروف .

والكتابة بدورها عرفت تنوع لا تعدد . فهناك كتاب الشرطة . وكتاب الخراج وكاتب القاضى ... الخ . ولا شك أن التعرف على هذه المضامين وهذه الظواهر جدير بأن يأخذ مكانه حين محاولة بناء التاريخ انطلاقاً من وقائع ، لا من انطباعات المؤرخين وإنشاءهم هذا فضلاً عن ما لبعض هذه المضامين من حضور واستمرارية عبر مراحل التاريخ ، كمجرد مثال : تدوين الدواوين ، الحسبة ، القضاء ، الشرطة ، فالدواوين إن كانت هناك اتجاهات في تحديد نشأتها ومرجعيتها ، هل هى أدخلت كحكاية للفرسيين ؟ ، أم هى عربية أساساً ؟ ولكن من المعروف أنه في عصر عمر مع اتساع رقعة الأمة والكثافة والتكاثر البشرى كانت كتابة الدواوين . وقيل إن انذى أوحى بها أبو هريرة رضى الله عنه ، بعد أن أتى من البحرين . وكان كتاب الدواوين من أهل الذمة في البداية . وقد عرت الدواوين شيئاً فشيئاً وتعددت بتعدد الضروريات ، ونلاحظ هذا فيما يعنى القضاء وإن كان القضاء في العصر العباسي تأثر بالسياسة ، وأصبح للقضاء قاضى القضاة كما أن هناك أيضاً قاضى المظالم .

والحسبة بدورها منذ عصر الرسول عليه السلام كان يتولاها بنفسه ثم وكل بها ، وكانت تعنى المراقبة وخاصة مراقبة الأسواق .

إن كنا قد أعطينا بعض الأمثلة من هذه الظواهر ، فلكى نعطي حثيات

موضوعية لوجود مقومات أساسية يمكن الارتكاز عليها في البناء التاريخي ، كما أشرنا ، هذا إلى جانب ما حمل إلينا التاريخ من وصف وتعريف بطواهر العمران مدنا مشعة ، كما حمل إلينا أنشطة أخرى لحياة المسلمين اليومية فيما يعنى الرى والصناعة والزراعة . وهنا لا يمكن بحال إغفال هذا الجانب الهام الذى تميزت به حضارتنا ، ونعنى به تصوير المجتمع الإسلامى وعدم الاكتفاء بتصوره وتمثله . ونعنى بذلك رحالة المسلمين ، وكيف قدموا لنا أرضية متعددة العطاء ، بما فيها من رصد اثنوغرافى للقبائل والعشائر من خلال المشاهدة ، أو وصف سوسيوغرافى للمدن الإسلامية المشعة بعمرانها وفنونها وثقافتها . وتطعيم الوصف بالاستنتاج والاستجواب كما يجعله حافلا بالعطاء السوسيوغرافى . هذا الجانب يمكنه أن يسهم إسهاماً مباشراً وغنياً ، فيما يعنى إعادة صياغة تراث المسلمين على ضوء علمية التاريخ وفلسفته ، ومدى تعامله مع علوم الإنسان المعاصرة . وكيفية توظيفها . وهذا موضوع سنعود إليه في حلقات حوارنا هذا فيما بعد .

ولنعد الآن إلى مسيرة تاريخ المؤرخين وكيف أنها أيضاً قدمت لنا حصيلة من المعلومات التى يمكن أن تقن موضوعياً ، فيما يعنى الحركات الاجتماعية ، كما قدم لنا تاريخ المؤرخين منجماً لا ينضب خاص بالأنشطة المختلفة للحياة الفكرية التى عبرت تاريخ هذه الأمة ، متمجورة أساساً حول أصول الإسلام قرآناً وسنة ، تفسيراً وحديثاً ، ومتشعبة لتشجع وتغضى مختلف الرغبات العقلية والذهنية للمسلم . فلم تقف الحياة الفكرية عند الأصول وإنما غطت الاجتهادات العقلانية والفلسفية وتوزعت في إطار أثرى تراث المسلمين ، شريطة أن يتفهموا موضوعياً لأبعاده . وهكذا فيما يعنى الحركات الاجتماعية دون أن تتصدى لها في هذه الحلقة من الحوار ، على مستوى التقنين ، لأننا نحفظ بذلك للحلقة الخاصة بقضايا تراث المسلمين ، على ضوء فلسفة التاريخ وعلميته ، وعلوم الإنسان بصفة عامة .

سنكتفى إذن في هذه الحلقة من الحوار ، بتقديم معالم الحركات الاجتماعية وكيف أنها شغلت حيزاً عريضاً ، إن لم يكن رهيباً من تاريخ أمتنا فهى لم تكتف بالتأثير في إطارها النبوى ، وعلاقته ببنيات المجتمع الأخرى

وإنما أثرت على الفكر بل وعلى المخاضات الكبرى من الأحداث التي جسدت معالم الطريق لتاريخنا .

دون دخول في التفاصيل ، من المعروف أن الحركات الاجتماعية عبرت التاريخ لأمتنا الإسلامية ومن البداية . وعلى سبيل المثال لا الحصر سوف نبرز الهام والمؤثر كحركة الخوارج وحركة المرجئة ، وحركات التشيع والشعوبية ، وكيف أن هذه المسارات أفرزت في فترات تالية عبر منعطفات ومنحنيات متعددة الكثير من الحركات المتفرعة عنها . فلا يمكن عزل حركة المعتزلة عن بعض الأصول الإرجائية للمرجئة . ولا يمكن إنكار تنوع الخوارج ، كتشيع المعتزلة ، وتنوع الشيعة في ملل ونحل ، ما علينا إلا أن نلقى نظرة عابرة على ما كتبه الشهرستاني : أو ابن حزم عن الملل والنحل لنرى إلى أي حد هذه الحركات الاجتماعية نفدت إلى بيئات المجتمع . وكانت وراء العديد من الأحداث والوقائع في فترات التاريخ من القرامطة إلى الديلم إلى الزنج إلى .. إلى .. في مشرق أمة الإسلام ومغربها . والذي يعيننا في هذا الحوار ليس بالضرورة شرح وتحليل هذه الحركات وإنما كيف أنها تعكس بصورة تلقائية ومباشرة هموم التاريخ ، وآهواء وانتماءات المؤرخين ، وتعاطفهم كل يغنى على ليلاه مع هذه الحركة أو تلك .

وهكذا قدمت لنا الحركات الشيعية من قبل المؤرخين الشيعة ، والمتعاطفين معها في شكل كثيراً ما يتجاوز الأبعاد الموضوعية لها عبر التاريخ ، باعتبار وحتى إشعار آخر أن التشيع في جبلته إلى يومنا هذا ما تجاوز العشرة في المائة من جسد الأمة .

كذلك بالنسبة للخوارج إن كانت حركات الخوارج برزت ، فلأنها ارتبطت في بدايتها بصراع كثيراً ما كان دمويًا . وفيما يعني أيضاً بقية الحركات الأخرى آن الأوان أن تحدد في حجمها دون تقييد أو إفراط . وهنا يلاحظ أن بعض المستشرقين ، لا نقول كل المستشرقين أن يعطى لهذه الحركات من الأهمية ما يتجاوز عطاءها . وأن يسلط عليها الأضواء لحاجة في نفس يعقوب ولذا كثرت في السنوات الأخيرة المؤلفات والأبحاث التي إن تنوعت في مسمياتها وعناوينها ولكن تلتقي في قاسم مشترك وهو البحث

لغاية مضرة ، قلما تعبر صراحة عن مضمون التاريخ الذى تبادلت أهواء المؤرخين ، ويتطلب وقفة هادئة قبل أن تؤخذ مواقف ينقصها الاستيعاب ، أو مواقف فى بعد واحد . وليس هذا بالضرورة يعنى أننا نقلل من أهمية هذه الحركات الاجتماعية أو نسعى لتهميشها ، وإنما أن الأوزان أن توضع فى إطارها الموضوعى ، وفى حجمها كما كان ما أمكن ، لا كما يأمل البعض أن يكون ، أو يأمل البعض الآخر ألا يكون ، وأن تفهم هذه الحركات على ضوء تناقضات متعددة وعدم الاكتفاء بتقييمها على أنها تعبير للصراع الطبقي ، أو فتوى ، أو جهوى أو فكرى كما نلاحظ الآن ، كل يلبسها الثوب الذى يريد . ومن الأجدر أن تلبس ثوبها الذى كان . ولنا عودة إلى هذا الموضوع — كما أشرنا — فى حلقات تالية من هذا الحوار . ونستمر فيما قدم تاريخ المؤرخين من معلومات وافرة بل وفائضة فيما يعنى التعريف بالتيارات الفكرية ، لا للإسلام من حيث هو أصول وقرآن وسنة ، وإنما فكر المسلمين ، بمعنى من الخطأ أن تضارب على الجانب الإلهى فى الإسلام والعطاء النبوى الخالد فهذه قضية إيمانية ، لا إكراه فى الدين . أما فكر المسلمين فهذه فعلا قضية تاريخ المؤرخين . وإن كنا كما قررنا من قبل نستبعد المضاربة على أصول الإسلام المقدسة ، ونضعه فى إطاره الإيمانى فذلك لأن القرآن محفوظ بنصه بالنسبة للمؤمن « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢) ، وسنة الرسول بدورها . إن حاول البعض أن ينفذ من هذه الطريق للأصول ، هناك معيارية علينا أن نلتزم بها تتجسد فى :

١ — أن الرسول عليه السلام لا ينطق عن الهوى .

٢ — فيما يعنى نقل الحديث إلينا ، هناك أحاديث تحدد لنا أساساً هذه المعيارية ونكتفى بما ورد فى حديث ما معناه أنه إذا سمع أحدكم الحديث فشىء أنى قريب منه فأنا أقرب الناس إليه . والعكس صحيح . بمعنى إن شىء ببعده فالرسول أبعد ما يكون عنه . إذن هذه قضية إيمانية .

٣ — أن الأحاديث وكل بها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فحفظوا

لنا الحديث بصحيحه وسننه . ومن ثم فهذه القضية لا داعى للمضاربة عليها
في غيبة الالتزام بأسسها المعيارية التي أشرنا إليها سلفاً .

يبقى بعد هذا فكر المسلمين . بعد وفاة الرسول عليه السلام تفسيراً
وتأويلاً واجتهاداً ؛ بما في ذلك الاجتهاد في السند والمتن وتحقيقه . وفكر
المسلمين فيما يعنى المتكلمون الفلاسفة ورجالات الأدب شعراً ونثراً .
ومبدعى الفنون ممن قدموا لنا مختلف العطاءات البناءة التي تفخر بها
كحضارة أبرزت تسامى المبادئ الإلهية وأصالة القيم الإنسانية .

فيسا يعنى أصل الأصول . وهو القرآن الكريم ؛ وما حمله لنا التاريخ ؛
تاريخ المؤرخين من اجتهادات في تفسيره وتأويله ؛ ويؤكد لنا أن الدراسات
القرآنية هي التي كانت محور اهتمام العقل العربي المسلم . ووعفت
الأنواع المختلفة والضروب المتعددة من المعرفة والتخصص لاستكمال هذا
وكيفية فهم هذا الجوهر الخالد .

فسر القرآن بالرواية ؛ وبالدراية ؛ وبالإشارة ؛ وبالمأثور ؛ وبالرأى
ويروى عن ابن عباس تاريخياً أن التفسير على أربع : حلال - حرام -
لا يعذر أحد بجهلته - تفسير فسرہ العرب بألسنتها . وتفسير فسرہ العلماء .
وتفسير لا يعلمه إلا الله .

كذلك هناك محاولة إرجاع التفسير إلى السنة أو إلى التشيع ، أو إلى
الاعتزال . كمجرد أمثلة : التفسير الإشارى للنيسابورى . وهناك أيضاً
التأويل الإشارى للقرآن للصوفى وتفسير الآلوسى ؛ والتستري ؛
وابن عربى ؛ كما أن هناك أمثلة لتفسير لأهل الكلام ؛ وأهل السنة ؛
والمعتزلة . وهناك تفاسير الباطنية ؛ القرامطة والإسماعيلية والسبعية .. الخ .

ومثال أيضاً في التفسير نذكره للطريسي بن على بن اغضل . ولاشك
أن قضية تفسير القرآن ؛ وتأويله من القضايا التي شغلت كما ذكرنا حيناً
واسعاً من نراث المسلمين ؛ كما حمله التاريخ .

والحديث الشريف بدوره . شغل مكاناً متصداً يليق بما لصاحبه أكرم
الأنبياء والمرسلين من مكانة في القلوب ؛ ونبراساً وقدوة لا يمكن لمسلم أن

يغفله لاستكمال عطاءه . بل هو الأصل الذى يأتى إلى جانب القرآن ،
مكملاً بل ومساعداً على استكمال العقيدة قولاً وفعلًا .

اهتم المؤرخون بكيفية نشأة تدوين الحديث ، ولم تأخر هذا التدوين ؟
والبعض يستشهد بالإشارة الصريحة لرسول الله « لا تكتبوا عنى ،
وحدثوا عنى ولا حرج » .

ويرى البعض أن عدم تدوين الحديث جاء لرفع الالتباس وعدم التداخل
فيما يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وما كتب عن الوحى . ولذا
كان على علوم الحديث أن تنطلق فى وقت لاحق القرن الثانى الهجرى .
ويحاول البعض أن يحدد ذلك فى عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المائة
الهجرى . حيث كتب إلى أبى بكر ابن حزم « انظر ما كان من حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم أو سننه فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب
العلماء » .

وأرخ أن أول من دونه ، هو ابن شهاب الزهري بأمر من عمر
ابن عبد العزيز . كانوا فى البداية يجمعون الأحاديث ، كل باب على حدة
وجاء جماعة من كبار المحدثين .. فدونوا الأحكام ، كابن جريج بمسكة
والأوزاعى بالشام والإمامان أبو خيفة والثورى بالكوفة ، وخصوصاً مالك
ابن أنس بالمدينة . يجمعون كل الأحاديث التى يرووها صحابى على حدة .
وأطلق على المسند ، سند أبو بكر ، سند عمر ، سند ابن العباس . ثم جاء
بعد ذلك الصحيحان : البخارى ومسلم وأيضاً أصحاب السنن : أبى داود ،
والترمذى ، وابن ماجه ، والنسائى . واستمرت قائمة المحدثين وعلماء
الحديث ، مما شكل ذخيرة كبرى يعتز بها كل مسلم . وكان معيارها دائماً
الغيرة الإيمانية على ما نطق به رسول الله ، وشعارها حب الرسول والتفانى
فى جمع أحاديثه .

وإلى جانب ما حمل تاريخ المؤرخين بخصوص التفسير والحديث وما
حولهما من تراث منجمى هائل ، يمكن أن يشبع كل باحث عن الأصالة
والعمق حمل إلينا أيضاً تاريخ المؤرخين ما قدم إلينا العقل العربى المسلم
المتطلع إلى الدراية والممارسة أو المتفتح على الآخر فى محاولة لمجادلته بقصر

تفهمه واستيعابه ، ثم تخريجه .. ووضعه في إطاره الموضوعي : فإن كان تعقل الدراية شق طريقه من بين المتكلمين عند أهل الرأي في الكوفة ، فقد تكثف عطاء العقل المتفتح في مدرسة البصرة وبغداد وخصوصاً حين التعامل مع الفكر الإغريقي ، في محاولة للتدافع الذهني بحثاً عن مزيد من الإشراف لا للإنسان ، ولكن لعقل الإنسان ، حتى لا يحدث التباس .

فالإيمان نور وهدى ، وليس في حاجة إلى القيل والقال ، وإنما هو تسليم وإسلام ، في كل الأبعاد والمناحي ، بينما العقل يتفاعل وليس بالضرورة أن ينطلق من إشراف نوراني لأنه قد ينطلق من العتمة بهدف تعرية التغميض . وهذا أيضاً عرفته الفلسفة الإسلامية ، وتيارات المسلمين ، يجمع بين نور الإسلام كركيزة ، والعقل كرهان ، ولاشك أن هذه المرحلة التي غطت مساحة لا يستهان بها من حيث الكيف ، وتشبعت بسواجات صارمة ، لا تفصل القول فيها ، لكن من يطالع حركة المعتزلة وإخوان الصفا ، ويساير قدرات الفكر المعقلن . من الفارابي ، والرازي ، وابن سينا ، والاحتكام الغزالي ، والأشاعرة من حوله ، والماتوريدية ثم رد الاعتبار للفلسفة بعد التهافت مع ابن رشد في المدرسة الأندلسية وما حول ذلك من أسماء لامعة علاقة في مشرق الأمة ومغربها ، وما أكثرها ، سوف يشعر بشاعر الافتخار والاعتزاز لرحلة الاعتزاز برحلة العقل العربي المسلم الذي استفاد وأفاد . فكر ، وتفكر ، أعطى وأخذ .

ولا ينسينا ونحن بصدد ما حملناه لنا تاريخ المؤرخين الحديث عن الفلاسفة والمتكلمين بصفة عامة ، وأن نشير أيضاً إلى منجم لا يقل ثروة وعطاء في ثروة المسلمين ، ونعني به منجم الأدب والأدباء ، بل ودعاة الفن والعمران ، وهذا يسقط دعوة القائلين بضحالة عطاء العقل العربي تحت تأثير عقد أفرزتها المعاناة المعاصرة . فمنجم الأدب (الأدب بأنواعه المختلفة واغن والعمران) فبالنسبة للأدب غنى عن التعريف أن نتحدث عن هذا الميدان الذي من حق تراث أمتنا أن يتميز به ويفخر . فإن كان العرب عرفوا مباراة الآداب مجسدة في أسواقها الأدبية الكبرى كسوق عكاظ . وأعطت لنا المعلقة وهي بدورها رمز لمدى اهتمام العرب بالإبداع والبيان وقدرة الكلمة وعطاءها . فعبر تراث المسلمين لم ينضب هذا المعين . بل اتسع وتعددت معانيه ثراً وشعراً .

وهكذا إلى جانب أبواب الأدب المتعارف عليها كان أدب المقامات على سبيل المثال ، وأدب الفرج بعد الشدة والقائسة طويلة . وأنشد العرب في تاريخهم الإسلامى كل بحور الشعر وتفننوا إبداعاً في مراميه . وشكلت هذه العطاءات ميداناً لتخصصات تهتم بجوانبه المختلفة .

كذلك اللغة بدورها كان الاهتمام بها صيانة للسان العربى ولغة القرآن فكانت الاجتهادات فى النحو والصرف والبلاغة والضروب الأخرى التى قدمت لنا عبر التاريخ لغة عملاقة لأدب عملاق . وما علينا إلا أن نتذكر أعلام نفخر بهم كمعالم فى الأدب ثرا وشعراً وفى اللغة وعلومها ، من الجاحظ بأدبه إلى فحول الشعراء جرير والفرزدق والأخطل والبحترى وبشار والمنتبى إلى الهمداني ومقاماته والتنوخى وفرج ، بعد الشدة ..

هذه مجرد نماذج نذكرها لضرب من الضروب على سبيل المثال لا الحصر إضافة إلى مدارس اللغويين بصريين وكوفيين ، والأصمعي ، والكسائي ، وآخرين وآخرين مما يؤكد لنا ، إلى أى حد تراث المسلمين جاء حافلاً فى كل مناحيه وحتى الفن وال عمران ما علينا إلا أن ننظر فيما حمل إلينا التاريخ من روائع فنية انطلافاً من فن الكتابة حتى فنون العمران ، والبناء عبر مدن أمتنا فى مشرقها ومغربها وأندلسها . تراث تبقى ماديا ومعنويا ، وفكريا . وصمد عبر كل ما واجهه من تدمير وتخريب ومصادرة وضياح ، أثر فى حضارة الآخرين بعد أن تعامل وتحاور ولم يتبن مبدأ الباب المغلوق . وإنما تراث متفتح يتمتع بتعدد فى الحيشات وتعدد فى الأهداف والغايات . وكلها تسعى للارتقاء بالإنسان صاحب الأمانة وصاحب الرسالة والذى فضل على المخلوقات جميعاً ، بل وكرم بما حمل من أمانة ومسئولية .

إذن ، تاريخ المؤرخين لتراث المسلمين حافل بالعطاء ، زاخر بما يكتشف فيه ، ويبحث عنه . وها نحن بعد أربعة عشر قرناً من المسيرة ننظر باعتزاز وإكبار لهذا التراث . ومن هذا المنطلق نحاور ، وتناور معه ، ومن أجله محاولين أن نوظف ما استجد من قدرات العلم والمنهج فى مزيد من الفهم لهذا التراث . بهدف مزيد من الإشراق له ، ومزيد من الإنارة لبطونه المتعددة .

وسنبداً في الحلقة التالية من حوارنا ، بالحوار معه على ضوء أرضية محددة وهي علمية التاريخ وفلسفته ، وما يمكن أن يستأنس من علوم الإنسان المعاصرة لتقنين هذا التراث تراث المسلمين بما يتماشى ومتطلبات العصر دون تفريط في خصائصه الموضوعية أو إفراط باتباع مسيرة الإنشاء والأهواء التي إن كانت ضخمت لنا كم التراث إلا أنها جعلتنا نبحت من خلال مواجهتها عن أبعاد كيفية ، وسننطلق بعلمية التاريخ وفلسفته لتوسيع إطار المناقشة عبر الحوار ، واستغلال باقي التخصصات في علوم الإنسان المعاصر لتفهم تراث المسلمين .



(٦)

قضايا تراث المسلمين

امام علمية التاريخ وفلسفته وسجلته

قد فرغنا في حلقتنا السابقة من قضية تراث المسلمين عبر تاريخ المؤرخين ، آن لنا ان نفتح الحوار في هذه الحلقة السادسة حول قضية بالغة الأهمية ، بل حاليا كثيرا ما تغطى على ساحة الفكر وتتحول الى الصدارة في المعيارية معها وبها او عليها لاستبعادها ، ونعنى بذلك قضية فلسفة التاريخ ، وبالضرورة علميته . .

فمن المعروف ان اتجاهات ايدولوجية سائدة في القرن العشرين ، حورت جدلها وجدالها المادى حول فلسفة التاريخ ، وارتكزت عليه لتعزى جدليا الآخرين ، وتطرح القضية مع ما اسمته بالايديولوجيات الاستلابية المجسدة للبنية الفوقية في المجتمعات البشرية .

فقد وظفت فلسفة التاريخ لدى هذا الاتجاه المادى لتصبح سلاحا رادعا لا نقول نوويا وانما فكريا من خلاله يطرح اهتزاز مضامين الآخرين وغيبة الحيشيات لما يدافعون عنه وعليه فيستحق هذا الموضوع الهام ان يعالج لا على مستوى المواجهة والتفنيد والعراك والانفعال ، وانما بنفس روح التروى والتفهم التى تعاملنا باسمها في الحلقات السابقة .

ماذا عن قضايا تراث المسلمين ايضا امام علمية التاريخ وفلسفة وسجلته ، اى بمعنى النظرة السوسيولوجية الى التاريخ فضلا عن النظرة العلمية والفلسفية ؟ .

بعد أن تحاورنا مع تاريخ المؤرخين لنرى من خلاله قضية تراث المسلمين وكيف أن هذا التاريخ ، إن كان قد حمل إلينا منجمًا من المعلومات . التى

تغطي مختلف ضروب النتاج الإسلامى ، أصولا وكلاماً ، وفلسفة ، فضلاً عن مناحى المعطيات الأدبية ، والفنية والعمرائية . قد يبنى تساؤل هام . وهو هل يمكن الاعتماد على هذه المعلومات وتقبلها بصفة نهائية ، على أن هكذا كان تراث المسلمين ؟ إن آن الأوان أن نخضع هذا المنجم للتنقية والغربة ، لنطرح قرراً واعياً يحصر ما افتعله ، أو اصطنعه المؤرخون لحاجة فى نفس يعقوب انتماء ، أو عصبية ، أو نغرة ، أو تذوقاً أو حبا فى التفصيل والمبالغة ، أم ثاراً وقصاصاً مما لا يميل إليه المؤرخ إلى غير ذلك من الحيثيات . أو على الأقل ، نجد من هذا الافتعال والتصنع ، لنقدم تراثاً للمسلمين يجسد ما أمكن واقع التاريخ لا فكر المؤرخين .

ووسائلنا فى الحصر أو الحد ، من افتعال المؤرخين ، هذا هو الاحتكام إلى علمية التاريخ أولاً ، ثم إلى فلسفة التاريخ وسلسلته .

مستويات ثلاثة من التصفية والغربة ، لا بد وأن تتدخل على التوالى برزاً وإصراراً . ولنبدأ بعلمية التاريخ .

ماذا نعنى بعلمية التاريخ أولاً ؟

إن كان المؤرخ يرتكز أساساً فى منهجه على الرصد والتسلسل والاسترسال للحوادث حتى ولو على حساب الإنشاء والخلق ، حينما يعجز عن ربط هذا التسلسل وهذا الاسترسال . وهو فى ذلك يفصل أو يختزل ، ولكن الذى يعنيه أساساً هو أن يظل التاريخ بلا ثقب أو فجوات .. فهو حين عرضه لسيرة إنسان أو لمسيرة حياة . أو عصر أمة ، أو فترة مدرسة أو مذهب أو اتجاه ، يتحرك انطلاقاً من الإجابة على تساؤلات الاسترسال تلقائياً ، كيف نشأ ؟ كيف تطور ؟ كيف آل ؟ فهو فى هذا حينما يفتقر الوقائع والأحداث لنشأة سيرة أو عصر ، أو فترة هو بصدد تاريخها ، قد يفتعل نشأة تقريبية على مستوى قيل أو يقال ، محاولاً تمريرها على أنها هكذا كانت . وهو أيضاً حينما يكون بصدد التطور حينما يجد فترة فى حياة من يؤرخ له ، أو عصر الأمة التى يؤرخ لها ، أو المدرسة ، قد يلتقى بما لديه من خلفية ليغضى بها هذا القصور فإن كانت السيرة محببة إليه . أو الأمة مكرمة له أو المدرسة يتعاطف معها ، أو العصر برمته كان بالنسبة له

رخاء وعطاء . فستكون فرصة ليلقى بميوله في هذه المرحلة القاصرة في المعلومات مادحا ومشيداً ، ومعرفا بالفضائل وبكل ما هو خير وبناء . دون أن يكون ذلك حدث فعلا . والعكس صحيح . حينما يشعر المؤرخ بالقهر وبخيبة الأمل من عصره أو الفترة التي يؤرخ لها ، سوف تكون فرصة بالنسبة له ليقنص متقيئاً لمعاناته على أنها هكذا كانت .

ومن ثم ، فكثيراً ما يستغل المؤرخون قصور الحدث أو الواقعة ، ليفتعل بديلاً يغطي به التسلسل حسب أهواءه ، وبالنسبة للمآل . إن كان هناك مآل محدد بواقعة أو حدث . يقدمه مفصلاً أو مختزلاً حسب أهواءه . مبالغاً أو متواضعاً مغالياً أو بخيلاً ، بقدر ما يشعر من مدى علاقته بهذا المآل ، قرباً أو بعداً ، كراهية أو تعاطفاً . ومن ثم لاحظنا فيما يعنى نهاية حياة رجالات الأمة الإسلامية أو نهاية عصور محددة بسقوط دولتها أن المؤرخ كثيراً ما يقوم بعملية تمازج بين ما ينتظره هو من هذه النهاية ، لا كما حدثت فعلا . فهي نهاية رهيبة يقدمها في صورة تدعو إلى تعبئة الوجدان إن كانت له ، وهي نهاية منتظرة حينما كان هو يتمنى انتظارها .

فضلا عن أنه حينما المآل أو النهاية لا تجسد في واقعة أو حدث معين ، فتكون فرصة للمؤرخ ليصور لنا النهاية التي يبتغيها معتمداً على قیل ويقال . متشفيًا ، أو متألماً حسب الأهواء . ويمكننا أن نستأنس هذا التصور فيما يعنى موقف المؤرخ من مدرسة ، أو فكر ، أو مذهب ، أو اتجاه معين ، فهو بلا شك لا يمكن أن يعزل ميوله من سرده لتاريخ هذه الأفكار متحمساً لها أو متكرراً ، محملاً التاريخ صورة تنكره أو تحمسه على أنها هي الصورة التي عشت في حينها .

أمام تاريخ المؤرخين وما يرتكز عليه من منهج لخصناه فيما أشرنا إليه سلفاً وأمام استحالة بعث الواقع التاريخي ليغشيه من جديد . لم يبق لنا إلا أن نستغل الإمكانيات المنهجية التي يتمتع بها علم التاريخ وفلسفة التاريخ وسوسيولوجية التاريخ ، لنعيد النظر لا في كتابة التاريخ ، ولكن في مقارنة كتابة التاريخ كحكم مع كتابة التاريخ كعمل .

على أن الفعل التاريخي ، وهو المجسد للوقائع والأحداث بمعنى مادية

التاريخ ، يمكنه بفضل وسائل محددة من الاقتراب والبحث ، عبر منهج علم التاريخ أن يحصر أو يحد من أهواء المؤرخين ما أمكن .

ولكن ماذا نعني ، وباختصار ، بهذه العلمية التاريخية في منهجيتها ووسائلها ؟ إن كان منهج المؤرخ هو رصد وتسلسل واسترسال عبر النشأة والتطور والمآل ، ولو بالانتحاء إلى الافتعال لتغطية ثقب التسلسل وقطعة الاسترسال ، فمنهم عالم التاريخ لا يتبنى الاسترسال والتسلسل وإنما ثبات التاريخ وصحته .

فإن كان منهج المؤرخ يتبنى التسلسل (Enchainement) فمنهج عالم التاريخ يتبنى (Antenticité) صحة التاريخ ، وهو في هذا يركز على حيثيات محددة علم التاريخ لا يتحرك في غيبة التاريخ وإنما في حضوره . فلا بد من تاريخ حتى يتعلمن .

هذا التاريخ يميز فيه عالم بين تاريخ الأفكار وتاريخ الأفعال . وحتى يجد أرضية لتاريخ الأفعال ، فهو يلجأ إلى الحدث أو الواقعة المحدودة والمحددة (La Petite Histoire) بينما المؤرخ ييلور (La Grande Histoire) التاريخ المتسلسل .

كذلك يحاول الاحتكام إلى العوامل المهيأة للواقع . أو الحدث التاريخي ، سياسية كانت أو اقتصادية أو دينية أو تربوية أو نفسية أو بيئية ويرتكز في تعامله على الاستنتاج والاستجواب ، محاولاً بناء تاريخ مواز للفعل ، إلى جانب تاريخ المؤرخ أي الفكر . ليكتشف إلى أي حد تداخل المؤرخ مع ما أرخ له .

إن تاريخ تراث المسلمين مشيداً وفي أكمل وأبهى صورة كما قدمه المؤرخون . فتاريخ تراث المسلمين كبناء متكامل لوقائع وأحداث ، استنظقت ووضعت في إطار بعيد عن كل مجازفة أو اتماء ، وبصبر ورزاق حتى يومنا هذا مازالت القضية قضية علمية التاريخ مطروحة .

ولكن علينا أن نتحاشى المجازفة وإلا وقعنا فيما حاولنا لتنبه إلى عدم الوقوع فيه .

إن علمية التاريخ تتطلب تعبئة لجهود متعددة ، كما تتطلب صبراً وعزماً وإصراراً ، فهي عملية مرحلية تحتاج إلى سنوات طوال فضلاً عن احتياجها إلى استغلال كل ما يتوفر لدينا من معلومات عن تاريخ تراثنا مهما صغرت أو همشت . وأساساً تجزأ مراحل تاريخ تراث المسلمين إلى فترات محدودة ومحددة في البداية كل فترة تشيد على حدة . بفضل ما أشرنا إليه من وسائل ومنهج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ليكون المنطلق بعد إكمال الرسالة المحمدية وانتهاء فترة النبوة . لأننا قد حددنا من قبل أن التعامل مع أصول الإسلام قرآناً وسنة ، لها خصائص وخصوصيات ، لا بد وأن توضع في الحسبان . وميزنا بين الإسلام ، وتراث المسلمين ، فقضية علمية التاريخ تطرح منذ اللحظة الأولى لتراث المسلمين ، ولتلك حادثة السقيفة وقرار ثتوية جسد الرسول الطاهر التراب . فهذه واقعة محددة علينا أن نبنيها عبر علمية التاريخ لا الاكتفاء بسرد المؤرخين . ولا شك أن البناء الذي سيشيده علم التاريخ عبر فعله سوف يضيف إشراقة لتاريخنا . باعتبار أن تجلّى واقع هذه الأحداث ، هو من صالح الأمة ولا ضرر فيه ولا ضرار . ثم يستمر التشييد والبناء للعقل التاريخي ، لكل فترة على حدة . مثال : حروب الردة ، ما يزعم أنه الفتنة الكبرى كما قدمتها أهواء المؤرخين ، ثم يستمر موكب ثبات التاريخ وصحته ، ولو أدى لأن يشارك في تأسيسه . وتشبيده أجيال ، وليس جيلنا فقط . فلو استطاع جيلنا بعد تكاثف الجهود وتكامل النيات الحسنة ، وتعبئة الإمكانيات المادية ، وتجنبه العقول القادرة ، أن يعلمن لنا عصر الراشدين في عدة مجلدات لكفاه ذلك فخراً . بدلا مما تفص به مكثباتنا العريية ، والمكثبات العالمية بعد أن أفرز المستشرقون فيها ما أفرزوا من قطع مبتورة ، وأهواء معللة ، وخلفيات اكتسبت طابع المشروعية ، أمام غيبة الثبات والصحة للتاريخ ، إذ لا يمكن أن تبنى إلا بأيدي أبناءها . وقناعتهم أساساً بضرورة هذا البناء .

وسنكتفى بإعطاء نماذج وأمثلة ، لما يمكن أن يسهم في بناء الفعل التاريخي ، من هذا المنجم الضخم الذي تركه لنا تاريخ المؤرخين ، فيمكن أن نستغل وأن نوظف نتاج تاريخي هو أساساً يعطى واقعا أو حدثا ، مثل كتب الخراج ، النوازل ، الحسبة ، الخطط ، إلى جانب ما يمكن أن نستخلصه

بدقة وحذر من كتب الطبقات والرحلات . وأيضاً كتب الأدب شعراً ونثراً . ولكن لا نقف طويلاً عند الدياجات ، وما له طبيعة الإنشاء والتضحييم وإنما نتصيد الواقعة أو الحدث في أدق حجم لها . وهذا يتطلب بالضرورة ممارسة قادرة على مستوى الباحثين ، ومن يتصدون لهذا العمل الهام ، بالنسبة لقضية تراث المسلمين ، على ضوء علمية التاريخ .

ومن باب الممارسة سنحاول إعطاء نموذج نوظف من خلاله . وفي شكل مبدئى ، إمكانات علمية التاريخ وكيف تمارس عملياً . ولتلك الفتنة الكبرى كمجرد مثال .

من المعروف أن الفتنة الكبرى ، وما صاحبها من مخاضات بدورها كبرى شغلت حيزاً كبيراً ، من تاريخ المؤرخين ، إن كانت الفتنة كحدث اتفق على المكان والزمان ، ولكن تباينت تيارات المؤرخين في تقديم محتواها بقدر تباين انتماءاتهم وخلفياتهم . فالفتنة الكبرى كما قدمها المؤرخون ممن عرفوا بنعاطفهم ، أو تشيعهم لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا مع المؤرخين ممن ظلوا ملتزمين بنعرات الجاهلية ، والتعصب لها . هذا فضلاً عن أربخوا تحت شعار الإدانة للجميع كالخوارج وغيرهم .

ومن ثم يمكن لقارئ الفتنة الكبرى بعد قرون أن يراها بصيغة الجمع لا المفرد ، فتن كبرى . فلكل فتنة حسب ما يراها ، وحسب ما يعطى من حيثيات لجذورها ، أو تطورها أو مآلها .

وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ، وهو أن الفتنة الكبرى تعامل معها جانب من المؤرخين ، ولم يستهدفوا تعاطفاً أو تشييعاً أو تعصباً لهذا أو ذاك ، أو تمرداً على هذا أو ذاك . وإنما كانت بالنسبة لهم هذه الأزمة فرصة ، ليهولوا ويفرزوا ما فى أكبادهم من حقد على الإسلام ، ولكن ودائماً تحت رايته . وهم بذلك يقدمون لنا صفوة أصحاب رسول الله عليه السلام وهم يتقاتلون ، ويتناحرون ليقولوا لنا هذا هو الإسلام ، وبالتالي يمكن إعطاء التبرير والحيثيات لكل من يريد أن يمارس الفتنة بعد ذلك باعتبار أن حتى أصحاب رسول الله قد فتنوا وتجاربوا ، وهكذا تصبح الدماء جراً من الانتماء الإسلامى ومسيرة أمته . أمام هذا التباين والتعدد ، هل من الأولى أن

نقارن بين مختلف المؤرخين ، فى محاولة للوصول إلى صورة ما أمكن تتمشى
وما حدث عبر هذه الفتنة . بمعنى الاحتكام يكون من المؤرخين وإلى
المؤرخين ؟ .

بلا شك ، هذه الممارسة قد تمت فعلا ، عبر أجيال من المؤرخين بعد
عصر الفتنة ، وتحاول حالياً بعض المدارس التاريخية فى أمتنا الإسلامية أن
تعيد النظر مرة أخرى ، ودائماً من المؤرخين وإلى المؤرخين .

فكر تاريخى يواجه بفكر تاريخى ، فى محاولة لتقديم فكر تاريخى
ثالث ، ليتمكن استساغته ما أمكن .

لهذا علمية التاريخ تتجاوز مواجهات فكرية التاريخ ، لكى تطرح نوعاً
آخر من المواجهة ، وهو مواجهة الفكر التاريخى بالفعل التاريخى ، أى
مواجهة التاريخ العام كما صاغه المؤرخون ، أى تاريخ المؤرخين ، ببناء فعل
تاريخى يتشكل من تأريخ الحدث والواقعة المحدودة . وهذا يتطلب استغلال
كل المصادر ، التى لها علاقة بالفترة التاريخية التى يؤرخ لها . بعبارة
مختصرة مواجهة التاريخ الكبير (La Grande Histoire) ، وهو تاريخ فكر
المؤرخين بالتاريخ الصغير (La Petite Histoire) . حدث أو واقعة مثال :
فلان ولد ، فلان قتل ، فلان حداد ، فلان خرج من المدينة ، عاد إليها ،
فلان كان يتردد على فلان ويلتقى به .. الخ . حينما نطبق هذا المنهج فيما
عرف بالفتنة الكبرى سوف نتعامل مباشرة مع الحدث الصغير ، والواقعة
المحدودة لبنى فترة الفتنة الكبرى . بعيدة عن أهواء المؤرخين ، وهذا
يتطلب ارتباطاً أدق بالواقع . فالفتنة من أين انطلقت ؟ وهنا تدرس المنطقة
التي انطلقت منها اقتصادياً ، وسياسياً ، وديمغرافياً وحتى اثروبولوجياً
على مستوى السلالات السائدة ، إلى جانب ما درسه المؤرخون ، بمعنى
الانتماء الدينى ، وهنا ستتسع مناقشة الحدث وسرى أن الفتنة الكبرى
سوف تلزمن أن نصل بجذورها إلى السقيفة ، وإلى واقعة السقيفة ، كما
تلزمن بالمرور على من استبعدوا من المدينة فى عصر الرسول صلى الله عليه
وسلم ، أصحاب القوائم المبعدين . ثم عادوا ليتصدروا عهد عثمان رضى الله
عنه .

ثم تلزمتنا أيضاً بدراسة موضوعية مدققة لحياة المواجهين ولماذا واجهوا ؟ وكيف كانت علاقاتهم قبل الإسلام فيما بينهم ؟ ثم تنطلق تساؤلات باسم الفعل التاريخي وماديته لتصل بنا بلا شك فيما بعد إلى التمييز بين فئتين في هذه الفتنة الكبرى . فئة واجهت باسم الالتزام الإسلامى أولاً وأخيراً ، حيث لا مجاملة أياً كانت الصلة على حساب المبادئ « ولذا قلتهم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله اوفوا » (١) . . . فهى فئة عاهدت الله ، وأوفت بعهداها ، مهما كان الثمن . خصوصاً بعد أن رفع الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى . وأصبح كل راع ومسئول عن رعيته .

ومن ثم هذه فئة الأصفياء من الصحابة ممن هانت عليهم النفس والنفيس .. وطلبوا الاستشهاد وفاء بعهد الله مهما كانت صلة العلاقة أو القرابة ، ومنهم من استشهد فعلاً في سبيل ذلك . هذه يمكن أن نسميها فئة المواجهين انزهاء الملتزمين بعهد الله . وفئة أخرى ، إن كان ليس من حقنا ، ولا من حق أى مسلم أن يتساءل حول مصداقية إسلامها مادامت قد نطقت به ، ولكن هل فعلاً الإسلام ، وقف حيث النطق باللسان ، أم أنه وصل إلى القلب ، وثبت فيه وصدقه العمل ؟

من الصعب الإجابة بصفة عتوية وفورية . ولكن آن الأوان وباسم علمية التاريخ التى تبرز الاشراق الإسلامى ، لا تعتمه أن نعيد النظر فى هذه الأزمة الكبرى ، لا بوجهة نظر تضاف إلى وجهات النظر ، وإنما بناء للفعل التاريخى ، يسد الطريق أمام تيار تزوق المؤرخين وتنوع أهواءهم ، ويجعل الأجيال المسلمة ، وبعد أربعة عشر قرناً ، فخورة بالمواجهات الكبرى القدوة . وفاء بعهد الله ، لا الفتنة الكبرى كما أشعلها عشاق الفتن ، وذكاها مؤرخو الفتن ، وعمل على إعادتها فى هذا العصر سماسرة حدثنة المتن وعصرنتها . وهذا ما يجعلنا ومن خلال هذا النموذج نبرز مدى أهمية تدخل علمية التاريخ لكى تعطى لكل ذى حق حقه دون تفريط أو إفراط ، أو ضرر أو إضرار .

وما أخذناه كنموذج بالنسبة للفتنة الكبرى يمكن أن يطبق بالنسبة للمسارات الأخرى في تاريخ أمتنا ، من حروب الردة حتى يومنا هذا .

وماذا عن فلسفة التاريخ وكيف يمكن أن نوظفها بالنسبة لتاريخ أمتنا كفضايا تراث المسلمين ؟ . ولكن قبل أن نقوم باستئناسها وتوظيفها ، سنحاول إعطاء فكرة مختصرة ما أمكن عن فلسفة التاريخ ، وكيف تتصورها ، بالنسبة لما يعيننا لا بالنسبة لتصور الآخرين وتوظيفهم لها لأهداف وحاجيات خاصة بهم . إذ من الخطأ أن يستبعد الاحتكام للفعل التاريخي والعوامل المتعددة المؤثرة في بلورته وماديته . على أن ذلك من صنع الماديين الملحدّين الجدليين ، وأيضاً فلسفة التاريخ لماذا ؟ لأنها بدورها استغلت من الجدليين الماديين . ومن ثم تستبعد وهذا مالا نذهب إليه .

لأن هذا التباس يزكى احتكار المعرفة لفئة ما . فالمعرفة ملك للجميع ، وكما أن علمية التاريخ يستأنسها المفكر المادى يمكن للمفكر المسلم أن يستأنسها . وفلسفة التاريخ كما أن المادى يوظفها ، فلم لا نقوم بتوظيفها خصوصاً وقد تأكدت صلاحيتها وما تتمتع به من فاعلية في العطاء والنضوج العلمى ؟ بل استطاع من لا أرضية له أن يضارب على قدرتها ليفطى بها قصور أرضيته ، واتخذ منها درعاً يقى به ما يعانى من ضعف ووهن ويتقى به ما يوجه إليه من قدرات تكشف عورته ، وتعزى مقاصده .

ونعود إلى فلسفة التاريخ ، وماذا نضى بها باختصار ؟ .

إن التساؤل الأول الذى يطرح نفسه هو : هل لدينا مادة تجسدها الوقائع والأحداث في تاريخ أمتنا ، كقيلة بتغطية شروح فلسفة التاريخ ، واشعاع أبعادها ؟ وهذا بدوره يجبرنا إلى تساؤل مترتب بالضرورة والالتزام . وهو : إلى أى حد يمكن استغلال هذه المادة ؟ وهى موجودة فعلا . فقد أثرى المؤرخون تاريخنا بما قدموا . من نتاج متعدد ومتنوع . مما يمكننا من التعامل مع هذا التاريخ تعاملًا تحليليًا ، لا يمكن بحال أن يتنكر لأصالة هذه الأمة وعطاء قيمها ، وإنما العكس يبرز هذه الأصالة ويعطى حيثيات موضوعية العبور التاريخي ، وقد عرف الاستقرار في بعض مراحلها كما عرف الأزمات والمخاضات .

من البداية نحدد أن فلسفة التاريخ التي تعيننا سوف ركز في وظيفتها على ما هو جدير بالتعليل باعتبارها تخصصا يعلل التاريخ بعد غربلته وتنقيته مما علق به من أهواء ، وتزوفات واتتمادات في حدود الإمكانيات المتاحة به في الشرح . التعليل للتاريخ سينصب على أزماته ومخاضاته بمعنى المنعرجات الكبرى التي مرت بها هذه الأمة تاريخيا ، من قيام أمم وسقوط أخرى . وتداول للعصور أموية كانت ، أم عباسية ، أم عثمانية ، أندلسية مغربية إلى غير ذلك من الأحداث الكبرى التي تجسد تراث الأمة كما وصل إلينا .

الثابت من التاريخ بمعنى ما استعاع علم التاريخ أن يحتفظ به من تاريخ المؤرخين ويعطى حيثيات لصحته . فلسفة التاريخ موظف لا انطلاقا من فكر المؤرخ ، وإنما احتكاما إلى الوقائع والأحداث . وما أملتته العوامل الأخرى أساسا . والسياسية والديموقراطية ، فضلا عن العوامل النفسية والتربوية والدينية بصفة عامة .

فلسفة التاريخ باختصار ، هي تحليل للتاريخ ارتكازاً على وقائعه وأحداثه ، بمعنى مادية التاريخ المجسدة في الفعل التاريخي لا الفكر التاريخي ، وتهدف حينما تواجه هذا الفكر التاريخي بالفعل أن تعلق لماذا المنعرج أى لماذا الأزمة ؟ لا ، لماذا الاستقرار ؟

فلسفة التاريخ هي في الواقع فلسفة أزمات التاريخ ومنعرجاته الكبرى ، فهي حينما تقول لماذا ؟ لابد من حدث يستحق التساؤل وإلا « فلماذا » لا أساس لها . لماذا قيام هذه الأمة في زمن ما ؟ ومكان ما ؟ ، ولماذا سقوط الأخرى ؟ . وحينما تستنتق باسم الباحث عن العلة أو السبب لا تستنتق المؤرخ ، وإنما تستنتق البنية الاقتصادية والسياسية والديموقراطية بما في ذلك نمط الإنتاج السائد وعلاقاته . ثم التناقضات التي سادت هذه البنيات . وما تحكم فيها من خلفيات آلت بها إلى السقوط أو إلى التجاوز والإشعاع . وعليه ، لفلسفة التاريخ حينما نحاول موضوعيا أن نوظفها سنجد أرضية عريضة ومتعددة تتعامل معها انطلاقا من لماذا لأولى ! لماذا السقيفة ؟ ولماذا الردة ؟ ولماذا المواجهات الكبرى التي تزيت بأمتنة الكبرى ؟ ولماذا الأموية والعودة

المقنعة إلى النعرة والعصية وما ترتب عليها من تناقضات شعوية ؟ ولماذا العباسية (نسبة لعباس) ولم تكن علوية (نسبة لعلی) ؟ .

ثم تستمر تساؤلات حقبة التاريخ حقبة تلو حقبة ، محاولة تحليل قيام الحركات التي شغلت حيزاً من تاريخنا قرامطة وديلماً وزنج ، إلى غير ذلك من الحركات ، بل لماذا العثمانية ؟ ولماذا الأندلسية ؟ ولماذا الطائفية المنهارة ؟ فهي في الواقع القادرة على أن تلقى بالأضواء الموضوعية على مخاضات ومنعرجات يقف الإنسان العربي المسلم أمامها الآن ، وهو في حيرة بين « لو أن » ، وبين هكذا كان الضياع .

لهذا آن الأوان أن تستغل قدرة فلسفة التاريخ في حد ذاتها دون أن تقع في ثوب ماركسي يعبأ كل التعاليل لافتراضات حتمية في النهاية قد لا تكون لها علاقة مباشرة مع منطق الأحداث وما أملاه الواقع .

وعليه ، فنعم لفلسفة التاريخ شريطة أن تكون فلسفة تاريخ أمتنا لا صورة ، نسخة ممسوخة لفلسفة تاريخ أمم أخرى انطلاقا من مسلسل التقليد والمحاكاة .

وسيمتقينا بعد ذلك حتى تكمل الرؤيا المتعددة والإمكانات المتنوعة لدراسة تراث المسلمين كتاريخ أن نحاول الاستعانة بتخصص لا يمكن إغفاله في هذه الحلقة . ونعني به سوسيولوجية التاريخ ، وكيف توظف لما فيه مزيداً من التعرف والتعريف بقضايا تراثنا الخالد . وبهذا التوظيف هذه الحلقة قبل الانتقال إلى الحلقة التالية .

فماذا نعني أولاً بسوسيولوجية التاريخ ؟ وكيف يمكن استئناسها وتوظيفها في تراث المسلمين ؟ .

سوسيولوجية التاريخ هي تخصص من التخصصات التي تحاول أن تعيد النظر في المعلومات التاريخية على ضوء منهج محدد وهو المنهج الذي يستعين بأرضية سوسيولوجية في التنظير . ولنوضح القول : من المعروف أن السوسيولوجيات التخصصية ذات الطابع المبداني ، أي التي تدرس ظواهر ملموسة في الواقع ومعاشه لها وسائل وطرق بحث محددة فيما يعنى

مرحلة التوثيق أو التعامل مع الظاهرة في عين المكان . مع أن الملاحظات المباشرة والمشاركة . ثم لها شروح وإمكانات تفسير تركز على مرجعية قد تكون بنيوية توظيفية حيث تعطى أهمية لشبكة العلاقات والفعل وردود الفعل . أو مرجعية جدلية مادية ، كالشروح الماركسية حيث تعطى أولوية لمادية التاريخ وحتميته وأنماط الإنتاج وعلاقاته وقواه بهدف إبراز الصراع الطبقي ومآليته كذلك اتركيز على أولوية العامل الاقتصادي . أو بمرجعية أمبريقية بمعنى جدلية وقعية حيث تعطى أولوية في الشروح للوسط كما هو وعلى ضوء ما يمليه يكون التعامل مع التناقضات دون مبيات مسبقة هذه التيارات الثلاثة من الشروح السوسولوجية توظف أساساً في الفروع التخصصية التي تتعامل مع الظواهر الملموسة .

فهل يمكن توظيف هذه الشروح أيضاً ، بالنسبة لظواهر عيشت وامتت كالظواهر التاريخية ؟ وإلى أى حد يمكن لهذه الشروح أن تتمتع بالمصداقية فضلاً عن الصلاحية ؟ .

فيما يعنى الجدلية أن التيار الماركسي ، سوسولوجية التاريخ أساساً تشكل مناخاً ملائماً لإبراز حيثيات مادية التاريخ وحتمية الصراع الطبقي ولكن تظل نتائج هذه الشروح محدودة الأبعاد . وذلك غيبة عنصر المشاهدة والمشاركة . فهذا التاريخ الذي تسلسله النظرية الماركسية هو في الواقع تاريخ متصور على ضوء إمكانات القرن التاسع عشر الميلادي ومعطياته . فال بشرية برمتها كتاريخ احتكم في تقنينها لقرن محدد ، بل ولم يكتفى بتقنينها تاريخياً بل قنن مستقبلها أيضاً من خلال عصر ماركس . لذا فنسبية التوثيق التاريخي خصوصاً حينما نضع في حسابنا ما صودر وما ضاع ، وما حرف ، وما خضع للأهواء سيصبح حجم وكم التاريخ المتمتع بالمصداقية محدوداً للغاية فيما يعنى المقارنة بما حدث فعلاً فما لدين من وقائع وأحداث تتصيدا هنا وهناك ، هي في الواقع مؤشرات لمعالم التاريخ وليست كل التاريخ .

ولكن ، هل معنى هذا أننا نقف وقفة المشلول غير القادر على الحركة أمام قصور المعلومات التاريخية ، أم نحاول أن نتفهم هذا القصور ونطرح

لسلسلته لا مجرد مبيئات متصورة ولا مضاربات على شبكة علاقات وأفعال بدورها لا تتمتع بالمصادقية الكاملة والوفية لما وقع ، وإنما نستنتق ونستجوب الواقع التاريخي بعد أن حاورناه باسم علمية التاريخ لتحديد مدى صحته وثباته . نستنتق ونستجوب مرة أخرى ما تم ثباته ، وتأكدت صحته بهدف طقسنته ونعنى بذلك ربط الثابت من الأحداث والوقائع ببيئات المجتمع أسرية أو جماعية أو مجتعية ، ونحرك العوامل الرئيسية المؤثرة ، اقتصادية وسياسية وتربوية دينية ونفسية وديموغرافية لتحديد من تحكم آحادى قد يطرح . وهذا هو دور سوسيولوجية التاريخ ، كجدلية امبريقية ، ونعنى بالتحكم الآحادى تحكم عالم التاريخ ، أو تحكم فيلسوف التاريخ ، فضلا عن الانتفاخ أو الضمور ، أو الافتعال أو التدوق إلى غير ذلك مما يمليه المؤرخ حين سرده لتسلسل التاريخ كما أشرنا من قبل .

فسوسيولوجية التاريخ من هذه الناحية ، وفي تصورنا المتواضع هي بمثابة حصار تكميلي يخفف من حدة أدلجة التاريخ أو انتفاخه أو تعويمه ، ولم لا أيضاً ضموره وقحطه ؟ لهذا كان ميلنا إلى توظيف مضمون طقسنته التاريخ وقابليته للتنفس دون استرخاء أو افعال .

أما كيف نوظف هذه السوسيولوجية التاريخية ومن هذا المنظور . بالنسبة لتراث المسلمين ، فهي تأتي في توظيفها بالمقام الثالث بعد علمية التاريخ وفلسفة التاريخ . كمثال : إن كان علم التاريخ يحاول أن يواجه فكر التاريخ بالفعل التاريخي وقائع وأحداث كما أشرنا بهدف التحقق مما هو صحيح وثابت في التاريخ ، وإن كانت فلسفة التاريخ تتحرك لتعليل الأزمات والمنعرجات الكبرى والمنحدرات في تاريخ الأمة . فسوسيولوجية تتسيز بنمذجتها لفترات تاريخية محددة ، لها طابع الأهمية ، بل والموقع المصيري للأمة في محاولة تفهيمية ، تهدف أساساً إلى التعرف على مدى ارتباط الوقائع والأحداث ببيئات المجتمع وتراثه كمؤثر ومتأثر . مثلاً : عصور الإشراف في الفترة الأموية أو العباسية بعد عصر القدرة في فترة النبوة والراشدين كذلك عصور الاضمحلال والأزمات : نهاية العباسية ، نهاية الأندلسية ، الأزمة المعاصرة يمكن لسوسيولوجية التاريخ أن تطرح

شرحاً يستفيد من أرضية عالم التاريخ وفيلسوف التاريخ لتعطى لنا نتائج مقبولة ما أمكن فيما يعنى اثر البنيات الاجتماعية كأسر وجماعات فى دفع المجتمع العام كذلك أثر التراث فى كل أبعاده ، فى هذه البنيات ، وتأثيرها بها وتأثيره فيها ليملى صيرورة متطلعة أو صيرورة متراجعة . لتساؤلات يمكن أن يطرحها المسالج للتاريخ ، مناخ الحرية الذى مورس فى عصر الراشدين ، كما مورس فى فترات الحكم الأموى والعباسى . ومورس فى الأندلس ، انعكس على البنيات الاجتماعية وأثر فيها ، كما أن البنيات أثرت فيه وانعكست عليه . فكان المد والدفع والإشراق . كذلك مناخ التحكم والشخصانية والبعد الواحد ، إلى أى حد انعكس على البنيات الاجتماعية وأثر فيها . كما أنها انعكست عليه فى دورة لاحقة وأثرت فيه . فلم يعد الفهر والاختناق يرى فقط على مستوى شمول الأمة وإنسا على مستوى الأسرة وعبر الجماعات إذ أصبح لكل حقيقته ، منه وإليه ، بلاشك ممارسة سرسيولوجية التاريخ دون ميئات ولا خلفيات سوف يعطى لنا مزيداً من الفهم والتفهم لتراثنا وأن حركة الأمة ليست أحادية وإنما متكاملة وما فيها من أليات من الأولى أن يطرح بفضل شروح شمولية كفيه بأن تعطى لنا صورة واضحة ما أمكن عن تراثنا لا كقوالب ومعالج وعناوين وإنسا مضامين عيشت على مستوى الإنسان والأسرة والجماعة والأمة صيرورت وانصهرت إيجابيا أو سلبيا .

وعليه فسوسيولوجية التاريخ ، بما تمليه من طقسنة للتراث بدورها يمكن أن تضيف حلقة لا تقل أهمية عن حلقات علم التاريخ وفلسفة التاريخ .. ويمكن أن تسهم وتمهد لتوظيف واستئناس آخر فيما يعنى التخصصات المستجدة فى علوم الإنسان الحديث والمعاصر كالانثروبولوجيا والاقتصاد والسيكولوجيا ، والسياسة ، فضلا عن علوم بنية أخرى يمكن توظيفها كالديموغرافيا والجغرافيا واللسانيات إلى غير ذلك مما تغص به ساحة الفكر المعاصر .

وهذا سيكون موضوع الحلقة التالية من حوارنا .



(٧)

قضايا تراث المسلمين وعلم الانسان المستحدثة

وقد أنهينا ما طرحناه من حوار في دار التاريخ ، جاء دور المستجد في علوم الانسان وما أكثر ما استجد في القرن التاسع عشر ، وفي القرن العشرين ، فلم يعد هذا الآن كما كان ليصرف ذاته وانما قرر وباسم العقل المتورد والوعى الشففى بعد ان اكتشف بعض خبايا الظواهر الطبيعية ، نفتحت شهية ليكشف خبايا الربع الآخر من المجهول وهو الانسان وان لم يكن كله فعلى الأقل بعضه ، ومن ثم كانت التخصصات الانثروبولوجية والتخصصات السيكلولوجية والسوسيولوجية فضلا عما حولها من العلوم الاجتماعية المحدثنة كالديمقراطية والاقتصاد ، والقائمة طويلة وسنكتفى على الأقل كمثال بالتخصصات التى تعالج عميق الانسان ، وهى الآن وباسمها تتحدى فئة من الرضعيين الماديين ، اتخذت من الدين موضعا للتعريف والالفاء ، ولا يمكن أن نتجاهل هذه القضية في حوارنا ونعنى بها :

ماذا عن قضايا تراث المسلمين وعلوم الانسان المستحدثة ، وهل يمكن للمسلم أن يتعامل مع هذه العلوم المستجدة ليحصل منها سلاحا يضاف الى اسلحته ودروعه لا سلاحا يضاف الى اسلحة ودروع محاربيه ؟ .

وينطلق بنا الحوار حول تراث قضايا المسلمين ، لتعامل مع ما استجد من تخصصات مستحدثة في علوم الإنسان . فإن كنا أفردنا الحلقة الماضية لقضايا تراث المسلمين أمام علمية التاريخ وفلسفته وسجلته نحاول الآن أن نستكمل هذه المسيرة لنرى إلى أى حد يمكن استئناس وتوظيف التخصصات المستجدة هذه في علوم الإنسان ؟ ، بالنسبة لتراثنا ، وهل يمكنه أن يقيم

مادة وتناجا يستطيع بفضلها الباحث الاثروبولوجى العربى الإسلامى المتخصص ، وكذا السوسولوجى والسياسى والاقتصادى ، كل فى إطاره ليتحاور بهدف محدد وهو : طرح تساؤلات موضوعية بغية المزيد من الاستنارة والتعرف على ما فى منجم تراثنا من عطاء . فضلا عن مدى الاستفادة من هذا التراث العملاق فى تخصصات بينية أخرى حول علوم الإنسان المعاصر . ومستجداته كالديموغرافيا ، والجغرافيا ، واللسانيات إلى غير ذلك مما تزخر به ساحة الفكر العلمى حالياً .

فيما يعنى الجغرافيا والديموغرافيا والاقتصاد لا جدال أن ما لدينا من كتب حملت إلينا التراث فى إطار الرحلات والتعرف على الشعوب ما يشكل مادة خصبة للتعرف على جذور الظواهر الديموغرافية المعاصرة ، السكان وتقلاتهم ، وترحلهم . وهجرتهم إلى جانب أصولهم ، واثماتهم ، وكل ما يمكن أن يفيد أرضية الدراسات الديموغرافية . كذلك الجغرافيا لا يمكن لأحد أن ينكر أو يتنكر لإسهامات الجغرافيين العرب وأصحاب المسالك والممالك ، الإدريسي وغيره ، بل وخرائطهم وأوصافهم الدقيقة للساح والتضاريس وطبيعة الأرض التى عبروها فى ترحالهم ، وكشفهم واكتشافهم . بل لا نغالى إذا أكدنا ما ذهب إليه البعض من تصدر دور لجغرافيين العرب ليس فقط فيما يعنى المجتمعات العربية الإسلامية فقط ، بل وحتى مجتمعات الآخرين ، مجرد مثال ابن فضلان وما قدمه لنا من معلومات عن المناطق التى ذهب إليها فى أوروبا وروسيا بصفة خاصة . وحتى ما ورد عن بلاد الشمال ، وكذا الغزال الأندلسى ، وغيرهما الكثير . فتراثنا غنى بعطاءه الجغرافى . وكفيل بأن يوظف إذا ما حسن استئناسه لما فيه مزيد من إشراق عطائه وإبراز معطياته . وحتى الاقتصاد بدوره يمكن أن يوظف كعلم مستغلا لعطاء تراث أمتنا ، لا لكى نعيد ما عيش ولكن لنستنير بجذور وأصول واقعنا الاقتصادى بما فى ذلك نظام الجباية والخراج ، وبيت المال . ولكن يظل التساؤل المطروح : هل من الأولى أن تستغل هذه المعطيات لتشكيل تخصصا حديثا قائماً بذاته ينعت بالعربية الإسلامية كالديموغرافيا الإسلامية ، والجغرافيا العربية الإسلامية ، علم الاقتصاد الإسلامى العربى ، خصوصاً

هذا التخصص الأخير الذى تمت فعلا محاولات حوله لتعطى حيثيات لها خصوصياتها فيما يعنى الاقتصاد وتطبيقه فى أمة الإسلام .

إلا أنا ، كما أشرنا وفى بداية الحوار فى حلقة الأولى . تتبنى كميائية أن نعطي لكل ذى حق حقه . فالإسلام كما أسلفنا الذكر ليس له قضية ترائية . فهو كعقيدة إيمانية ، وكشعائر وحدود ، ومبادئ خالدة له حضور حى ونشط فى قلوب ملايين المؤمنين . ومن الخطأ أن ينظر إليه نظرة تحييطية وثائقية كأرشيف أو دار محفوظات يستشهد بها فى المناسبات .

وعليه فإن كان ولا بد من توظيف للإسلام لا توظيف تراث المسلمين فلا احتكام إلا لأصوله : القرآن والسنة . وبالمعيةارية التى حددناها من قبل .

أما قضايا تراث المسلمين وهى التى تعيننا فى هذا المستوى من الحوار ، فنرى أن الطرح من الأولى أن يركز على الواقع كما هو أى الجانب البشرى ، المسلمين كبشر ، له متطلبات ومعطيات وحاجيات كما أن له طموحات وتطلعات موضوعية . هذا البشر الذى قدم لنا تراثا عبر عصور تجاوزت الأربع عشرة قرنا وهو تراث بشرى من حيث الممارسة وإسلامى من حيث الراية والانتماء . علينا أن نقوم بتقنيه آخذين بعين الاعتبار بشرية معرزي هذا التراث وإلى أى حد هذه البشرية تصرف محاولة الانتماء فى الإسلام ، أو التكلم باسمه ، أو الانتفاع بدفعه وعطاءه ؟

فحينما نقول اقتصاد ، أو ديمغرافيا ، أو جغرافيا فإننا نعنى اقتصاد البشر وديمغرافية البشر ، وبالضرورة جغرافية طبيعة البشر . وليس اقتصاد القرآن أو ديمغرافية القرآن ، أو جغرافية القرآن . فهو أسمى وأخلد من النزول إلى هذه الممارسة ذات التصويب والتخطيء . ولهذا نوظف معطيات البشر من خلال التراث كى نستثير بها فى التعرف على حاضرنا ، والنظلم إلى مستقبل أفضل . لهذا نميل إلى تبقى ديمغرافية العالم الإسلامى أو الأمة الإسلامية ، وكذا علم اقتصاد العالم الإسلامى أو علم اقتصاد الأمة الإسلامية . وعليه يكون القياس ، وسنحاول أن نجسد هذه الممارسة من خلال نموذج ، وإليك الأكثر نشاطا وحيوية فى مجتمع

اليوم : علم الاقتصاد ، وكيف يمكن أن نوظف تراث المسلمين في البحث عن خصوصيات لأمتنا في ظاهرتها ، الاقتصاد كبشر ، ولكن أولاً وقبل كل شيء يحمل رؤية الإسلام . ويعتز بالانتماء إليه .

لاشك أن الظاهرة الاقتصادية في مجتمعنا اليوم الاستهلاكية تنصدر إنتاجاً ، وتبادلاً وتوزيعاً واستهلاكاً كما تنصدر في تصنيف الأمم والأقطار بين متقدم في اقتصاديته ومتخلف ، بين مركز ومحيط ، بين متبوع وتابع وتفرض حين التقنين معايير في النهاية ومقاييس إما بخلفية ليبرالية تركز على الرأسمالية وربحياتها ، وإما خلفية ماركسية ، تركز على الجماعية وأولوية التشغيل على الربح بين الاتجاهين يتردد العالم الإسلامي مدفوعاً إلى التهميش لهذا ، أو تلك بل أصبح في الآونة المعاصرة في هذا القرن مرتعاً للباحثين عن الربح ، ومستودعاً استهلاكياً لما تبقى من فائض إنتاج المتقدمين ، ومنجماً تستخرج خيراته في غالب الأحيان دون ما يتشئ وحقيقة قيمتها ، بل وفي سنوات ماضية كانت تستخرج في غيبة من الزمن ، وبما يعادل المجانية . إذ أن الاستخراج والتسويق والتسليع كانا من اختصاص الغير ، فهي أمة حارسة لأموالها مالكة لها .

وفي هذا الإطار بدأت تطرح تساؤلات : هل يمكن لاقتصاد إسلامي أن يلعب دور المنقذ فيعطى لهذه الأمة نسقاً اقتصادياً متميزاً لا ينتمي لليبرالية أو الماركسية إنما يستقى مصادره من الأصول الإسلامية . وكانت ارهاصات الدعوة لعلم اقتصاد إسلامي ، بل خرجت مؤلفات عديدة تحلل هذه التسمية وكلها تركز على مبادئ الإسلام من حيث الزكاة ، والصدقة ، ومحاربة الربا ، ثم ما لمس من تطبيق في بعض العصور الإسلامية لنظام الجباية ، وبيت المال والخراج ، واجتهد المجتهدون كل يدلي بدلوه نظراً لما لظاهرة الاقتصاد من تصدر وأهمية .

فيما يعنينا كتوظيف للاقتصاد على ضوء تراث المسلمين هو ليس بالضرورة البحث عن علم اقتصادي إسلامي تنظيري نصوصي بتغير بتغير عصور الظاهرة الاقتصادية لأننا كما أسلفنا الذكر الاقتصاد ظاهرة بشرية تتكيف حسب متطلبات ومعطيات البيئات والمؤثرات التي تحرك الإنتاج ،

وتحدد قواه وعلاقاته وتطرح طبيعة التبادل والتوزيع ومحيط الاستهلاك . ولهذا سوف تتعامل مع الظاهرة الاقتصادية من خلال تراث المسلمين كبشر كان لهم اقتصاد في مختلف العصور فيما له طابع الندورة وإمكانات التبادل والاستهلاك ولكن كانت المبادئ الإسلامية هي التي منها كانت تستلهم مسيرة التصرف الاقتصادي ، وعليه إن كان ولا بد من تجربة اقتصادية عبر التراث فمن الأولى أن تنصب على السلوك الاقتصادي وكيف كان يتواءم مع مبادئ الإسلام الداعية إلى الوسطية فيما يعنى التدبير الاقتصادي ومردوديته ، « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (١) ومن ثم فالتراث يقدم لنا مادة خصبة تثرى تفهم المسلم في كيفية تعامله مع الظواهر الاقتصادية ، مراعى لحدود الله ، ملتزما بأركان الإسلام من حيث حق السائل والمحروم عبر الزكاة والصدقة وتجنب الربا بكل ألوانه الصريحة والمضمرة ، وخصوصاً تحاشي المغالاة في الإشباع الاستهلاكي الذي اتجه بها إلى النهم الحيواني مما جعل إطار القيم والمثل تهتز أمام الشهية الشرسة في الاستحواذ والاستهلاك وهكذا الاقتصاد الإسلامي للمسلمين كبشر ، آن الأوان أن يطرح على ضوء ، أو هدى أساسين : الأصول الإسلامية من ناحية ، والتعامل مع الظواهر الاقتصادية كما حصله إلينا تراث المسلمين عبر القرون من ناحية أخرى دون أن نلزم القرآن والسنة بعلم اقتصاد إسلامي ، المفروض أنه يتغير ويتجدد ، يخطئ ويصيب ، يتكيف ويكيف انطلاقاً من ضرورات الحياة ومتطلبات العصر الذي يطبق فيه . وهذا ما يجعلنا نميل إلى مضمون علم اقتصاد عالم إسلامي ، أى بشر أمة أو دولة أو قطر . تحاشياً للنزول بالقيم والمبادئ الإسلامية السامية إلى مستوى خطأ البشر أو خطيئته في التطبيق والممارسة والتعبير عن الخلفيات . وهذا بدوره ما يمكن أن تتبناه فيما يعنى علم السياسة ، وهل من الأولى أن يكون علم السياسة للقرآن والسنة وما حولهما من أصول أم علم سياسة للبشر الإسلامي ؟ .

هذا الخيار يجعلنا نتساءل حول الظاهرة السياسية ، وباختصار كيف يمكن تحريكها تحت راية الإسلام ، وعبر التعامل البشرى ؟ .

من البداية نستبعد بل نبرأ بالقرآن أن يتحول إلى موسوعة سياسية بالمفهوم الذى وضع للسياسة خصوصاً انطلاقاً من ما كيا فىل ونظرية تربية الأمير ، وكيف أنه لا اخلاق فى السياسة وما يلاحظ حايما من ارتباط السياسة بمعايير استراتيجية وتاكتيكية تزكى الغدر ، وتدعم المضاربات ملتجئة إلى الحيل والمراوغة وخداع الآخرين .

السياسة تحت هذه المضامين لا علاقة للقرآن والسنة والسلوك النبوى الطاهر وما حولهم بها . ومن ثم فالإسلام حينما تصدى لتسيير أمور المسلمين تحت راية الله ، وضع لذلك مبادئ تؤمن الصدق والحق والمثل العليا لترقى بالإنسان . فمجرد استذكار ما ورد فى أصولنا الخالدة ، من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » ، نرى إلى أى حد مبادئ ديننا الحنيف وضحت المسئولية وحددتها كذلك جعلت النية معياراً لكل عمل . وذلك تحاشياً لكل تحايل وتبرير وخداع فالحديث الصحيح وبه بدأ البخارى رضى الله عنه صحيحه : « إنما لأعمال بالنيات » « وإنما لكل امرئ ما نوى » . نورد هذه اللمحات كى تؤكد أن الأصول الإسلامية حينما عالجت العلاقات فى المجتمعات الدنيوية ربطتها أولاً وقبل كل شئ ، بخشية الله ومرضاته . وعمرت كل باحث عن الغش والزيف والغدر عن أى حيثيات يصطنعها ليصل بها إلى مآربه .

لهذا نرى أنه من الأولى ، وإن كان ولا بد من طرح لعلم السياسة فأليك كما هو الحال بالنسبة لعلم الاقتصاد على مستوى البحث فى البشر . ومدى تكيفه وتفهمه للمبادئ الخالدة ، لا إخضاع المبادئ الخالدة لمقياس نقىنى ونقدى ، ومحاولة لوبها لكى تحقق بها مطالب دنيوية وأغراض ذاتية .. فالمعنى بعلم السياسة فى الإسلام ليس النزول بمبادئه لتجرى عليها التجارب والاختبارات وتركها فى مهبط أهواء البشر ، وإنما الارتقاء بالبشر سيصل إلى فهمها وتدبرها ، واستثناسها وتوظيفها .

وعليه فعلى سياسة العالم الإسلامى ، كنظام شامل لأمة الإسلام أو

نظام متعدد بتعدد بيئات بشرها في الأقطار من الأولى أن ينطلق بدراسة للظواهر السياسية لدى البشر المسلم ، ووصفها وتحديد خصائصها ثم في المرحلة الثانية ، تحدد العوامل التي تزكي وتدفع المجتمعات الإسلامية لترقى إلى مستوى رسالتها ، كما تحدد العوامل التي تشكل حواجز وموانع تعتم الرؤيا وتفصل بين المسلم وعقيدته سواء بما يفرض عليه فرضا من إشكالات بهدف استنزافه ، أو تحذيره ، أو إضعافه ، وما يفتعل لقيادات الأمة الإسلامية من بؤر في طريق مسيرتها . ثم تأتى المرحلة الثالثة والأخيرة لهذا العلم لتحاول طرح مواءمة المسلم . وفي داخل عصره لا في خارجه لمبادئ الإسلام الخالدة من خلال قنوات محددة تصدر فيها قياة « الشورى » ، ووحدة الأمة ، والتقاءها في الله ، وأن لها رسالة بين الأمم هي أن تكون أمة وسطا كمعيارية تشهد على ما حولها ويستشهدوا بها .

هذه معالم رئيسية يتحرك في داخلها علم سياسة البشر الإسلامى لا علم سياسة مبادئ الإسلام دون إفراط أو تفريط . فالقرآن والسنة أسمى من أن يوصفا بأنهما موسوعة لعلم سياسة ، وإنما رسالة إلهية لإنقاذ البشرية .. بينما البشر الإسلامى يظل موضوعا لهذا العلم الذى يسعى لتحقيق هدف رئيسى وهو مدى تفهم المسلمين للمبادئ التي خطتها أصول دينهم لتيسير علاقاتهم وتعليل سلوكهم ولهذا فتميل إلى أن يكون علم السياسة خاصاً بالعالم ، أو الأمة الإسلامية كبشر .

وكما حاولنا طرح معايير لهذه التخصصات السابقة كالديسوغرافيا والاقتصاد والسياسة ، بغية توظيفهم لما فيه صالح المسلمين ، واستغلالهم لما استجد في عصرهم من اجتهادات علمية ومنهجية ، يمكننا أن نضيف أيضاً اللسانيات ، وكيف يمكن أن تسهم بدورها كمستجدات لتكمل الطريق جنبا إلى جنب مع علوم اللغة العربية الأصيلة نحواً وصرفاً وبلاغة وعروضا إلى آخره ، دون أن تزعم أو تدعى أنها جاءت لتكون بديلة لها . حيث إننا حالياً نشهد هنا وهناك اجتهادات تحت راية اللسانيات تحاول الاستفادة مما يدور في هذا العصر من دراسات لغوية توظف الشروح البنيوية والوظيفية وتتلاحم مع المنطق والفلسفة .

إلا أن هذه الأمور في الواقع ليست بالجديدة على تراثنا الزاخر بالاجتهادات اللغوية بما في ذلك فلسفة اللغة ومنطقها ، ودلالاتها ، ومعناها ومبناها لهذا من الأولى أن تكون المرتكزات للباحث عن استثناس اللسانيات المستجدة والمعاصرة أن يكون مستوعبا أساساً لكنوزه اللغوية فلا يقبل من لسانى أن يملى على اللغة العربية خصائص لغة أخرى باسم احدثنة والتجديد خصوصاً إذا ما وصلت به المغالاة إلى حد اللحن والخطأ في لغته الأم ، وعدم إجادته حتى لمظهرها في التعبير والصياغة ، فخير من يتصدى للسانيات هم : النحاة والصرفيون وفقهاء اللغة العربية ممن تعمقوا في أصولها واستوعبوا مدارسها النحوية المختلفة بل ، ولم لا ؟ خير من يجدد في اللسانيات العربية هو الذى استطاع كمجرد رمز نسوقه ومعيار أن يستوعب ألفية ابن مالك كما يستوعب أحدث ما وصلت إليه دراسات اللغويين في الحضارات الأخرى عبر هذا العصر .

ولهذا فاستثناس وتوظيف اللسانيات مشروط بجدارة من يوظفها وجهبذنه في لغته إلى جانب عبقريته في لغة الآخرين . وهو فى توظيفه هذا كما أشرفنا بهذا في البداية لا يسعى إلى إحلال جديد بقديم ، أو مستحدث بمستقدم وإنما يضيف إلى ما خطه فطاحل لغتنا ما يمكن أن يسهم في حل مشاكل المتكلمين باللغة لا مشكلة اللغة ، فليس للغتنا أية مشكلة .

وفى إطار جولتنا لتوظيف التخصصات المستجدة فى علوم الإنسان واستثناسها فى تراث المسلمين نشير فى النهاية إلى تخصصات ثلاثة منها ما استثنس نسيا . ومنها ما هو فى طريقه إلى الاستثناس .

ونعنى بذلك الاثربولوجيا (اجتماعية أو ثقافية) والسوسيولوجيا (علم الاجتماع) والسيكولوجيا (علم النفس) من نتاجه الاجتماعى روحياً ومادياً عبر عاداته وتقاليده وأعرافه وأنسقه بصفة عامة كما صور الاتجاه الإنجليزى الاثربولوجيا اجتماعياً أو عبر نتاجه الثقافى فى إطاره الشمول كما نحا إلى ذلك الاتجاه الأمريكى بالاثربولوجيا ولا شك أن تراث المسلمين يقدم لنا منجماً غنياً بعبائمه عبر مختلف العصور ولقد قام ابن خلدون فى مقدمته بتوظيف للمعطيات المعاصرة له وما سبقه اثربولوجيا من خلال

مناقشته لظواهر التجانس في المجتمعات العربية الإسلامية مثل العصبية والإمام وتحديد عناصر التهيو كالبداوة وما حولها ومدى فاعلية هذه الظواهر وآثارها في بنية المجتمعات وتطورها أو اضمحلالها فهو في ذلك يقدم نموذجاً لا يستهان به في إطار الانثروبولوجيا الاجتماعية يجعل ابن خلدون جديراً بأن يدرس أيضاً كما اهتم في أصول هذا التخصص الذي يركز حالياً على دراسة مقومات التجانس في المجتمعات البشرية المعاصرة بعد أن كانت اهتمامات هذا التخصص منصبه أساساً على المجتمعات التي لغت بالبداية .

لهذا يمكننا بالنسبة للفترات التالية لابن خلدون أن نكمل مسيرته . وذلك بهدف تأصيل ما جاء به أو التحفظ على بعض مقولاته مع التعليل لماذا التحفظ ؟. وبالتالي يصبح ابن خلدون محوراً من محاور اهتمامات الانثروبولوجيا العربية تراثياً . ولعل هذا أولى به من أن يحمل معطيات تخصص مرتبط أساساً بعصور تالية وبخاصة بمستجدات محددة تصدر فيها الظاهرة الصناعية وردود فعل الاقتصاد السياسي وإمكانات الإحصاء للمجتمعات البشرية إلى جانب نزوج المنهج ، وكل ما يمكن أن يدفع بهذا التخصص إلى مزيد من العطاء ونعني به السوسيولوجيا أو علم الاجتماع .

وهنا نطرح هل هذا التخصص بدوره يمكن أن يوظف على مستوى نراث المسلمين ؟ بلا شك قد أجبنا على هذا التساؤل حينما طرحنا في حلقة سابقة سوسيولوجية التاريخ كفرع من فروع هذا التخصص الذي يمكن إلى جانب فلسفة التاريخ وعلم التاريخ أن يعطى لتاريخ المؤرخين قالباً يتمشى وما يتمتع به هذا العصر من قدرة في التقنين المنهجي ، والشروح الشمولية التي لا يمكن إنكار حضورها ، بل وعطاءها .

وتبقى بعد هذا بقية فروع هذا التخصص أي السوسيولوجيا ، لتحدد بالنسبة لها مدى إمكانات التوظيف أو الاستئناس .

هناك فروع تتطلب معاصرة المجتمع لأنها تركز أساساً على البحث الميداني « فيلدورك » . ومن ثم ففضية التراث غير مطروحة ، اللهم في إطار مدخلي للتعرف على أصول التناقضات أو الخلفيات عبر الشروح الجدلية

المادية أو الإمبريقية (أى الواقعية) . ونعنى بذلك الفروع الخاصة بالتنمية ، وتطور المجتمع . بينما هناك فروعاً أخرى يمكن بدورها أن توظف مرتكزة على التراث ولو نسبياً ونعنى بذلك فرع السوسولوجيا الدينية ، وسوسولوجية المعرفة غير أننا نوضح أن المعنى هنا ليس الدين كعقيدة ، فقرآن وسنة ، فهذا جانب إيماني بحت وإنما المعاملة الدينية إيماناً بالدين أو خروجاً عليه لدى المستكبرين أو تحييداً له جزئياً أو كلياً أو المضاربة بأسسه . . كذلك مدى تأثير المعطيات الدينية على مستوى البشر فيما يعنى البنيات والعلاقات الاجتماعية . ومن ثم يبدو لنا أن الجانب المعاصر أكثر قرباً في التوظيف وفاعلية من الجانب الذاتي ، وهذا بدوره يمكن أن ينطبق على سوسولوجية المعرفة وسوسولوجية الأدب ، وسوسولوجية التربية حيث إطار التمهيد لتعامل هذه السوسولوجيات مع الواقع المعاصر تتطلب إحاطة بالتراث كأرضية لا يمكن أن تستبعد في مثل هذه التخصصات وعليه يقاس في بقية ضروب السوسولوجيا ومناحيها .

وقبل أن ننهي هذه الحلقة الخاصة بتوظيف علوم الإنسان المعاصرة في تراث المسلمين نطرح تخصصاً له ثقله وأهميته في هذا العصر بين علوم الإنسان ونعنى به علم النفس (السيكولوجيا) حيث من الصعب أن ينكر أو يتنكر باحث أو متهم ما لهذا التخصص من أبعاد تتسع باتساع ظاهرة المعاناة والتعقد في المجتمعات البشرية المعاصرة التي تطلعت إلى الإشباع الاستهلاكي دون أن تتخلى عن إنسانيتها ، بل تجاهر وفي كل المناسبات . أنها تمثل أزهى العصور الإنسانية . بينما التعلق بالإشباع الاستهلاكي ربما يرمز لأزهى عصور الحيوانية . وهذا ما دفع إلى مسلسلات من الإسقاط والإحباط ، لا تلاحظ فقط على مستوى الأفراد أو الأسر أو حتى الجماعات ، وإنما على مستوى الأمم المتقدمة وغير المتقدمة . ولكن بدرجات متفاوتة .

فيما يعني ، هل يمكن لتراث المسلمين أن يوظف فيه هذا التخصص بهدف التعرف على مقومات الشخصية العربية الإسلامية ، بل وطبيعة تكيفها تمثلاً ومحاكاة وما يمكن أن يلقي ضوءاً على أغوار الإنسان العربي المسلم في إطار الشعورى واللاشعورى على حد سواء . ذرائع فعله وحيثيات ردود فعله .

السؤال الذى سيطرح هل هناك مصادر ومراجع يمكنهما أن يساعدا فى تصيد الظواهر النفسية عبر عصور تراث المسلمين كيف كان يعانى المسلم نفسياً ؟ وكيف كان يتعامل مع معاناته ؟ وكيف يتخلص من شدائده ؟ بلا شك ما عرف فى تراثنا من مؤلفات تحفل عنوان ينبأ بما فى مضمونها ومحتواها ، ونعنى به مؤلفات الفرج بعد الشدة . وقد أحصى صاحب كشف الظنون حاجى خليفة العشرات . وأكثر منها نخص على سبيل المثال لا الحصر ، كتب الفرج بعد الشدة لكل من : المدائنى وابن أبى الدنيا ، وخصوصا المحسن التتوخى . ولقد أتاحت لنا الفرصة أن نتعامل بحثيا فى الخمسينيات مع هذا النوع من الفكر العربى الإسلامى ، وكان كحصيلة لهذا التعامل مؤلفا بالفرنسية من باكورة إنتاجنا يحمل نفس العنوان « القلق » أو الفرج بعد الشدة ، وركزنا فيه على التتوخى أساساً . وهو يجسد لنا طبيعة المعاناته والشدائد والتعامل معها ، والخروج منها بالفرج منذ ألف عام ، وكما سيكون مفيداً لو استمر هذا البحث الذى أهلنا له بدراستنا هذه ليستوعب مابقى من كتب الفرج بعد الشدة ، بل ويتجاوز الفكر المنصوص عليه صراحة باسم المعاناة النفسية للتعرف على مناحى آليات النفسية العربية شعوريا ولا شعوريا فعلها وردود فعلها من خلال النتاج الفكرى العربى الإسلامى بصفة عامة .

ومن ثم يمكن استيعاب خصوصيات النفسية العربية الإسلامية كنتاج اجتماعى ثقافى تأثر أولا بالعوامل البيئية ، والقيمية ، كما تأثر فى بناء النفسى ونموه بخصائص التربية الأسرية والنسق البيداغوجى للكتاب (السيد) ، ومن بعده الفقهاء ، وأصحاب العواميد فى مجالس العلم ، هذا فيما يعنى النخبة ، أما فيما يعنى الملايين من المؤمنين فيمكن التعرف بصفة عامة من خلال إعادة النظر فى تراث المسلمين لتوظيف معطياته بالنسبة لتوعية هذه الملايين توعية تتمتع بالصلاحيات ، وتعبئتها وجدانيا تعبئة تدفعها إلى الخلق والإبداع انطلاقا من التبصر والعمق بدلا من المجازفة والتهور والاندفاع ، وعليه فهذا التخصص النفسى الهام آن الأوان أن يوظف ، ويستأنس عبر تراث المسلمين شريطة التعرف عليه بأصالة وتأهيل قبل التعريف به والاستيعاب لتراث المسلمين استيعابا شموليا قادرا يتوخى الأعماق ولا يكتفى برؤوس الأقلام ، ومعالج الطريق ، وذلك قبل أى توظيف أو

استثناس وما نقوله بالنسبة لعلم النفس نكرره أيضاً فيما يعنى كل ما سبق من تخصصت علوم الإنسان وتعاملها مع تراث المسلمين .

وقد خصصنا لذلك هذه الحلقة من حوارنا لنتقل إلى ما تبقى من هذا الحوار الخاص بقضايا تراث المسلمين . وفيه سنطرح تراث المسلمين وتراث الآخرين في محاولة لتكملة الحوار بالحوار . فإن كنا قد تجاوزنا مع تراثنا فكيف نرفض امتداد الحوار إلى تراث الآخرين ؟ ولكن تبقى هنا إشكالة الوسطاء والمستثمرين ذوى النوايا الحسنة وكذلك من المغرضين . وهنا لا بد لنا من المرور عبر المستشرقين وهذا هو موضوع الحلقة التالية قبل الحلقة التى سوف نهمى بها هذا الحوار والخاصة بتراثنا وتراث الآخرين .

* * *

(٨)

تراث المسلمين وأعمال المستشرقين

وسوف نتدافع في حوارنا لنصل الى غرفة - لا نقول منقلبه - ولكن كثيراً ما تنبعث منها أضواء غريبة بقدر ما يراها البعض مشرقة ، بقدر ما يراها الآخرون على انها أضواء ضبابية .. وأن هذه الغرفة بحجودها لابد وأن تفتح بحرية منطلقة ولا نقول تنبش وانما يناقش محتسوها ويغلب في مختلف "وضاعه" .. ما دة وما عليه .. خصوصاً وانها في النهاية تحوات لدى البعض الى ما يشبه الضريح الذى يزار وبه يتبرك فى الاستشهاد ، وتحولت لدى البعض الآخر الى وثنية وصنمية يعبدونها باسم الجهالة ، وأن الاوان - لا نقول لتدمير - وانما لنعزى عنها هذا الطابع الغريب المزيج المتناقض .. غرفة المستشرقين .. ماذا عن قضايا تراث المسلمين وأعمال المستشرقين ، وهل من الحكمة ومن الأولى أن يقدم تعميماً أم يجزأ وينوع ويصنف .. يقبل بكامله ، أم يرفض بكامله ، أم يؤخذ منه ما يتمتع بالمصادقية والعطاء ، ويفند ويدحض ما يستشف منه المكر والدهاء لماذا عن هذه القضية ؟

ليس الهدف من عرضنا هذا فى هذه الحلقة أن نستعرض أعمال المستشرقين أو تتصدى لها بحثياً من حيث التفصيل والتخصص والتخصيص فعمل كهذا يجد مكاناً له لدى المهتمين أساساً بقضايا الاستشراق من حيث هو .

كيف نشأ وكيف تطور وتعدد ، بل ما هى جذوره وارهاساته الأولى ومختلف مدارس ألمانية كانت أم هولندية أم فرنسية أم انجليزية أم أسبابية الخ ، كما هو معروف . ولكن الذى يعنينا فى هذا الحوار الخاص بقضايا تراث المسلمين هو محاولة تقنية لأعمال المستشرقين بين المحترف والفضولى - ولم لا؟ - المغرض والمبیت وفى النهاية المعرف بالإسلام لدى تراث

الآخرين لإبراز قدراته وأصالته وما فيه من خلق وإبداع فكري على مستوى القرن والعلوم إلى جانب ما يرتكز عليه أساساً كدين وهو الوحي الإلهي وارسالة الخالدة للبشرية .

بلا شك البحث عن معيارية للتقنين سي طرح من البداية مواقع التخصص بين المستشرقين ، فهناك المتخصص في علوم اللغة في الأدب والشعر في الفلسفة وعلم الكلام أو في المسيرة الحضارية للإسلام عبر المسلمين كنظم سياسية ومؤسسات ، وأيضاً المتخصص فيما قدم الإسلام من فنون عمرانية وإبداع على كل المستويات ، كذلك هناك من اتخذ من الحركات الباطنية تخصصاً ليلحقها بالتصوف أو يلحق التصوف بها .

هل حينما نبحث عن معيارية تتعامل مع هذه التخصصات بغض النظر عما يدفع المتخصص إليها من نوايا مبيتة وخلفيات ، أو الذي يدفعه مجرد الفضول أو اشباع الاحتراف البحثي في إطار محدد . وفي النهاية ربما الإعجاب والتقدير لما أبدعه العقل المسلم من خلال تراث غني فترة طويلة وعريضة من تاريخ الإنسانية . طويلة في امتدادها الزماني بين المشرق والمغرب ولأندلس ، وعريضة أيضاً في امتدادها المكاني من جبال البرانس حتى بحر الصين .

لهذا هناك استشراق واستشراق ، ومن الخطأ التعميم اللهم إلا إذا كان الهدف التعميم أساساً وليس الحكم المعياري الذي يحاول ما أمكن أن يعطي لكل ذي حق حقه ، فتراث المسلمين يفخر بمن حاول من المستشرقين أن يبرز عطاءه أو يعرف بأصالته وتأثيراته المختلفة في الحضارات الأخرى وفي نفس الوقت يتأسى على هذه الفئة التي حاولت أن تكسب أرضية فكرية على حساب الإسلام بعد أن عجزت أن تكسب شيئاً في أرضها وحضارتها الأم . وهناك تداخل القصور وعدم التأهيل في الحضارة الأم مع القصور وعدم التأهيل في الحضارة التي اتخذت فيها وسيلة لتوظيف عقده ومكائده بل - ولم لا؟ - إسقاطه وإجباطه . وهنا تكتفي في هذه الساحة المقنعة التي لا علاقة لها بالبحث العلمي الذي يمتطى الموضوعية ويرتكز عليها فئات متعددة تجمع بين المفرض والانتهازي والموسمى والباحث عن فورية الإشراق على

حساب الاستشراق بعد أن أعيته الحيل وكل — إن صح التعبير السائد في هذا المقام — يغنى على ليلاه .

فستان بين استشراق واستشراق . تراث المسلمين أمام أعمال المستشرقين آن الأوان أن يميز مصنفاً لهذه الأنواع المتعددة من الاستشراق وسنحاول بدورنا أن نعطي نظرة سريعة وموجزة ما أمكن عن هذه التصنيفات الرئيسية التي يمكن أن نجعلها في :

١ — استشراق الفضوليين .

٢ — استشراق المغرضين .

٣ — استشراق الاحترافيين .

٤ — وأخيراً العارفين المعروفين .

وبمعيارية أدق يمكن أن نلحق استشراق الاحترافيين باستشراق العارفين والمعرفين — كما ندمج إشراق الضدين ليلحق الفضوليين بالانتهازيين بين يائسين ومغرضين بمعنى من أوقفه فضوله أو انتهازيته في بداية الطريق أمام عملاقة تراث المسلمين وارتضى من الغنيمة بالإياب .

وهناك من أصر بعناد المغرض والموجه من أصحاب حاجات يعقوب ليلقى بسمومه وأحقاده بل وقصوره عن أن يحقق مكانة لائقة به في حضارته الأم ليشبع تراث المسلمين بطعناته في محاولة للأخذ منها ولكن في النهاية تترد إليه الطعنات لينال الإسلام منه بصفائه وصموده ومن ثم ما أراد أن يحسبه على الإسلام حسب عليه ، وما اعتقد أنه قصور في الإسلام كشف في النهاية ذاتية قصوره .

فوضح القول أمام أعمال المستشرقين يمكننا أن نميز بين تيارات ثلاثة :

١ — أعمال استهدفت التعرف على تراث المسلمين ثم التعريف به في إطار طبعه التعاطف والتلاطف أو على الأقل تزييا بزى الموضوعية دون إخفاء ما في هذا التراث من عطاء متميز .

٢ — تيار استهدفت أعماله العكس ، من البداية تعامل مع تراث

المسلمين بخلفية مبيتة تهدف النيل منه والتجريح تحت ستار العلمية والمنهجية ولا يف بهذا التيار موكب التجريح والحقد الحقى المضر عند خد تراث المسلمين بعد العصر النبوى ، وإنما يتجاوزهُ ودائماً باسم علمية مفتعلة ومنهجية مكابرة لينال من قداسة أصول الإسلام ممثلة فى القرآن والسنة النبوية والسيرة العطرة . ومن ثم فإن كان مظهر لمسيرة يتزيا بالعلم فجوهرها ومضمونها وأساسا يسعيان إلى إبعاد طابع القداسة عن الإسلام وتقديمه على أنه فعل اجتماعى جاء نتيجة لشرطيات الجزيرة العربية أملتْه العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية ، بل والطبقية ، عشائرية أو قبلية . ويبقى التيار الثالث الذى تعامل مع تراث المسلمين تعاملًا حياديا . فميز بين الإسلام كدين له قداسته وله مكانته فى قلوب من يؤمنون به وبين تراث المسلمين خصوصا التراث الذى له طبيعة الإبداع البترى أدباً ، ثراً ، وشعراً ولغة ، فضلا عن ما قدمه تراث المسلمين من إسهامات فى ميدان العمران والفنون المختلفة . وعليه فهذا التيار حينما تعامل مع ما حول الجانب الاعتقادى من التراث ، كأعمال المتكلمين والفلاسفة والاتجاهات الصوفية ، تبنى إطاراً وصفيًا ركز فيه على التوثيق التاريخى فى محاولة لتقديم صورة قريبة ما أمكن من الواقع التاريخى .

وعليه فمدى تخصص المستشرق يحدد لنا الغاية التى يسعى إلى تحقيقها انطلاقاً من توظيفه لوسائله لهذا نجد التيار الأول والثانى كلاهما اهتم بالإسلام كعقيدة وحاولا معاً أن يبرزنا لنا الأصول الإسلامية فيما يعنى التيار الأول لإظهار إتراقها وجدارتها وفيما يعنى التيار الثانى افتعال ما فيها من محاكاة لما سبقها من الأديان أو إلصاق قصور وتصنع عورات ، خصوصا فيما يعنى التفسير والحديث والتصوف . كل هذا التصيد اللهم إن وجده وهو لم بشرى يضعف به الجانب الإلهى ويزيف من خلاله معطيات العقيدة ، وكثيراً ما يظهر التحامل والتصنع بشكل واضح فيما يعنى مسيرة الرسول ومراحل حياته المنيرة والمستنيرة ، وكأن سيرة الرسول هى سيرة إله لا سيرة بشر .

رسولنا (صلى الله عليه وسلم) أكد القرآن بشريته كما بشرية الأنبياء والرسل الآخرين مع توضيح العصمة وتحديدُها فيما يعنى النبوة والرسالة

كإنسان بشر ، وكنبى ورسول معصوم فى نبوته ورسالته ، لا ينطق عن الهوى ، انطلاقاً من هذا المعيار يمكن رد كيد الكائدين من هؤلاء المكرة انباحثين عن حاجيات شخصية ولكن فى مسميات علمية ومنهجية باعتبار أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو ابن عبد الله بن عبد المطلب وأمنة لا تغميض فى بشريته ، ولا ألوهية فى تجسيده ، مع هذا فيتيم قريش المصطفى المختار هو الرسول والنبي الذى أوحى إليه مبشراً ونذيراً ، ومن ثم فالبحث فى حياته الخاصة وفى علاقاته الأسرية هذا ضرب من الكيد الذى لا يمكن أن يتقبله باحث علمى لا يتحرك عبر الأهواء والخلفيات المبيتة ، وما يقال عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمكن أن نكرره بالنسبة للسنة وخصوصاً بالنسبة للقرآن . القرآن والسنة أصول الإسلام يحتكم إلى مضامينها ، وخير ما يستقى فيها من عاصرها لا من عاش فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين . يتصيد ذبابه ليفتعل منه ذباباً للآخرين بهذا التيار الاستشراقى المغرض الذى انصبت أساساً على أصول الإسلام وسيرة الرسول والحركات الصوفية كان من الأولى به أن يحتفظ بجهده ليتفهم أصول دينه وحركاته التغميضية ويتخصص أولاً فى كشف أساطيره وخرافاتة قبل أن يتصدى لكشف أساطير وخرافات الآخرين ، لأن علمه سيكون أجدى بلا شك ، لأنه يرتكز على المشاركة فى الوجدان ويسيطر على مضامين اللغة والتكيف مع بيئته الثقافية ، وإلا فكيف يمكنه أن يصل إلى أعماق عقيدة أجنبية عن وجدانه ومشاعره ، أجنبية عن لسانه وبيانه تنتمى إلى بيئة ثقافية أخرى ويزعم مع هذا أنه اكتشف وجدد وعرف ما لم يعرفه صاحب الدار إن هذا إن كان ولا بد وأن يقبل فلنأخذه سخرية على أنه دعابة من الدعابات ولكنها مريرة على القلب ثقيلة على اللسان ويبقى التيار الثانى الذى عالج نفس هذه القضايا الأصولية ولكن من منظور التعرف عليها للتعريف بها دون خلفية مبيتة أو حاجة فى نفس يعقوب .

وهؤلاء بدورهم يجعون بين الفضولى ، بين المتعشق لحضارة الإسلام والباحث عن حقيقتها وإن كانت تجمعهم غاية مشتركة التعاطف مع هذه الحضارة العملاقة والانطلاق من التعرف عليها قبل التعريف بها ، منهم من اهتم بأصول الإسلام لا لإشباع خلفية مبيتة وإنما باحثاً عن الحقيقة ،

حقيقة العقيدة وشموليتها وكثيراً ما انتهى الأمر بفئة منهم معلنة إيمانها بالإسلام عن قناعة وبناء على حشيات موضوعية (كمثال يساق في فترتنا المعاصرة « جارودى » من بين العديد) .

ومنهم من اتجه إلى اللغة لاكتشاف عطاياها وما فيها من إيقاع وأصالة وهو في ذلك يجمع بين نظرة المتخصص ورؤية المتعرف وقد يتسع النطاق فيهم بالأدب شعراً ونثراً في محاولة لكشف كنوزه ومدى تعبيره عن وجدان أمة عملاقة في مختلف العصور ، هذا فضلاً عما ركز على التاريخ محاولاً كشف المخطوطات وتحقيقها وإلقاء مزيد من الأضواء عن العصور المختلفة لحضارة الإسلام عبر فترات عظمتها وفترات تأزمها ونذكر في هذا المضمار كذلك الرؤية الشاملة التي قدمها البعض منهم في استرسال وتسلسل لتاريخ الأمة الإسلامية منذ عشية ظهور الإسلام حتى الفترة المعاصرة ، أو التركيز على عصر بذاته أو جانب من الجوانب الهامة أو تقديم تيار أو مدرسة في تاريخنا المجيد أو نوعاً من الإبداع والخلق لم تسلط عليه الأضواء بصورة تبرز معالقه مثل من اهتم بأدب الرحالة أو بالمقامات أو بكتب الفرج بعد انشدة أو التاريخ لفئة اجتماعية أو حركة اجتماعية بشكل معمق إلى غير ذلك من الاتجاهات التي تذكر لهؤلاء المتعاطفين فضولين أم محترفين بسا يستحقون عن جدارة وإشارة .

ويبقى البحث عن معيارية لتمييز لنا الغث عن الشمين والزبد عما ينفع الناس ويمكث في الأرض حتى لا يؤخذ هذا بذلك فيوضع الفضولى الباحث عن النيل من الإسلام موضع الفضولى الباحث عن معرفة الإسلام . والمحترف الذى وضع إمكاناته وقدراته ليرز باستحقاق ما في حضارة هذه الأمة الإسلامية من عطاء فهو إلى حد ما محترف بناء وآخر محترف للطنن والكيد واضعا كل إمكاناته وقدراته لهدم الإسلام فهو محترف تخريب وتدمير . فشتان بين محترف ومحترف وبين هاو فضولى وهاو فضولى مسمم - ولعل المعيار الذى منه تنطلق هو مدى وفاء الباحث فضولياً أو احترافياً لنصداقية النص والاحتكام إليه بدلا من لويه وتأويله وبتلالي تحميله ما لا يحتمل فخير ما يفسر القرآن ما اتفق الفقهاء والمتخصصين في الحضارة

الإسلامية من أبنائها . فحينما يأتى مغرض باسم الاستشراق ليؤول لنا قرآنا ويفسره حسب هواه فهذا هو الفضول المبغض والاحتراف الكئيب ، إن كان ولا بد فعليه أن يأتى البيوت من أبوابها وهذا يدفعنا بالضرورة أن نتطلب منه الشروط الثلاثة : المشاركة الوجدانية والتأصل فى اللسان والبيان استيعاب كامل لمضامين الثقافة والبيئة التى يزعم التخصص فيها . وهذا يدفعنا بالضرورة إلى وضع معيارية أخرى لهذه المعيارية تعنى مدى الالتزام بالعلمية وما فيها من موضوعية ما أمكن وإلا كيف يمكن لتعاطف فضولى أو محترف أو متحامل فضولى أو محترف أن نحقق لديه مقاييس العلمية والالتزام بها وهو فى الأساس له موقف مبين إما باسم الحب أو الكراهية .

طرح هذا التساؤل يدفعنا إلى وضعه فى إطاره الشمولى ليس فقط على مستوى الاستشراق وإنما على مستوى العلمية برمتها . فإن كانت علمية علوم التجريب احتكمت إلى مقاييس يجسدها المخبر والمعمل واكتشاف القانون ومن ثم أصبح التدخل الوجدانى المبين محدوداً إن لم يكن معدوماً لدى الباحث فى بحثه . فمثلاً المجرب فى البيولوجيا أو الفيزياء تعاطفه أو غير تعاطفه لا يؤثر بالضرورة . على ممارسة تجربته وإنما الذى يؤثر هو مدى مهارته وقدرته فى استيعاب المبادئ التى على ضوئها يجرى التجربة ومدى تحكمه فى إجراءاتها وتعرفه على ما وصلت إليه لاكتشاف القانون المسير لها . ولكن تبقى علوم الإنسان من شمولها . هل يمكن عزل الباحث فيها عن منظوره المبين أى إيمانه الإيديولوجى ولكن بصورة عامة وليس بالضرورة بمفهوم الإيديولوجيا السياسية إذ قد يكون له مبين فى إيمانه السلالى أو البيئى أو الثقافى أو التذوقى أو العاطفى والتساؤل — كما أشرنا — المطروح هل يمكن أن يعزل ما يجرى فى إلحاقه من ميل عما يجرى تحت بصره من بحوث .

إن الفصل بين الإيديولوجيا إشكالة كبرى بدلا من التعسف فى إلغائها أو استبعادها أو مصادرتها . كيف يمكن للباحث أن يخفف من حدة تعبئتها فى صورة متسلطة على المعطيات الموضوعية للبحث ، ولعل أفضل معيار نبيل إليه فى هذا المضمار بهدف الحصر والمحاصرة لذاتية العلمية وشخصيتها أن

صدر الاستيعاب على اتخاذ المواقف ونعطي له الحجم الأوفر والأكبر وعليه فالباحث مطالب أولاً بالاستيعاب قبل اتخاذ الموقف لا العكس ، اتخاذ الموقف قبل الاستيعاب وحينما يستوعب يكون الجانب الأكبر هو المنصدر وبنسبة تتجاوز الثلثين ، ليبقى الثلث الأخير لذاتية المتبصرة بالاستيعاب والوعية بالقضية وذلك تحاشياً لأن يقع في التباس الموقف على أنه استيعاب والاستيعاب على أنه موقف .

ولهذا فنحن لا نطالب الاستشراق بالتخلي عن انتمائته وأن يتحول البشر إلى جماد بلا إحساس أو مشاعر وإنما نقول : من يريد أن يدخل الدار إما أن يدخلها غازياً أو مستضافاً أو قد ضل الطريق . وهذا ما يمكن أن تطبقه على الاستشراق . فنقول للاستشراق الغازي ليرفع القناع ويظهر بوجهه الخصم دون زيف أو غش حتى نتعرف على هويته ونعرف كيف نتعامل معه . وأما أن يأتي كمستضاف فلم تعرف حضارة الإسلام إلا إكرام الضيف .

وإما أنه ضل الطريق أو عز عليه أن يجد طريقاً آخر ليسلكه ليثبت ذاته في أرضه فجاء إلينا ليثبت ذاته في أرض الآخرين عليه وفي هذه الحالة أن يسترشد أهل الدار ، حتى تسهل عليه الطريق ويستريح ويريح .

وفي النهاية هناك نوع من الاستشراق حاول أن يصنف نفسه تحت راية الحياد مبتعداً أساساً عن المناطق ذات الحساسية والتي قد يفسر ولوجه لها بتأويلات معه أو عليه وأن يركز في تخصصه على جوانب تزكى طبيعة حياته . ونعني بذلك من حاولوا دراسة النتاج الأدبي لا بغية توظيفه اجتماعياً أو سياسياً أو دينياً وإنما لاكتشاف خصائصه وخصوصياته وربما ما فيه من إبداع أو ما يؤخذ عليه حينما يطرح في معيارية الأدب المقارن .

وكخلاصة لقضية تراث المسلمين أمام أعمال المستشرقين نرى أولاً :

تحاشى التعميم في الحكم ، بين استشراق بناء بالنسبة له ولنا . واستشراق هدام يسعى لبث سمومه باسم العلمية والبحث المجرد ، فالاستشراق الذي حاول النيل مستغلاً تحت شعار كل الأساليب

والتبريرات ، إما من أصول الإسلام ، وبخاصة سيرة الرسول عليه السلام . أو من حاول النيل من خلال السعى إلى إحياء حماسات الجاهلية والنعرات بأسلوب معصرن وصياغة محدثنة والدعوة إلى شعوعية باسم إبراز الملل والنحل ، والفرق في الإسلام . وكأنا أمام صراعات كنسية ولسنا أمام اختلاف في الرأي واختيار في الاجتهاد نتيجة لعوامل بيئية أو ثقافية أو تسليط الأضواء على ما حدث في عصر المواجهات الكبرى فيما سمي بالفتنة الكبرى ، لكى يعمم فتنة عصر على كل العصور فضلا عن سعيهم إلى تغميض مفهوم التصوف الإسلامى وهو الصفاء ليلحق بالغموض الذى مارسه ملل أخرى ، ويعطى له طابع الالتباس إن لم يك الأباطيل والخرافات . ومن سعى إلى التقليل من أصالة الحضارة الإسلامية بإعطائه أولوية للفروع على الأصول . وتقديم الاحتكاك مع حضارات الآخرين ، كما هو الحال في كل الحضارات على أنه نقل ومحاكاة وتقليد ، هذا إلى جانب إغفال مناحى هامة كان من المفروض أن تكون لها الأولوية في تسليط الأضواء . ونعنى بذلك ما تم من انتحال في بداية إرهابات عصر النهضة الأوروبية الحديثة من سطو على كنوز المخطوطات العربية الإسلامية ، ونقلها إلى اللاتينية دونما إشارة لمصدرها أو مرجعها . وكأنها من وضع اللاتينيين حتى بالنسبة للفقهاء والعلماء . إن كان البعض قد أعطى أهمية لأطرته ولما فيه من خلق وإبداع كفنون إسلامية أصيلة ، اتجه غلاة الأغراض والنيل إلى البحث فيها عن مؤثرات بيزنطية وأجنبية ، وكان العقل العربى المسلم لم يخلق إلا نزع الأغنام والإبل ... هكذا كان الاستشراق الذى لا يحمل من هذه التسمية إلا وسائل التسلل إلى حضارتنا وهو إن كان يستحق منا هذه الوقفة فهى في الواقع وقفة تأسى وعزاء لجهد ضائع ينتهى أجله بنهاية أجل واضعه .

ويبقى الاستشراق الذى التزم بما في التعبير من مضامين وما يحتوى من تطلعات ، فهو إن كان فضوليا . ففضوله وقف عند حد التعاطف والتعرف وإن كان استشراقا احترافيا فقد استفاد في تعرفه على حضارة عملاقة ، وأفاد في تعريفه بها . وترك من الآثار ما يجعلنا نسجل له بسداد من الإعزاز والتقدير ما أسهم به من جهد ، وما قدم من عمل جدير بأن لا يكون فقط موضع إعزاز أبناء الحضارة الإسلامية وإنما الإنسانية جمعاء . فبفضله

وبفضل غيره من دعاة الحوار بين الحضارات باسم الاستشراق مدت جسور المعرفة بين حضارة الإسلام وحضارة العصر بين تراث المسلمين وتراث الآخرين . ومن ثم فإن كان لهذا النوع من الاستشراق البناء من مكانة ، فلا يبحث عنها فقط فيما يعنى جانب الإثراء لتراث المسلمين ، بعد التعرف عليه واستيعابه ، وإنما إثراء الحوار فى كل أبعاده بعد أن تجاوز البعد الواحد . وأصبح إسهاما شاملا فى عطاء البشرية غير مشروط بخلفية انتمائية ، أو فترة زمانية ، أو إطار مكانى .

هكذا كان الاستشراق البناء ، وهكذا كان له دوره . وعلى ضوءه يحق لنا أن نتساءل كيف يمكن لنا أن نطرح - وبصورة متكاملة - ما يمكن أن يسهم به تراث الآخرين فى تطلعات تراث المسلمين داخل هذا العصر لا خارجه ، وبحضور العقل لا فى غيبته . كيف يمكننا إذن أن نتعامل مع تراث الآخرين لطرح المزيد من التساؤلات البناءة حول تراث المسلمين ؟ هل يركز على ما فى تراث الآخرين فى الحضارة الغربية السائدة من منهجية وعلمية أم أيضاً يتعرف على روائع فكرها ومدخراتها الإنسانية . وهذا ما سوف نطرحه فى الحلقة التالية والخاصة بتراث المسلمين وتراث الآخرين .



(٩)

تراث المسلمين وتراث الآخرين .. وواقع التعامل بينهما

ووصلنا بحوارنا الى المواقع .. موقعنا وموقعهم ، تراثنا ،
وتراثهم .. ماذا بعد ان طرحنا قضايا تراثنا .. ماذا عن تراث
الآخرين ، وهل يمكن ان تطرح معيارية وارضية للتفاهم والتفهم
المتبادل ، أو ارضية للمواجهة والتحدى بين تراث يحاول الابتلاع
وتراث يدافع عن ثقافته استمراريته ..

قضية كبرى تطرح في عصر التحديات الحضارية ليس فقط
على مستوى من ليس له حضارة مرجعية يحيل اليها ذاته ويسترجع
بها قدراته ، وانما تطرح أيضا على من كانت له دورة حضارية
ويخشى من ان ينطلق مرة أخرى كمارد يتحدى ويستيقظ من
هذا التحذير المصطنع الذى سعى الى ان يفقده جهازه العصبى
وقدرته الشعورية ، ويقوم بتنويمه ليرك للاشعور ان يسيطر
وان يسود ومن ثم هنا يصبح التعامل مع تفسير الاحلام لا طرح
الحقائق .. فهو مطالب وهو صاحب الحقائق التاريخية ان
يحول تحت ثقل الآخرين - ان طوعا او كرها - هذه الحقائق الى
اساطير فى الوقت الذى يتناول الآخرون ليحول البعض منهم
اساطيره الى حقائق تاريخية ، ولهذا كان تساؤلنا فى هذه المرة
.. ماذا عن قضايا تراث المسلمين وتراث الآخرين ؟ ..

إن كنا قد حددنا عبر الحلقات السابقة ماذا نعنى بتراث المسلمين بعد
أن أوضحنا أن ليس للإسلام قضية تراثية وبيننا خصائص التعامل بين معطيات
الفكر وهذا التراث وحينما نقول معطيات الفكر نعنى بالضرورة ما أبدعه
الفكر الإنسانى من تخصصات تتحرك عقلايا لا لتلغى النص وإنما لتبرز

ثوابته وأصالته وما يمكن أن يستفاد منه لا عبر فترة محددة وإنما من خلال مسيرة البشرية ومراحل التاريخ المختلفة .

واسترسلنا بحوارنا المتواصل من تاريخ المؤرخين إلى علوم الإنسان المستحدثة مروراً بعلمية التاريخ وفلسفته وسجلته ومضيفين في النهاية موقع أعمال المستشرقين تقنياً من تراث المسلمين باعتبار أن هذا الموقع يشكل منظراً من خلاله يحاول البعض أن يرى تراث المسلمين كما يريد أو يزعم أو كما يتمنى من هذا التراث ويأمل أو كما هو كائن دون أن يطرح ما يجب أن يكون إيجابياً وسلبياً .

هذا المنظار - لم لا؟ - أن الأوان أن يقابل بمنظار آخر من خلاله يرى تراث الآخرين بغية هدف محدد بالنسبة لتراث المسلمين إذ ليست الغاية هي نظرة فضولية لتراث الآخرين أو ملء فراغ أو لقتل وقت وإنما إلى أى حد يمكن الاستفادة من تراث الآخرين خدمة لتراث المسلمين . وهنا يتصور محور منهجية تراث الآخرين ونعنى به حضارة الغرب وعلميته . وبإصرار أضيف فلسفته هذا فيما يعنى فكر الإنسان وعلومه . أما ما استجد في تراث الآخرين من عطاء يرتكز على العلوم التجريبية والرياضية فهذا يلاحظ أولاً بأول لأنه ليس ملكية خاصة لشعب محدد وإنما ملك للإنسان باسم ما أسهم في أصوله من اרהاصات شاركت فيها مختلف الحضارات السابقة الكبرى . ولهذا فمن الخطأ أن ينظر إلى هذه الإنجازات الكبرى والاكتشافات على أنها احتكار للغرب . بل من المفروض أن تكون في متناول جميع الشعوب المتطلعة إلى الارتقاء .

ولكن الذى يعيننا أساساً ونحن بصدد حوار حول تراث الإنسان أن نتطلع إلى الإنسان الآخر وما أنتج فيما يعنى إبراز إنسانيته وليس فقط إبراز انتاجاته واكتشافاته في حقل الظواهر الطبيعية .

الإنسان الآخر ونعنى به كنموذج يتجاوز معه إنسان حضارة الغرب النسائدة قدم عبر القرون الأربعة بصفة خاصة نتاجاً هاماً ارتكز عليه ليملى هذه السيادة الحضارية هل ما أنتج في الأساس من معطياته دون اسهامات في حضارة أخرى أو أنه قام باستخلاص لما آلت إليه الحضارات

السابقة له وبخاصة حضارتنا العربية الإسلامية هذه القضية أشرنا إليها فيما سبق من حوار وقد تجد مكانا لها في شكل أوسع عبر طرح خاص بالتفاعل الحضارى بين مؤثر ومتأثر ولكن الذى يعيننا أساساً هنا فى هذا الحوار هو أن العربى تميز فى القرون الأخيرة منذ مطلع عصر النهضة بتراث جدير بالنظر والممارسة . فالخطأ كل الخطأ أن يتجاهل تراث الغرب الحديث لمجرد أنه تراث مواجه ، بل من الأولى أن يستوعب هذا التراث استيعاباً جذرياً معمقاً حتى تتمتع المواجهة معه بمصادقية وعطاء وإلا فهو الإلغاء المتبادل . هو يلغى احتقاراً ما فى تراثنا من عطاء واستكباراً وتكبراً ونحن بدورنا نلغى ما له من عطاء وأصالة تعقداً وتخوفاً وفى هذه المعادلة ليس من خاسر إلا نحن ، فهو سائد أردنا أم لم نرد . وبقدر تجاهلنا له نتجاهل واقع العصر بما كبل به البشرية من سلاسل الهيمنة والسيطرة أولاً على العقول قبل العضلات والأرض .

ويبقى التساؤل : على أى أساس يتم التعامل مع تراث الآخرين هذا ؟ وما هى المحاور التى تعيننا فى الصدارة ؟ .

أما من حيث الأساس أو المعيارية فالضرورة تركز على مضامين هذا التراث لا على شكلية وصورته وهذا هو الفارق بين المتوازن والمنبهر .

فالانبهار دائماً ينصب على مورفولوجية الأشياء بينما الرؤية العادلة المتزنة تنصب على وظائفها ولهذا فالمعيار هو الاتجاه إلى روائع الفكر الغربى التى ثبتت وأثبتت ليس فقط فاعليتها وإنما عالميتها بمعنى تبنى الآخرين لها خارج حدودها وهذا تلقائياً يدفعنا إلى استبعاد ما يجسد خصوصيات الغربى كغربى من حيث معاناته التاريخية وردود فعله على عصوره انوسيطه ومواجهته لتعسف الكنيسة ونسقها وقهر اللاهوت والميتافيزيقا إلى غير ذلك من الهموم التى عاشها ولسنا فى حاجة إلى أن يصدرها إلينا لتضاف إلى همومنا فليحتفظ بهمومه له .

كذلك فيما يعنى اجتهاداته فى لسانياته لأن اللغة هى تعبير وجدانى لأمة ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتحول إلى مجموعة من القوالب تتداخل وتقاس جاهزة ولهذا فالعربى فى لغته له عمق من الصعب أن يقارن أو يقاس

على تعامل الغربى بلغته ، فلئن كانت بعض اللغات يحسب عليها الترادف وتداخل المعايير فلفة أخرى الترادف والتداخل والإضمار عنصر أساسى من عناصر حياتها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر لغتنا الجبيلة بما فيها من إضمار وحذف وتقديم وتأخير إلى غير ذلك من الخصوصيات فضلاً عما تقدمه فنونها البلاغية من قدرات جعلها فى النهاية هى محور الإعجاز فى البيان لأقدس رسالة للبشرية . وهذا ما جعلنا نصر على عدم التجاوب مع الداعين إلى ترجمة القرآن . فإن كان ولا بد فلتترجم معانيه ومضامينه أما القرآن فلا يقرأ ولا يرتل إلا بلغته بلسان عربى واستجابة لأول آية نزلت بـ « اقرأ » عربية عملاقة . ولهذا تتساءل حينما تترجم لفظية هذه التعبيرات فى نص نقلى حرفى لا نشعر بضالة لغتنا وإنما نكتشف عمليتها وضالة لغة الآخرين وعدم وفائها بما فى التعبير من إيقاع وعطاء .

هذا فضلاً عن استبعادنا لما فى تراث الغرب من انعكاسات لتزوفه وانطباعاته وعواطفه ومشاعره حتى علاقاته الأسرية والاجتماعية لأن نتاجه التاريخى أملى عليه سلوكاً معيناً يتمشى ومعطيات بيئته لهذا نركز فى تراث الآخرين كما أسلفنا القول على روائعه خصوصاً التى جسدت طموحات تطاعت إلى آفاق إنسانية أو مزيد من الاستئناس لظواهر الطبيعة ومعرفة الكون ونعنى بذلك الفلسفة نضوج الفلسفة الحديثة لديه وتأسيس الأسس العلمية وتخصيصها ، كذلك تعميق المنهجية وتنوعها مما أسهم فى بلورة معارفه التكنولوجية وتدافع الارتقاء لديه من علم يقلع بالمنهجية ومنهجية تقلع بالعلمية فى دورة تالية وفلسفة تتساءل عن تعليل واقع الإنسان .

فيما يعنى الفلسفة إن كنا نسلم أساساً بما للفلسفة من استمرارية عبرت التاريخ أقلعت فى فلسفات الحضارات الشرقية وأشرقت فى حضارة الإغريق ، وتبلورت وتنوعت وتكيفت مع الوحي الإلهى فى حضارة الإسلام . جاءت حضارة الغرب الحديثة لتستقى من كل هذه المصادر ، وتمتص من عطائها شرقية إغريقية وإسلامية لتعطى لهذا العقل الباحث عن البرهان ، عن الحقيقة والمتطلع إلى اكتشاف مزيد من المعرفة حيثيات متعددة ، غذاها المنطق بمسيرته منذ « الأورغانون » لأرسطو ، ومروراً

بالشروح والاجتهادات الإسلامية ، كى يتعامل هذا العقل ، وبصفة خاصة عبر تجارب « روجيه بيكون » فى الثالث عشر ، وبصفة أعمق « فرنسيس بيكون » فى السابع عشر بأداته الجديدة فى العلم . وهى لا تبتعد عن ما أبدع فيه ديكارت بعد ذلك ، فى فترة لا تتجاوز العشرين عاماً ، فى النصف الأول من القرن السابع عشر . وهكذا تأهلت الفلسفة بمنطقها ومناهجها عبر عصور الأنوار والمعارفين ، لتفرخ وتفرز لنا البدائل الممثلة فى الفلسفات الوضعية وبصفة خاصة فى القرن التاسع عشر ، بل يمكن أن تعتبر فترة ما قبل التاسع عشر منذ مطلع الحضارة الغربية الحديثة فترة تأهيل لهذا القرن العملاق (التاسع عشر) وما جاء بعد القرن التاسع عشر فى حضارة الغرب حتى يومنا هذا يجسد قوة الدفع والانعكاسات المتعددة والمتنوعة التى فجرها ، ودائماً القرن التاسع عشر ، فهو بحق محور الحضارة الغربية السائدة . ما قبله أهل له وما بعده أصداء له .

ويكفى أن المذاهب والنظريات الكبرى ، بل وعلوم الإنسان المستحدثة فى غالبيتها تنتمى إلى هذا القرن : الاشتراكية ، الماركسية ، السوسيولوجيا ، السيكلوجيا ... والقائمة طويلة .

لهذا أن الألوان أن نركز فى تراث الآخرين على التراث الذى فرض وجوداً كونياً بروائع فكره ، وأن نستوعب إطاره الفلسفى استيعاباً معمقاً يصادر ما تعص به ساحتنا المعاصرة ، من مقتطفات سطحية وساندوتشية ، يقوم بكنسها بعد أن يتقدم بذاته ، كروائع لم تعد فى يد المقتطف والباحث عن الساندويتشات السطحية .

لهذا نطالب بنقل روائع الفكر العالمى المثل فى عصور الأنوار والمعارفين ، وبخاصة المدارس الوضعية والاجتهادات التى تمت فى فلسفة الإنسان وعلومه عبر القرن التاسع عشر ، وما تلاه .

وهذا ، بالضرورة سوف يسهل لنا مهمة أخرى ، نحن فى أمس الحاجة إليها ، وهى أن نأثى العلمية والمنهجية من أبوابها ، وحينما نقول العلمية والمنهجية نعنى بذلك ، وبدون شعور بعقد نقص أو مركباته العلمية المستجدة والمنهجية المستحدثة ، فلقد كانت لنا وفى حضارتنا اجتهدات علمية عملاقة ،

بل وأيضاً تطلعات منهجية تتوخى التراكم المعرفى . وآن الألوان أن نضيف إلى هذا البحر قنوات مما استجد فى عقل الإنسان : لأنه لا يكفى أن تتكرر المسميات والنعوت بشعارات علمية ومنهجية كصور وأشكال عاتمة المضامين ، إن لم تكن ملغاة فى مضامينها نتيجة لأنها تعنى كل المضامين ، وبالتالي لا تعنى أى مضمون محدد .

ومن ثم فتراث الآخرين علينا أن تتحاور معه ، ونستغرب فى مقابل من استشرق . ونعنى هنا بالاستغراب النسبة إلى الغرب : كما نعنى به الاستغراب كشعار للتساؤل المصر حول ما لدى الآخر بغية الاستنحواذ عليه حتى يتحول الانبهار إلى واقع من الاستقرار .

ويبقى بعد ذلك التساؤل المطروح : بأى وسيلة أو طريقة يتم التعامل مع هذه الروائع للفكر العالمى ؟ من يتولاها ؟ هل تترك لأفراد هنا وهناك كل يتعاش منها وبها كترجمة ونقل ، دون رقيب ، ودون بيئة متكاملة تغذى بهذا الفكر العالمى فى إطار مرحلى متكامل ، يضمن للبراعم والأجيال الصاعدة أن تأتى بدورها البيوت من أبوابها ، ولا تلقن لها أخطاء الساندوينشات ومغالطات 'المقتطفات' فى إطار منفصم ومقطع ومبتور ، ملئ بالخشو ، بل وتحميل تراثنا فضلاً عن تراث الآخرين فىضا من الافتعالات المختلفة على أنها روائع الفكر العالمى .

لهذا ننادى فى إطار تراثنا وتراث الآخرين وحفظاً على نقاء البيئة الفكرية أن يتم هذا التعامل ، ولكن فى إطار محدد ومبرمج ، نحاول أن نلقى ببعض المعالم دون أن نزعم وضع مخطط أو تصميم مفصل لهذه القضية الهامة .

من البداية هل المعنى هو أن تتعامل مع هذا التراث أم تتخاصم معه ؟ قضية التخاصم والتطاحن والنظر إلى تراث الآخر نظرة تهور وأندفاع مستبعدة من البداية لأننا نعيش فى عصر لم يعد فيه للمتهور أو المندفع مكاناً فى الصدارة وإنما يمزق فى أول مناسبة ليلقى به بين النفايات وذلك لما اكتسبه العقل من قدرة فائقة فى السيطرة على الأشياء وتوجيهها وما قدمته التكنولوجيا من إمكانات متعددة لتدويخ الخصم وتشتيته ، بل وتدميره — فالمنتصر الحق فى هذا العصر هو المنتصر بذهنيته وبما يستوعب وبما لديه

من إمكانات تتدرج من التعرف على الآخر ثم احتوائه واكتشاف قدرة التداخل ولذا فيما يعنى التراث نقول بالتعامل المرتكز على معيارية فهم الآخر وتفهمه سواء فى ذلك التراث ذهب إليه هيجل وتبناه من على شاكلته عبر النظرة التاريخية للتراث أو ما رآه هيدجر ومن اتجه بالتراث إلى محاولة لمسه فى المعاصرة كذلك رؤية التراث والتعلق به دفاعاً عن الذاتية خشية إذابتها فى ذاتية الآخرين .

ومهما كان وضع التراث فليست الغاية من تعامله مع تراث الآخرين هو الوصول فى النهاية إلى الإلغاء أو الاستقصاء وإنما احتواء قدرات الآخر فى محاولة لاستئناسها بها بإضعاف الجانب التوحشى فيها بالنسبة له وتحييده والتمرس على طبيعة المواجهة معها بعد التعرف على آلياتها وما فيها من فاعلية وتحكم ولهذا طرحنا ثالوث الاستيعاب لتراث الآخرين المنجسد فى حضارة الغرب السائدة ونعنى بذلك فلسفتها باعتبارها مرجعية الإحالة لقدرتها وأسسها العلمية وإمكاناتها المنهجية ولكن فى إطار متكامل يرتكز لا على الاقتطاف والتزويق وإنما على ما يتمشى وواقع تراثنا ويمكن أن يفيد فى إشراقه ويدعمه فى حوار مع الآخرين كمضامين واعية مرتكزة على ما فيها من أصالة لا كشعارات وقتية وموسمية عبر تقليد ومحاكاة الآخرين .

هذا العمل إلهام يتطلب جهداً جماعياً تتصدر فيه دون شك المنظمات المتخصصة فضلاً عن الجامعات الواعية بدورها من أنها أسست لتجسد إطار الجبهة والعملقة فى كل ما يبنى الأمة فكراً من خلال تأصيل ذاتيتها عبر تراثها أو تسليحها بإمكانات المواجهة مع الآخرين بعد استيعابه وتفهمه ليكون فى خدمة الواقع المعاصر المتطلع لغد أفضل .

تغص الساحة العربية الإسلامية حالياً بكثير من المنظمات سواء فى ذلك منظمات الجامعة العربية المتخصصة أو المنظمات الإسلامية وغير ذلك كما تغص بالجامع والأكاديميات وكلها بشائر خير تتجه فى مساراتها فيما يعنى محور التأصيل للتراث بإعادة صياغة التاريخ لا فى جولة رابعة بعد جولة المؤرخين وتاريخ المؤرخين ومقتضيات من تاريخ المؤرخين فى الوقت انحاصر

— كما أشرنا سلفاً في الحوار الخاص بقضية تراث المسلمين وتاريخ المؤرخين وعلمية التاريخ وفلسفته . وإنما تركز وتركز في جهدها وبصبر وإصرار لوضع علم تاريخ متكامل يعتمد على الفعل التاريخي عبر مختلف العصور في بناء مدقق ورصين ؛ لتقوم بعد ذلك بوضع فلسفة لهذا التاريخ بعد أن نقى وغربل من فكرانية المؤرخين وتزويقهم وانتماءاتهم لتعلل لنا مسيرة الأمة والوعي بحركتها التاريخية ؛ وهذا ليس احتكاراً للماركسية وإنما الماركسية اختطفته لتجعل منه رأس رمحها في مواجهة الآخر فضلاً عن وضع — وفي مرحلة تالية — سوسيولوجية لهذا التاريخ تكمل الصورة المتناسقة والمتجانسة لتراث أمة عملاقة .

كما تعمل هذه المنظمات والمجامع فيما يعنى المحور الثاني . وهو التعامل مع تراث الآخرين على نقل روائع هذا الفكر العالمى إلى تراثنا في شكل متكامل مرحلى متجانس مع خصائص أمتنا يهتم بها ينفع الناس لا بالزبد وما تأكدت فاعليته في تراثهم فلسفة أو علماً أو منهجاً على أن يكون تحت تصرف براعم الغد . لا أقول الأطفال فلنا نظرية تربوية تضع حدوداً جامعة مانعة بين ما يتعامل معه طفلنا وما هو خاص بشبابنا .

فالطفل تذكرة لمن يريد أن يتذكر يتعامل أساساً مع تراثه ولا نعطي له مضامين تراثية أخرى أو نساذج من تراث الآخرين حتى يظل إطار إحالته العقلية مرتبطاً بأرضيته وهذا لا يمنع أن يكتسب لغتين من اللغتين العالميتين كلغات فقه دون أن تنقل إلى ذهنيته مضامين حضارتها وحينما يصل إلى الرشد تفتح له كامل الأبواب ليتعامل مع تراث الآخرين دونما خوف من اهتزازه أو تذبذبه لأن أرضية الإحالة الذهنية لديه أصبحت ثابتة ونهائية . وهكذا يقدم لشباب الأمة تراث الآخرين عبر قدرات الخلق والإبداع والإقلاع فيه كما أشرنا فلسفة ومنهجاً وعلماً .

يتعرف عليها شبابنا عمقا ويستوعبها في محاولة لفهم الآخر موضوعياً وبالتالي حينما يتواجه معه ويتدافع لا يتدافع تدافع المتهور المنفلع الأجوف وإنما تدافع المستوعب الحذر القادر على المواجهة لا باسم المجازفة وإنما

من خلال مسيرة مدروسة تستعمل القدرات الذاتية مضافا إليها التحصين بالتعرف على قدرات الآخر .

وعليه فاهتمامنا بقضايا تراث المسلمين بالضرورة يملئ علينا - لا نقول الاهتمام بتراث الآخرين - ولكن تفهم هذا التراث حتى لا يضل الاختكار الاستمولوجي وقفا على حضارة الغرب بتراثها المسيطر يقنن للآخر نيس فقط ما يعنى طبيعة تعامله مع ظواهر الطبيعة عبر العلوم التجريبية ولكن طبيعة تعامله مع ذاته كإنسان . بمعنى : حتى يفهم العربى المسلم إنسانيته عليه أن يتعرف عليها عن طريق لندن وباريس وواشنطن وموسكو والقائسة طويلة . فحينما نقول - إذن - تفهم تراث الآخرين لا نقصد بذلك التبنى أو المحاكاة أو التقليد وإنما الاستيعاب لآلياته وقدراته الإعلامية اندافعة متمحورة حول الفلسفة والعلم والمنهج ، وما يسير فى فلصهم من روائع الفكر العالمى يبرز عناصر المضاء والإشراق . ومن ثم - ومن هذه الزاوية - فتفهم تراث الآخرين جزء لا يتجزأ من الاهتمام بقضايا التراث بصفة عامة دون مغالاة أو مبالغة دون إفراط أو تفريط ، ولكن علينا أن نحدد أرضية صالحة لهذا الحوار بين التراثين : تراثنا وتراث الآخرين دون أن يترتب على ذلك مصادرة أو استبعاد . وبما يتمشى بخصوصيات تراثنا العسلاق الذى ألق من البداية محورا حول أصول الإسلام نرانا وسنة وسيرة وظلت الاهتمامات الفكرية لغوية كانت أم أدبية أم كلامية تدور فى فلك هذه الأصول مفسرة أو شارحة أو معلقة أو مستشهد . وبعبارة مباشرة وبمبسطة تراث المسلمين عبر التاريخ تحت راية القرآن والسنة . والله ما ندر .

لهذا تطرح قضية المعيارية للتعامل مع تراث الآخرين وهل يمكن أن تعطى لها حيثيات على أنها ضرب من ضروب الاجتهاد المتفتح أو الاجتهاد المدعم والمأصل للعقل ليزيد من اكتشاف أصالة الأصول . وهذه بلا شك قضية جديرة بالعرض ، قضية الاجتهاد بين الإسلام وتراث المسلمين ، ولم لا ، تراث الآخرين ؟ .

فيما يعنى تراث الآخرين طرحنا ما أمكن معالم فى تصورنا قد تأخذ بعين الاعتبار فى هذا المضمار .

وآن لنا الآن ، وقد أشرنا إلى الاجتهاد أن نحدد وفي إطار متواضع
وموجز ما أمكن لقضية الاجتهاد من خلال موضوع محدد وهو تراث
المسلمين الذي بدوره سيدفعنا إلى موقع الإسلام في الاجتهاد المتطلع إلى
تراث المسلمين ، وهذا هو موضوع الحلقة الأخيرة من هذا الحوار
المتواصل .

* * *

الاجتهاد بين الاسلام وتراث المسلمين

ونصل بحلقائنا الى قضية تغطى العديد من تطلعات الساحة الفكرية العربية الاسلامية ، بل وتنصدر وتصبح الشغل الشاغل نتيجة لطبيعة الاحداث والوقائع التى فرضت نفسها ونعنى بذلك وبصفة مباشرة الاسلام المتطلع بأجياله القادمة والعصر فى قمة تمرده وقوته والرغبة فى احتواء بل وخنق الآخرين ، نحن نعيش وهذا القرن يكاد يلفظ أنفاسه فى مواجهة كبرى متعددة تشغل ذهن القيادات كما أنها أصبحت متعددة فى اهتمامات النخبة وتشكل أملا وتطلعا بالنسبة للملايين ، ونعنى بها قضية الاجتهاد من اين نبدأ وكيف وإلى اين ، وما هى الحدود والمعايير ومن ولماذا ؟ .. تساؤلات متعددة يطرحها المسلم ، بل ويطرحها الآخر على المسلم .. أما تحديا ، أو تفهما .. كيف نجتهد ، وهل هذا الاجتهاد الذى تم هو بدوره يغطى عصرنا ، وما يستجد من عصور ، تتطلب ضروراتها الاستمرار فى مسيرة الاجتهاد .. توقف أو استمرار .. اكتفاء أو تطلع .. اجتهاد كما اجتهدوا .. وكما يمليه العصر .. كل هذا مع الالتزام بمعيارية الأساس الاول وهو لا اجتهاد مع النص .. لقد استحدثت امور أن لم تتطلب الحل أو الحكم فعلى الأقل تتطلب التفهم والتفاهم وتحديد الموقف على ضوء ذلك الحكم المتطلع لا يمكن أن يقف بطموحاته ويوقف معه الزمن ، ولكن دائما يظل هذا المسلم الذى يسمى لكى يكون وفيما لاسلامه لا أن يفالط ليطلب من الاسلام أن يكون وفيما لرغباته وغرائزه .. الاجتهاد قضيتنا فى هذه الحلقة ، ماذا عن قضايا تراث المسلمين فى ضوء الاجتهاد وأبعاده المختلفة ؟ ..



الاجتهاد يعنى بذل الطاقة والجهد والسعة فى سبيل ما يؤديه المجتهد لاستخراج الأدلة للأحكام الشرعية والفقهية ، ومن المعروف كمثال أن

أين حزمه أعلى مضامين الاجتهاد . ويمكن لمن يراجع الأصول لديه أن يستزيد منها واجتهاد لا يعنى بالضرورة انه قد يصيب في اجتهاده ولكنه وبنص الحديث الشريف له من الأجر على اجتهاده حتى ولو أخطأ مادامت لديه النية الخالصة والعلم وإن أصاب فله أجران .. ولا جدال في أن انفقاء باستنباطهم لأحكام الشريعة ينصرون من بين المجتهدين في الإطار الفقهي .. ومن حيث المبدأ فالاجتهاد مكمل لا أساس : لأن الأساس هو النص ، فلا اجتهاد مع وجود النص من حيث المبدأ ومع هذا فيمكن تناول النص بالشرح والتفسير .. ومن ثم نرى أن الاجتهاد ليس أحادي الموقع والمضمون ، إنما هو متعدد العطاء بتعدد تياراته ، شريطة التزامه بالأصول .

وكثيراً ما تطرح قضية الالتزام بالاجتهاد على أنه فرض عين ، أو فرض كفاية وهنا تتداخل التيارات الفكرية المتعددة في حضارة المسلمين عبر مختلف العصور بين من يرقى به إلى مستوى الغاية والمآل باسم تطورات الذهن والقدرات العقلانية والفلسفية ، وبين من يرى فيه مجرد ضرورة يلجأ إليها في بعض القضايا النظرية المستجدة نتيجة لتأخر البيئات ، واختلاف الأزمنة بهدف الارتقاء بالبشر الإسلامى إلى مستوى القيم الإسلامية التى لها طابع الخلود وليس العكس - بمعنى النزول بقيم الإسلام الغالدة لتصبح وسيلة لتبرير سلوك بشرى ينتهى بانتهاء زمنه ..

وهكذا نرى كيف نجتهد وعلى أى أساس نجتهد ، وهل الاجتهاد يعنى إلغاء من اجتهد من قبل ..

كل هذا من الأولى أن يطرح في إطار وعلى ضوء معيارية محدده وهى من حيث انتهى المجتهدون المخلصون نبداً لا لنجتهد في عصورهم ولكن لنكمل مسيرة الاجتهاد بالنسبة لعصرنا حتى يكون إيقاعاً لهذا الاجتهاد ، وتجانس يتواءم مع ما للإسلام من خلود وللمجتهديه من عبقرية ، ومن ثم فلا نخشى مجتهداً باسم مجتهد آخر أو إلغاءه .. هذه من الأولى أن تطرح في تواجه الآراء ، إن حسنت الذية فهو تواجه بناء . وإن ساءت - لا قدر الله - نالنية مردودة لأهلها .

ويبقى التساؤل .. هل وضع للاجتهاد مقاييس محددة يلتزم بها كل

مجتهد في صورة مبادئ مقنعة ومتفق عليها .. أم أن الاجتهاد كما أنه مرحلي واستكمالي للأصول يظل بهذه الطبيعة مادامت الأجيال تتداول الأيام .. فلكل زمان رجاله في الاجتهاد شريطة أن يلتزموا بما سبق لدى السلف والخلف الصالح فلا يتناولوا على قضايا طرحت في عصورهم وبت في أمرها باسم الاجتهاد وتواجه الأفكار وأصبحت عنصراً من تراثنا تعترز به كبقية العناصر ، وإنما يتفرغ للاجتهاد وفي قضايا عصرهم وما أكثرها ونعني بذلك قرننا وما استجد فيه من تطلعات ومتطلبات فرضها الحوار الحضاري ، بل والتفاعل الحضاري باسم حضارات سائدة غربية منطلقة لا نقول لاختواء الآخرين ، وإنما لامتصاصهم وإذا بتهم في أمعائها ..

هذه هي قضيتنا في الاجتهاد في هذا العصر ، ومع هذا لا نصل إلى حد القول إنه يترك لكل مجتهد أن يتصرف حسب رغباته وانتماءاته وأغراضه وأهوائه مستغلاً في ذلك هذه الرحابة التي طرحها الإسلام ، وهذا التسامح والتجاوز لإطار الانطواء والتحصن والتكف ..

هذه القضية إذن ستجرنا إلى التساؤل حول معايير الاجتهاد في هذا العصر وكيف يمكن أن يشكل حداً أدنى للمفكر المسلم المؤهل كي يتعامل مع عصره انطلاقاً من اعتزازه بإسلامه ، وتمسكه به ، لا التزلق تحت ثقل العصر كي يجعل من هذا الإسلام إسلام خاص به منه يبدأ ، وبه ينتهي ..

علماء الإسلام سلفاً وخلفاً وضعوا لنا معيارية للاجتهاد نقلع من الالتزام بالأصول .. الكتاب والسنة والإجماع ، والتعمق في فهم المدارس الفقهية مدينية أو كوفية ، مشرقية أو مغربية توسع من إطار الإجماع والقياس . والاستحسان ، أو تعطى لمصادر الأصول الأولوية المطلقة باعتبار أن القرآن والسنة يمثلان تشريع العقل الكامل .. القرآن موحى به . وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام الصحيحة لا يتطرق إليها شك ، فهو لا ينطق عن الهوى - صلى الله عليه وسلم - بنص القرآن الكريم ..

ونصل باجتهادنا إلى عصرنا حتى نجيب على ما طرحناه من تساؤل في مطلع هذا الحوار بالاجتهاد ، وهو كيفية توظيف المستجدات باسم العقل البشري في هذا القرن ، وما أحرزه من تخصصات وعلوم ، يحاول بعض

نغرضين أن يوظفها للنيل من تراث المسلمين لا لتدعيه ، وإعطاء المزيد من الإشراف لما قدم وأنتج ونحت هذا الشعار نت بلا شك الحلقات السابقة فى هذا الحوار المتواصل ، وهى محاولات متواضعة لا نقول تضع الأرضية لتصورات القادمة حول تراث المسلمين وإنما إسهام ممكن أن يقدم ويقرأ ليشكل تياران آخران وهو : تيار علوم الإنسان فى خدمة الإسلام لا علوم الإنسان على حساب الإسلام وإنما لحسابه ومن ثم فلنا أن نتساءل وفى خضم تناقضات هذا العصر حول استثناس قدرات ذهن القرن العشرين المسلم ليضيف إلى ما أضاف المجتهدين لا لي طرح علامات استفهام على اجتهاداتهم وهل أصابوا أم أخطأوا فهذه قضيتهم وقد عاتوها وقدموا لنا من العطاء ما نعتز به ، وبخاصة فى عصرنا العباسى وعصرنا الأندلسى المغربى وكيف أن العقل ليس فقط رد الاعتبار لذاته وإنما الاعتبار للمسلم فى كل مكان ، ولا تتناول لنقول رد الاعتبار للإسلام فالإسلام ليس فى حاجة لمن يرد له الاعتبار ، فهو فوق كل اعتبار ..

إذن هناك اجتهاد . كما أسلفنا تم عبر تاريخ هذه الأمة فى مراحلها المختلفة وكل أدلى بدلوه ، ونحن بدورنا علينا أن نجتهد - ولم لا - ثقة بنا أولا فى مصداقية رسالتنا وتجاوزها للأزمة والأمكنة - ولم لا ؟ - ثقة منا فى مستقبلنا .. فإن كان الحاضر متوعكا نتيجة لسوءات فى التوظيف على مستوى عطاء الطبيعة والبشر مصاحب بسوء توزيع ليس فقط على مستوى المردودية ، وإنما أيضاً على المستوى الديمقراطى ، هذا التوعك الظرفى لا يسكن بحال أن يشكل حاجزاً أمام تطلعات رجال الغد وإليهم نتيجة بهذه الإسهامات التى يسكن أن تلحق بما وضع من معايير ، وإنما تطرح فى حضور الأصول لا فى غيبتها وإشراقا لها لا تعتيما لمضامينها .. فالمسلم المعزز بأصوله والمعتز بالمجتهدين ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى مختلف العصور .. مطالب اليوم بأن يوظف - ولحسابه - علم الإنسان . هذا العلم الذى نأذن لأنفسنا أن نطرح ما يمكن أن يشكل إطاراً تفهيمياً يتعامل المسلم به مع الإسلام . بمستوياته الثلاثة علم الإنسان فى أغواره شعورياً ، ولا شعورياً (السيكولوجيا) (علم النفس) ..

وعلم الإنسان في بيئته وعلاقاته الأسرية ، والاجتماعية ، والمجتمعية (الدولة) (السوسيولوجيا) (علم الاجتماع) ..

وعلم الإنسان في نتاجه كتناليد وعادات وأعراف بمعنى تراثه المتجانس ثقافيا ، والذي يتسيز في سيرته كتاريخ طبيعي واجتماعي وثقافي ، ونعنى بذلك الانثروبولوجيا بمعنى الإنسان في أبعاده الثلاثة .. حواراه مع ذاته ، ومع ما يحيط به من الآخرين ، ومع تراثه ..

وهذه التخصصات الأساسية الثلاثة إن كان البعض قد حاول أن يستغلها لحاجة في نفس يعقوب لينال من ورائها من الدين الخالد .. فإن ما سطوا للتأمر عليه كانوا هم أول ضحاياها ويبقى علينا وباسم الاجتهاد أن نتساءل عن كيفية توظيف هذه التخصصات لتصبح سلاحا لنا لا علينا .. وهذا بدوره يتطلب توسيعا لإطار التوظيف لما حول هذه التخصصات الثلاثة من علوم بينية (بين بين) وما استجد من قدرات في وسائل البحث وطرقه وما ابتكر من قدرات متجددة في ترويض المنهج شرحا وتفسيرا وتحليلا ، ونعنى بذلك الدراسات الاقتصادية والديمقراطية والتاريخية ، وكما أشرنا أعطينا بعض الأمثلة في الملفات السابقة .

ولا شك أن الأجيال القادمة ، بل وما تزخر به ساحة الفكر الإسلامي المعاصر من ذهنيات مؤهلة قادرة على أن تعطى لهذا الاستثناس والتوظيف ما يجعله إطاراً متميزاً يفخر به القرن الخامس عشر الهجري كما تفخر نحن بما سبقنا من قرون الاجتهاد التي كانت قلاعاً للمجد ، وتجاوزت بغطائها بؤر الضياع ..

ولهذا - وكخلاصة في تصورنا - بقدر ما المجتهد المعاصر يعتز باستيعابه المعنى لموضوع اجتهاده ، وهو تراث المسلمين وعطاء حضارته جدير به أيضاً أن يعتز بمستجدات عصره لا ليكون من خلالها وبإسلامه في خدمتها ، وإنما أن تكون هي في خدمة الإسلام بغير افتعال ، وباجبذا لو أضيف إلى هذين المحورين محور ثالث مطالب به كمجتهد تفرع لهذه القضية المصيرية وهو أن يتعرف على واقعه المعاصر في عين المكان ، لا أن يكتفى بالنظر إليه من نوافذ المكاتب وما يقوله الآخرون عنه .. فهو يجب ساحة أمته شرقاً وغرباً ،

يميناً وشمالاً ، قرى وبوادي ومدنا وعمران يتساءل ويتطلع وسوف
يكتشف أن هذا الواقع سيكون عاملاً من عوامل تشجيعه على الاجتهاد
لا إيجابته وضياعه ، فأمة الإسلام الغنية بملايينها المؤمنة متطلعة إلى هذا
المجتهد المؤهل في إسلامه والمؤهل في عصره - ولم لا ؟ - المؤهل في تعرفه
على واقعه المعاش فيه ، وكما هو قبل أن يصبح ما يجب أن يكون ..

أما إذا كان المعنى بالاجتهاد التساؤل ، والنقد ، والتمحيص لقدرات
ذهنية هي في الواقع تحتّمى خلف مسميات وشعارات تبذر من خلالها بذور
الشك والتشكيك باسم تمرد العقل وحرية تعامله كما يريد ، وبالطريقة التي
يريد ، ومن أجل الهدف الذي يريد ؛ نقول لهؤلاء المقنعين بعباءة الاجتهاد :
القضية لا أساس لها من الموضوعية ولا يمكن أن تتداخل المعايير ليلغى العقل
باسم العقل إذ من المسلم به أن النبوة وحوار السماء قضية إيمانية يقبلها
العقل ، ويتعامل معها بقناعاته النسبية ، أو يرفضها ، ولا إكراه في الدين .
أما اللجوء باسم التكبر والمكابرة إلى استبدال الإله بالإنسان ، لنقول لهذا
الإنسان البديل ، ماذا خلقت في هذا الكون ؟ ، اقتداء بهذه الآية الكريمة
« اقرأ باسم ربك الذي خلق » (١) وأما أنت في هذه الضاحجة الهامشية من
نظام شمسى بدوره هامشى بين الأنظمة الشمسية الأخرى بمجراتها
وممراتها . عليك أن تجول ، وتعلن أنك على الأقل إن لم تستطع أن تخلق
فقد استطعت أن تتعرف على كل أبعاد الكون ، ومن ثم تعلن أنك المكتشف
لأسرار الكون . ولماذا نذهب بعيداً مع المكابر والمتكبر ونطلبه بخلق الكون
أو عبوره على الأقل في كل جهاته ، نطلبه وبكل تواضع ، وبقناعة إيمانية
أن يكتشف لنا سراً متواضعاً في متناول يده ، وهو نفسه التي في أعماقه ،
تعانى منه ويعانى منها . مرة شريرة ، ومرة بريئة ، مرة أمارة وأخرى
مطمئنة راضية ، هل استنفاع أن يسيطر على نفسيته ومن ثم يخفف من حدة
مغالاته ليس فقط في شراسة شهواته وتطلعاته الغرائزية وإنما في كبرائه
ومكابرتة وتكبره ، وقد جاء محمولا لهذه الدنيا محمولا على اليدين . عاجزاً
أن يقف على قدميه ، ويرغم أن يخرج منها بنفس الطريقة محمولا ، كما
جاء .

نقول لهذا الإنسان الذى يتكبر ، ويتبجح بتساؤلاته ، رفقاً بنفسك قبل أن تمارس الرفق بالآخرين ، إنك كالمنبت المتهالك الذى لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

الاجتهاد إذن فى هذه المبادئ المقدسة الخالدة ، من المفروض أن يطرح بشرطياته ، كدين خالد شامل أوحى به لخاتم الأنبياء وما يحاول أن يناقشه المكابر فى القرن العشرين فوقش فى حينه وحافظ الملف بهزيمة نكراء لكل المكابرين والمستكبرين . وأشرق نور الله على الأرض ورفعت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى ، وانتهت بذلك مرحلة التبشير والإنذار للبشرية . وبدأ تراث المسلمين وهذه قضية أخرى نطرحها للاجتهاد ، ولكن كيف نجتهد ، وعلى أى أساس نجتهد وهل الاجتهاد يعنى إلغاء من اجتهدوا من قبل ؟ أو تفضيل البعض على حساب البعض الآخر ؟ أو استكمال المسيرة ، وأخذ مشعل الاجتهاد بعد رحيلهم ؟ وهل وضعت لهذا الاجتهاد مقاييس محددة ؟ أم أنه متروك بدوره ليجتهد كل حسب اجتهاده ؟ هذه تساؤلات سنتحاور معها بعد تحديد مفهوم الاجتهاد وما اتفق عليه بين علماء الإسلام سلفاً وخلفاً ، ثم ما حاولنا أن نطرحه بدورنا عبر هذه الفترة المعاصرة ، من كيفية توظيف المستجدات باسم علوم الإنسان الحديثة من علم التاريخ ، وفلسفته والتخصصات الإنسانية من مختلف فروعها وكيف تستأنس لتصنيف مزيد من الإشراق والعطاء لهذا التراث .

* * *

قضايا تراث المسلمين في الفكر العربي الاسلامى عبر هذا العصر

ونصل في النهاية الى الارتباط بنقطة البداية ونعنى بذلك قضايا تراث المسلمين وما يروج في فكرنا العربي الاسلامى عبر هذا العصر .. هناك من يرى أن الفكر العربي الاسلامى بخير في عصرنا وأعطى وعبر عن هموم أمته أصدق تعبير .. وهو وان تأزم فما ذلك الا نتيجة لازمتها ..

وهناك من يرى العكس .. أن الفكر العربي المعاصر هو فكري يبحث عن ذاتيته ، بل مازال في حرف الألف من ابجديته ، ونعنى به تحديد الهوية .. هل هو فكر عربى وإسلامى - بواو العطف - أو فكر عربى اسلامى ، أم فكر اسلامى بلغة عربية ، أم فكر عربى بصياغة اسلامية ..

تعددت التيارات ، بل وتواجهت وللأسف في العديد من المراحل وهى في قمة سخوتها وتعبثتها لم تأخذ الحيطة حتى من الالفاء والمصادرة فقد وصل الأمر ببعض من هذه التيارات الى الحد أن يجد في الفاء التيار الآخر تحقيقا لذاته والعكس .. وغاب عن الجميع أن الالفاء والمصادرة سلاح ذو حدين ، وانت تصادر تصادر ، وكما تلفى تلفى .. لهذا نختم حوارنا حول قضايا تراث المسلمين بتحديد هذا الموقف الذى هو بقدر مبدئيته ، بقدر مصيرته وغائيته ، فهو للأسف يطرح كبدية للأقلاص في التفكير والطرح كما نكتشف في النهاية ومن خلاله يحدد المعيار في التقنين المصرفى كخاتمة لهذه الحلقة .



لقد كان من المفروض أن نتطرق في حلقتنا الأولى ونقلع بحوارنا من طرح قضايا تراث المسلمين في الفكر الإسلامى والعربى في هذا العصر وكيف

أن هذا الطرح تعدد في مرامييه وتباين في أهدافه ، ولكننا فضلنا مع هذا أن نتحاور أولاً مع قضايا تراث المسلمين ونحدد من البداية منعاً لكل التباس أنه ليس للإسلام قضية ، وأن قضايا تراث المسلمين موضوعياً لا بد من تحديد إطار ثابت تاريخياً يتمتع بالصحة ومصداقية الوقائع والأحداث ما أمكن . وهذا لا يتأتى دون تدخل واع لعلم التاريخ وفلسفته ، وسلسلته . لننتقل بعد ذلك إلى الحوار مع إمكانات توظيف علوم الإنسان الحديثة ، كل في إطار تخصصه ، لنكمل حوارنا بالتصدي لأعمال المستشرقين في محاولة مدخلة لتقنينها . وهذا بالضرورة دفعنا إلى تساؤل آخر وهو تراث المسلمين وتراث الآخرين .

وكان علينا قبل أن نصل إلى هذا الحوار أن نخرج على قضية الاجتهاد باعتبارها أساسية في كل حوار مع قضايا تراث المسلمين ، حيث إن الاجتهاد يتمتع بمعيارية ترتكز على قواعد واضحة ، من الناحية الأصولية ، كما أنها بقدر ما تفتح عليها تفتح بنا على مشارف كل قدرات التعامل المعطاء فيما يعنى تراث المسلمين .

وهكذا كان طبعياً أن يؤول بنا الحوار في النهاية إلى الفكر العربى الإسلامى في هذا العصر وكيف بدوره تصدى لطرح قضايا تراث المسلمين بين ملتزم بالأصالة ، ومدافع عن السلفية ، ومتفتح على حضارة الغرب السائدة بين متنكر لذاته بتنكره لتراثه فهو في وضع المتنكر لأبيه حينما تنكر لماضيه وقد يصل به هذا التنكر إلى مستوى اللقيط الذى لا مرجعية له ولا إحالة . أياً كان المبرر . وكيفما أعطى من الحثيات المفتعلة التى تصل به في النهاية عبر شعوره المشلول إلى تحويل حقائقه التاريخية إلى أساطير ، في الوقت الذى يعمل المواجه له والمغتصب لأرضه على أن يحول أساطيره إلى حقائق .

ومع هذا لا نعمم في طرحنا بل سنحاول دون الدخول في تفاصيل ستجد مكاناً لها في دراسة مختصة عن التراث والفكر المعاصر في ساحة أمتنا الإسلامية لا مجرد حوار حول قضايا تراث المسلمين ، أن نحدد المعالم الرئيسية لطرح قضايا تراث المسلمين في فكرنا المعاصر إسلامياً كان أو عربياً ،

ومن البداية قد تبدو « أو » هنا في غير مكانها باعتبار ان اشائع في استعمال « إسلامي وعربي » إما أنهما يشلان وجهين لجسد واحد هو إسلامي أساساً . وإما متعاطفين باعتبار أن الإسلامى أعم من العربى . بل من المفروض أن كل ما هو إسلامي بالضرورة والالتزام عربى لو أننا اقتنيد بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليست العربية لأحدكم من أب أو أم ، وإنما هى اللسان » . وهكذا من المفروض على كل مسلم أن يلتزم بلغة القرآن كلسان وتعبير عن البيان . ومن ثم فلا يسكن تصور مسلم دون أن يكون بغير لغة القرآن يتكلم ليعبر عن وجدانه الإياني ويلتزم بإسلامه قلباً وقالبا .

أما العربى . فيمكن تصويره بلا إسلام على مستوى الاقليات التى تعيش فى رحاب بلاد الإسلام . وبصفة خاصة فى الأرض والوطن . ومع هذا فنن الذى مد هذه الأرض . ووصفها بالعروبة ؟ هو الإسلام . فهو لم يكتب بمد الأرض وإنما مد اللغة التى يحاول البعض الآن أن يتخذ منها وسيلة للتمييز بين العربى والمسلم وهو الذى مد التاريخ الذى يحاول أيضاً - بعض آخر - أن يراه تحت مقطوعات عربية . ولهذا كان من المفروض أن الإسلام يعنى العربية كلسان وبيان كما أن العربية هى تعبير عن الإسلام .

ولتأخذ الأمور على علاتها فى انتظار غد أفضل يضمن لنا وحدة القلب مع القلب . ولقاء اللسان والبيان مع الالتقاء والكيان . وتعامل مع تناقضات هذا العصر كما هى قبل أن تأمل فيما يجب أن تكون عليه . لدينا فلا فكر إسلامي أصيل فى هذا العصر طرح قضايا تراث المسلمين ولدين من بنى تسمية فكر عربى سواء بحسن نية أو بنية مبيتة . وحاجة فى نفس يعقوب يحاول أن يدسها . ومن خلالها يلتقى بسمومه لتكثفه معاناة هذه الأمة فى فكرها كما تعاني فى وجودها وحياتها اليومية ولنبدأ بالفكر الإسلامى المعاصر ونعنى به الفكر الذى تبنى راية الإسلام كشعار ، ولم يتصور بديلا لها أياً كان . هذا الفكر كيف طرح قضايا تراث المسلمين ، بعد دفاعه ونصديه لكل من يحاول الزحف نحو الفترة الخالدة المقدسة وهى فترة النبوة لجعل منها بدورها تراثاً قابلاً للتقنين والأخذ والعطاء . بل والتفنيذ والقطيعة ، وتصدى للزاحفين كاشفا لنواياهم أن العصر النبوى للتعامل معه . إما أن

تدخل إليه من باب الإيمان ، وإما أن تتواجه معه معلنا التنكر ، ورافعا لراية
الإلحاد . ولا ثالث لهما . ومن ثم نحرص هذا الفكر الإسلامى على أن يدعم
ويحتمن العصر النبوى الخالد ضد كل دخيل أو متطفل ، واجتهد فيما تلى
ذلك من عصور ملتزماً بأسس الاجتهاد فى تعامله مع التراث الذى له طابع
الأصولية ولم يغفل الجوانب الأخرى من التراث أدبية كانت أم سياسية ،
أم اقتصادية . وكان يهدف فى كل هذا إبراز عطاء هذا التراث وتكسلة
مسيرة الصحابة والتابعين والسلف والخلف الصالحين . ولم يغفل بالإمكانات
المتاحة له واقع المواجهة حاولوا النيل من الإسلام باسم تراث المسلمين .
سواء من أبناء الدار أو من المستشرقين الداعين للإحباط والإنكار .

وفى إطار هذا الفكر الإسلامى المعاصر تعددت حركات الإصلاح
الإسلامية بما فى ذلك الحركات لسلفية . وتتنوع فى مواقفها بين صرامة
الانتماء الأصولى ومرونة التعامل مع الآخرين نذكر على سبيل المثال
لا الحصر إنطلاقاً من الوهابيين إلى بقية السلفيين فى المشرق والمغرب والإخوان
المسلمين مروراً ببعض الوجوه الإصلاحية التى تحاول أن تكمل طريق
الأفغانى ومن حوله . كأبو الأعلى المودودى ، ومالك بن نبي ، وعلال
الفاسى والقائمة طويلة ، وتوخينا الحصر .

وتبقى قضية ما ظهر تحت نسمية الفكر العربى فى هذا العصر لي طرح
قضايا تراث المسلمين ، كيف ؟ ولماذا ؟ وما هى تياراته وأهدافه ؟

حينما نتكلم عن العربى لابد من نظرة عبر نافذة التاريخ على ما تم من
قبل من إبراز لعروبة عشائرية وقبلية عشية ظهور الإسلام أم فى العصر
الأموى ، حيث حاولت بعض الانتشاءات العربية أن توظف الإسلام لحسابها
ليصبح بدلاً من أن يكون فى خدمة البشرية يتحول لخدمة الأموية . وذكيت
النعرات والعصية مما أسهم بالضرورة فى خلق رد فعل بين ردود فعل أخرى
مختلفة مثلاً فى الشعوبية ومذكياً بجانب من الشيعة والتشيع . لقد تم الطرح
العربى آنذاك طرْحاً يبد جذوره الجاهلية متأسلة ومدعمة بحساساتها بعد
صبغها بما يؤائهم مسيرة الإسلام والفتوحات .

وها نحن اليوم بين الفعل ، ورد الفعل ، ولنأخذ كمثال ما برز منذ موقف

العثمانيين من العرب بعد تغيير المواقع والأدوار . وترتب على ذلك في الفترة الأخيرة للخلافة العثمانية ، وما صاحبها من نهل واستغلال لضعفها ومرضها في شكل تركية لنعرات عانت من سيادة العثماني ، بل وفي بعض الأحيان قمعها في أرض العروبة التي شع فيها الإسلام ، وقد كان طبيعياً أن يصاحب البحث عن الهوية تداخل عناصر ارتأت في هذه الهوية غذاء لها لتوسع من المواجهة مع العثمانيين لتصبغها كمواجهة مع الإسلاميين باعتبار أن انهيار العثمانية هو انهيار للإسلامية . وأن البديل هو الذاتية العربية .

وقد كان طبيعياً ما جد في ذلك عن بعض الأقليات التي وجدت في ذلك متنفساً لها . وانعكس ذلك على الحياة الفكرية ودعاة الإصلاح بين ملتحم مع ما تبقى من الخلافة العثمانية ليعيد لجسدها المريض الحياة ، وبين باحثين عن بديل مجسداً في العروبة ، التي انطلقت في البداية كما أشرنا كرد فعل ليبحث بها عن مقومات ذاتية خارج الإسلامية ، وهنا بدأ موكب الاقترال وتنميط المقولات ولوى عنق التاريخ ، حتى ابن خلدون لم ينج من هذه الأعاصير ، كما هو معروف . وهل يعتبر من رواد القومية العربية أو من أعدائها الألداء ، نظراً لما قاله في البداوة والعربي ... الخ .

إن كان لا يعنينا أن نطرح القومية العربية كقضية سياسية ، فالذى يعنينا ما اتخذ من مواقف دفاعاً عن فكر عربي كبديل لفكر إسلامي أو مواز له في الوطن العربي ؟ .

فكر عربي هو في الواقع يجسد تيارات متعددة إن كان قد جمع بينها الانتماء إلى الفكرانية العربية ، فقد تنوعت في شتاتها ، بل وفي وسائلها وفي غاياتها ، وسنحاول أن نركز على أهم هذه التيارات التي تحمل راية وشعار الفكر العربي بنزعة الذاتية كمواز أو كبديل للإسلامي .

ولنبداً بتيار الفكر العربي الذي يزعم البديل متخذاً من الإسلام إطاراً متجاوزاً في هذا العصر ، نتيجة لواقع ألزم الفكر بسعطيته ومتطلباته . فالمد العلماني من ناحية ، والأطروحات التي تركز على مادية التاريخ وتنادي بالتغيرات الجذرية ، فضلاً عن ما اتخذته العقل كشعار له ، ونعني بذلك تصفية الحسابات مع الميتافيزيقي والغيبي وكل مالا يمكن إدراكه وإعطاء

الحيثيات الموضوعية له . ومن ثم فالدعوة إلى فكر ديني هكذا يقولون ، أو يدور حول الدين ، ويتحرك في فلكه هي دعوة إلى إلغاء الحاضر واستبداله بالماضي . وعليه ، فالفكر العربي مطالب بأن يتخذ من القطيعة شعاراً له حتى يمكنه أن يتحرك دون قيود أو سلاسل تحد من إشرافه ، ومن عجب أن هذا الفكر البديل ، وهو أساساً جاء ليدافع عن الحاضر متطلعاً إلى المستقبل إذا به يسقط بدوره في هذا الماضي الذي استبغضه ، ويتخذ منه مادة أساسية ليبرهن على وجوده ويقدم حيثياته . فهو في الواقع فكر من الإسلام لإلغاء الإسلام حتى أن بعض المحاولات المحدودة التي بحث لها عن أرضية في الفكر العربي غدة الجاهلية ، وقبل ظهور الإسلام ساعة لبناء شخصية عربية متميزة تدور حول ما قدمه هذا الفكر ومع هذا ظلت كمحاولات مبتورة وتعاني من طفيليات في توثيقها ، وهل فعلاً تركز على أرضية تتمتع بالمصداقية التاريخية ؟ أم أن ما تعانيه كفكر جاهلي لحقه بدوره الانتحال والتحريف ، بل والتقويل ؟ ولهذا ظلت البدائل التي تسعى لمواجهة الإسلام المشرق في الوجدان ، والمعبر عنه باللسان ، والمرتكز على امتداد أرض ما كانت لو لم يكن .. بإسلام جسدت فيه الخطيئة ، ليصبح غطاءً لجسد مفتعل باسم فكر عربي بديل ، كان من المفروض على هؤلاء النزاعيين أو الأدعياء أن يبحثوا عن أرضية موضوعية ، يتشكّل فيها عطاء الفكر العربي المتميز عن الإسلام ، ليس فقط في عنوانه وإنما بمضامينه وتطلعاته حاضراً ومستقبلاً بدلاً من تقمص أقنعة تغطّي ماضياً افتعل ليعتم ليس فقط- الماضي في ثوابته الأساسية ، وإنما الحاضر ليصبح ماضياً والماضي يصبح حاضراً بدوره . فالبديل العربي كفكر وقف عند حد العناوين ، والمسميات ، بل والشعارات ، وعجز عن تحديد أرضيته بل وعجز أيضاً في أبعاده وتطلعاته ، فهو بالتالي مجرد نموذج مشوه ، لفكر اتخذ من الإسلام ذريعة لتدمير الإسلام . وما استطاع أن يحقق أغراضه في النيل من قداسة الإسلام أو يعم أطروحاته المغشوشة حول تراث المسلمين ، فالفكر العربي الذي يزعم أنه بديل للإسلام هو فكر منه وإليه . أيّاً كان مصدره سواء من أصحاب حاجات يعقوب ، أو من الحاقدين على الإسلام أو المتبنين لمبدأ « خالف تعرف » . أو المتشدقين بسميات لم تهضم ولم تستأنس .. بشتات من هنا

وهناك : تفرق وتعدد في كل شيء . ولم يلتق إلا في قاسم واحد هو 'لحقد على الإسلام والتنكر لرسالته ، وحمل البغضاء للمسلمين . سواء أكان هذا من بين صفوفهم ، وظلم ذوى القربى أشد ، أو من المواجهين للإسلام في الساحات الفكرية خشيّة أن يشرق فجره ، وتسطع شمسُه ، وتعود له مشروعية الفكر من جديد .

بقى علينا التيار الثاني : وهو الذى لا يسعى لاستبدال الفكر الإسلامى بفكر عربى ، وإنما يحاول بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حفر قناة موازية تميل إلى تبني (واو العطف) لا (أو) الاستبدال . بمعنى فكر عربى وإسلامى أو فكر إسلامى وعربى ، هذا فيما يعنى (واو العطف) . بينما الزاعمين بالبدل تبنيوا الفكر الإسلامى . أو الفكر العربى ، هذا أو ذاك الفكر الإسلامى له الماضى والفكر العربى له الحاضر والمستقبل ، وقد رأينا إلى أى حد . خابت هذه النبوءة وولدت ميتة في مهدها .

بينما التيار الثانى وهو المتبنى (لواو العطف) يتلمس وسائل إن لم تصل إلى حد القطيعة والاستبدال فهي كثيراً ما تلجأ إلى التفضيل وضرع الأولوية ، فمن يسلون إلى أن الفكر أولويته إسلامية ، وبيانه ولسانه عربى . يتباينون عن من يتبنون العكس . أى أن الأولوية للفكر العربى وما الفكر الإسلامى إلا نعوتاً وغطاء . ارتكزت مشروعيتها على فترات ساد فيها التوجيه الإسلامى للفكر على حساب البناء العقلى لهذا الفكر . عبر هذه القنوات نشاهد أيضاً شتاتاً يتداخل في اختياراته . بل وكثيراً ما يتداخل في تعبيراته ويحتسى في المترادفات ، وتغلب عليه النزعة الظرفية في إعطاء الحيثيات .

ومع هذا يمكننا أن نتعامل مع هذا التيار الذى لجأ إلى (وار العطف) إسلامى عربى أو عربى إسلامى من خلال نموذجين رئيسيين : النموذج الأول - ممكن مع التجاوز - أن نطلق عليه نموذج الباحثين العرب المتأسلمين . والثانى نموذج الباحثين الإسلاميين المتعربين ، فيم يعنى النموذج الأول ؟ هو يغطى فئات من مفكرى الأقليات التى عاشت فوق الأرض العربية ، وتعايشت مع المسلمين ، وشاركتهم ليس فقط الأرض واللغة ، وإنما في العديد من مراحل

التاريخ ، بل والتزى بالانتماء الحضارى للإسلام . وبخاصة فئة أقليات
النصارى ممن تعاطفوا مع أمة الإسلام وصدق عليهم ما أكده الحق سبحانه
وتعالى حينما وصفهم فى القرآن الكريم : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا
الذين قالوا انا نصارى » (١) هؤلاء المتوaddون توادد معهم الإسلام عبر
تياراته الواعية ، وبادلهم تحية بتحية وبأحسن منها . هم عرب ، يعتززون
بعروبتهم أرضا ولغة وتاريخا مشتركا ، ويتعاطفون كما أشرنا مع الانتماء
الإسلامى بل إن لم يندمجوا عرقيا مع السلالات الإسلامية فهم بحق
سلالات قرابة المودة . وليس بالضرورة كل من هو نصرانى تبنى هذا
الوفاء وهذا الولاء . فلا شك أن من حاولوا أن يضرروا لأمة الإسلام
خلاف ما أظهرت لهم من تكريم ومودة ، فبضاعتهم ردت إليهم .

وتبقى أقليات أخرى غير النصارى أعلنوا انتماءهم إلى العروبة أرضاً
ولغة وتاريخاً ، عبر قرون طويلة ، ولكن فى الفترة المعاصرة خضعوا لمسلل
من التوجيه التآمري على هذه الأمة الإسلامية ، فتكر منهم من تنكر لوفائها
واستضافتها ، ورد إحسانها إليه بالإساءة والنكران . ونعنى بذلك من
فضلوا اليهود على اليهودية ، وفضلوا الانتماء إلى الصهيونية بدل الاعتزاز
بدين موسى وبأرض النبوات وبمن آواهم خلال قرون . فى الوقت انذى
كانت تنصب لهم المحارق فى الميادين الرئيسية ، لما يعرف حالياً بالمجتمعات
المتقدمة كان ذلك فى أيام الأحاد بعد الخروج من الكنائس فى الغرب الوسيط
... وهكذا نشاهد باحثين عرب متأسلمين لا ينكرون انتماءهم الأساسى العربى
ويزيدون عليه تواددهم مع الاتجاه الإسلامى أما المتأسلمون لحاجات ومآرب
للنيل من الإسلام باسم التأسلم فنقول لهم بضاعتهم زيفها واضح للعيان
خصوصاً حينما تخططون بين عطاء الإسلام كدين مقدس فى عصر النبوة ،
وبين تراث المسلمين كبشر تعايشوا تحت راية الإسلام عبر العصور .
فتنظرون إلى الإسلام كتراث وتنظرون إلى التراث كإسلام دون توضيح
للمعيارية ، التى تلزم بحدود مائة جامعة بين الإسلام فى عصر النبوة ، وبين
تراث المسلمين عبر عصورهم . ومن ثم فلا ضرر ولا إضرار ، من أن يقوم
الباحث العربى بكل ما يرجوه من بحث صائب ومستدير فى تراث المسلمين

نريطة أن لا يتبنى موكب الخلط بين إسلام أرضيته إيمانية وأسمى من المضاربة عليها باسم قصور الذهنية البشرية بنسبية معرفتها ، هذا التراث الخاص بيشر المسلمين .

أما النموذج الثاني من الباحثين الإسلاميين المتعربين فنحنى به من يسيلون إلى عطف العروبة على الإسلام ، الإسلامى العربى ، فهم أساساً يشاركون أرض إشراق الإسلام ، وفى الجزيرة العربية فى العقيدة وفى التاريخ ، وامتداد الأرض العربية باسم الإسلام وتبقى قضية اللغة ، وإلى حد ما التكامل السلالى عرقياً أو يئياً . هذا التكامل السلالى عرقياً أو يئياً بدوره عرف تكاملاً وتداخلاً عبر مراحل من تاريخ أمة الإسلام بل وحتى اللغة كان دائماً قاسماً مشتركاً بين كل المسلمين فهى ليست لهجة أو لغة لفئة بعينها ، وإنما هى لغة القرآن لغة الإسلام . ولكن فى عصرنا الآن نلاحظ كنتيجة لبقايا المد الاستعماري هذا التباين المنفصل بين أبناء الدين الواحد ويتكلم المسلم مع المسلم لا بلغة القرآن وإنما بالإنجليزية أو الفرنسية ، أو وأو ، حسب موقعه من الاستعمار ، ومعاناته منه . وذهب الاستعمار وبقيت رواسبه لتطرح القطيعة بين المسلم والمسلم ، وهكذا كان علينا أن نطرح وفى نهاية هذه الحلقة من حوارنا الخاص بقضايا تراث المسلمين كيف أننا الآن أمام فئة من الباحثين الإسلاميين منهم من تعرب متعاطفاً مع اتسمائه الدينى كأمل يطرح لآفاق المستقبل التى بلا شك ستؤول إلى وحدة القلب مع اللسان ووحدة العقيدة مع البيان حينما تصبح لغة القرآن هى لغة كل مسلم أياً كان فتدوب واو العطف لأنه لا يمكن أن يعطف جسد مع جزئيات جسده . وفى انتظار هذا الأمل علينا أن نتقبل هذه الفئة من الباحثين الإسلاميين غير المتكلمين أساساً فى أوطانهم باللغة العربية على مستوى سمول الجماهير المؤمنة ، وندعو لهم مزيداً من الإشعاع والانتشار حتى يعود للجسد الإسلامى تكامله قلباً وقلباً شكلاً ومضموناً .

وهذا بدوره يدفعنا إلى أن تتجاوز ضمنيا من يحاول أن يطرح ضمنيا الإسلام كبديل لمد أرضه العربية بمعنى إسلام بلا قبله وبلا قرآن ، إسلام كل منه وإليه ، نقول لهؤلاء : إشراق الإسلام بشرياً مشروطاً بإشراق بيانه ولغته ، وأما إشراقه روحياً فهذه قضية يبحث عنها فى القلوب والأبصار .

وعليه نستبعد هذا البديل المفتعل الذي يحاول البعض أن يطرحه لإسلام
يقوم على أنقاض العروبة وأشلاءها ، إسلام بلا نبيه العربى القرشى المكي
الأمين .

فالانتماء فى النهاية للإسلام ولتراث المسلمين كل لا يتجزأ فى أرضه
وتاريخه ولغته ، فضلا عن عقيدته كإيمان ثابت فى القلب يصدق العمل .

وكخلاصة لحوارنا حول قضايا تراث المسلمين فى هذه الحلقة الأخيرة
والخاصة بوضعه عبر فكر هذا العصر . إننا نتقبل كل اجتهاد فكرى بناء
كمسلمين شريطة التزامه بمعية واضحة أشرفنا إليها سلفا وهى أن نطلق
من حدود مانعة جامعة بين الإسلام كعقيدة فى عصر النبوة يرتكز أساساً
على الإيمان وبالتالى ليس لهذا الإسلام قضية تراثية فهو واقع حتى نشط
تمارسه ملايين المؤمنين منذ إشراقه من غار حراء حتى اليوم وبين قضايا
تراث المسلمين كبشر عبر مراحل التاريخ المختلفة حتى اليوم .

(١٢)

المسلمون ..

وتحديات المستقبل (*)

« المشكلة هي في المسلم نفسه ، وليست
في جوهر الاسلام » ..

● عرض مدخلى :

نستبعد أن يكون لبجنا تأكيد على المضاربات باسم الحقائق الحثية ،
أو المنوعات المستقبلية ، لأن المستقبل بيد الله ، ولا يعلم الغيب إلا الله
سبحانه .

نطلق من هذه الملاحظة البديهية إلى عصر يعتقد فيه بعضهم - وبكل
يقين منه - أنه قادر على اكتشاف المستقبل والتنبؤ بغيياته ، أو ما يعرف
بعلم المستقبل (Futurologie Futurisin) من ذلك ما دعا إليه فختهايم أو
برجيه أو إيريل جوزيف وغيرهم ، بأن رسموا للمستقبل تصنيفات ،
فقالوا : المستقبل المباشر ويعطى مساحة زمنية قدرها عام ، أو مستقبل أقرب
مدته خمسة أعوام ، أو مستقبل قريب ومدته عشرون عاماً ، أو مستقبل عام
أو بعيد ويمتد من عشرين عاماً إلى خمسين عاماً ، أو مستقبل أبعد وهو
ما يمتد إلى أكثر من خمسين عاماً . فضلاً عن المحاولات التي تمت من قبل
بعض الدارسين التكنولوجيين أو الديموغرافيين حول حدود التنمية
وديناميكيات العالم والنزعات التشاؤمية أو الامتدادات المالتوسية ، إلى غير
ذلك من التطلعات المستقبلية ، تشاؤمية كانت أو تفاؤلية . والتي يجسدها
حالياً عدد من الجمعيات والمؤسسات المختصة في الدراسات المستقبلية من معهد

(*) بحث قدم المؤتمر القمة الاسلامي الخامس بالكويت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ضمن سلسلة
بحوث في اطار موضوع الاسلام والمستقبل ..
(المؤلف)

المستقبل لهملر ، مروراً بمعهد هودسون ، والمؤسسات المستقبلية بأمريكا في نهاية الستينيات ، والجمعية الدولية لدراسة المستقبل ، والتي تجاوز عدد أعضائها الألفين ، ومؤتمرات عديدة أخرى برزت في السبعينيات ، وما تلا ذلك حتى توفلر ، ونظريته التي تشير إلى صدمة المستقبل ، ودعاة الأزمة والمخرج ، والمندبرين بمستقبل تعس ، والمبشرين بمستقبل مشرق . إلا أننا نلاحظ وجود شبه اتفاق بينهم جميعاً على قوة الدفع الهائلة في كل ما حول الإنسان ، نتيجة ما يقدمه من مخترعات ، وما يعترى الإنسان من أنواع التأزم المرير والمعاناة العنيفة كذلك ، وقد حاول بعضهم أن يطلق عليه تركيب « راحل من نوع جديد » إنه راحل في الزمن ، وفي غير المألوف ، مما يترتب عليه الاستعداد لتقبل صدمات متعددة قد تؤول به إلى الارتداد والاندحار ، أو تدفعه لمزيد من التجاوزات وأنواع من التكيف والتعامل مع المستقبل .

في هذا الإطار ، ومن دون دخول في تفاصيل قد تجد لها مكاناً مناسباً في مجالات أخرى متخصصة متجاوزة لهذا الغرض الذي يعنينا أولاً وأخيراً ، والذي هو « الإسلام » ، كيف يسير الإسلام بالمسلمين نحو مستقبل مأمول ؟ والمسلمون - ولم لا ؟ - كيف سايروا العلوم عبر أزمانهم المختلفة ؟

ولنشرع حديثنا منذ البداية ، فحين بزغ فجر الإسلام كانت الوقائع الحضارية الكبرى في حوزة هذه الامبراطوريات الكبرى . وكان المفترض - حسب منطق التطور - أن لا يأتي إشراق الإنسان من جزيرة العرب ، وإنما ينطلق من « بيزنطة » أو « روما » .

ولكن حينما اندحرت بيزنطة ، وتراجعت روما نهض الإسلام من هذه الجزيرة ليصحح التطور العالمي ، ليس عن طريق حروب كبرى وإنما عن طريق الأخلاق والسلوك . فتحوّل الامبراطوريات - من ثم - إلى كيانات هامشية أمام سلوك خالد ، هو السلوك الإسلامي .

إن التطور يكيف السلوك دائماً ، كما أن السلوك يكيف التطور .. وقد اختلف بعض الفلاسفة حول : أيهما الذي يقيد الآخر ؟ السلوك أم التطور ؟ ومتى يتم ذلك ؟ هنا نلقى شبه إجماع على أن التطور يقيد السلوك في

اللحظات الانسجامية .. حينما تكون المسيرة إيقاعية فيملئ عليه التغيير ، أما في حال التأزم فإن السلوك هو الذى يقوده إلى التطور .. وقد تجاوز الإنسان الأزمات الكبرى للبشرية بسلوكه لا بتطوره . ومن الخطأ بمكان أن تنبنى القول بأن التطور قاد البشرية في مجتمعاتها القديمة ، وإنما السلوك — بمعنى الرسالة الإلهية ، والوحى الإلهى — هو الذى قاد هذه المجتمعات التى كانت تعيش فى الصنمية الوثنية .. غير قادرة حتى على تحليل أبسط الأمور حولها ، لقد قادها إلى التأمل ، وذلك كما قال دوركهيم ، الفيلسوف الملحد : « إن وراء كل فلسفة ديناً ، ولا يمكن تصور فلسفة لا تركز على دين » .

فالدين إذن هو الذى دفع البشرية إلى التأمل ، وأيقظ الحكماء والرؤى المستقبلية .. وبالتالي فإن السلوك الذى نبع من رسالة الخالق هو الذى قام بعملية تصحيح لمسيرة المجتمعات البدائية والمجتمعات التى كانت تعاني من الالتباس والغموض . ويعتبر الإسلام — بلا شك — المرحلة الرئيسية فى التصحيح الجذرى للتطور بالسلوك ، وليس تصحيح السلوك بالتطور .

فالإسلام أحدث تطوراً جذرياً عميقاً فى حياة عرب شبه جزيرة العرب أولاً ، وفى كثير من الأمم المسلمة منذ عصورها الأولى ثانياً . فهو إلى جانب العطاء الإلهى الخالد جسد بداية الدورة الثقافية الهائلة التى اتخذت مجراها ، حتى سادت العالم بأسره تقريباً . بمعنى أن مجموعة العشائر والقبائل ، التى كانت تدأب فى الدفاع عن مواطنها ، تجاوزت بالإسلام هذا الانتماء والالتزام .. إلى التزام أسمى مجسد فى مثل عليا وقيم سامية .. وبذلك أصبح للعرب دورة ثقافية .. ولا يمكن لدارس فلسفة التاريخ أن يتصور دورة ثقافية لهم فى غيبة الإسلام . وهذه الدورة الثقافية للعرب أصبحت دورة حضارية ذات إشعاع ثقافى واسع الأضواء ، وغدت حضارته سائدة ثابتة ، بعد أن تجاوزت معقلها الأساسى ، وتبنتها شعوب أخرى خارج حدود أرض العرب . ويقيناً فإن مفهوم الثقافة إذا ما اتسع ليصبح مستأنساً بخدمة المثل العليا والقيم الخالدة والعقيدة السامية . ففى هذا الحال — كما هو الحال بالنسبة إلى الإسلام — يغدو دورة حضارية ذات انتماء مزدوج : إتماء روحي ، وإتماء مادي .

ويمكن القول - في اعتقادي - إن حروب الردة - بعد انتقال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - جسدت موقف الاختيار بالنسبة إلى العرب والمسلمين ، وهى : إما الارتداد بالدورة الثقافية لتتقت من جديد على شكل دورات سلالية ، وإما لتندفع بشكل دورة حضارية كما حدث هذا بالفعل .. وهكذا لا يمكن لدورة ما أن تتجاوز مرحلة إلى أخرى إلا عبر المنحنى أو المنعرج .. ومن خلال الأزمة ، إما أن تندفع قدماً أو تتراجع القهقرى . وبفضل الله أنبثق من حروب الردة دفع إلى المرحلة الحضارية المأمولة ، فكان امتداد الإسلام عبر مختلف القارات .

فالإسلام هو الذى مد فى الأرض ، ومد اللغة ، ومد التاريخ . وهذه الامتدادات الثلاثة تمت بفضل الإسلام . فالمرحلة الحضارية الإسلامية غطت مساحة عريضة سكانياً ، وطويلة زمانياً ، لأنها غطت بحضارتها السائدة بقعة ذات مساحة عريضة سكانياً ، وطويلة زمانياً ، لأنها غطت ما يقرب من ألف عام كحضارة سائدة .. حضارة تسامت بالإنسان ولم تندحر به . وهى التى غذت كل امتدادات الحضارات الإنسانية بشكل مثالية وانطلاق . وكانت ثمة حضارات رفيعة قبل الإسلام لا يمكن تجاهلها ، كالحضارتين الإغريقية واللاتينية . وتمثلتا فى العقلنة والمنطق ... والحضارتين الهندية والإيرانية وفيهما حضارة الحكمة والعلوم الرياضية والفلكية . فسادت الحضارة العربية الإسلامية فى العالم المتحضر ، وتفوقت على سائر الحضارات ، ثم أعقبتها الحضارة الغربية التى لا يمكن أن تعد طفرة إنجازية نابعة من الابتكار والإعجاز . فهى نتاج مسار يبدو طويلاً فى تاريخ الإنسانية أسهمت فى إقلاعها الحضارة الشرقية القديمة والحضارة الإغريقية اللاتينية ، ثم الحضارة العربية الإسلامية .

والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن المتخصصين هو : لو أن الحضارة العربية الإسلامية لم يكن لها وجود ، أكان وجود لهذه الحضارة الغربية التى يعيشها الغرب ، وتبعه بها ؟ .

والإجابة - لحسن الحظ - التى يتفق عليها الجميع ، باستثناء الرؤوس المنفلة والمتطرفة والمتعصبة ذات العصبية الفكرية ، أنه لولا الحضارة

العربية الإسلامية لما كانت الحضارة الغربية المعاصرة ، فهي التي استطاعت عن طريق هذا التكامل الرائع والقناعات الفكرية المتعادلة أن تمنح كل ذي حق حقه . بينما يلاحظ أن الحضارة الإغريقية اللاتينية إن كانت قد أنارت في إطار فقد أظلمت وعمت في أطر أخرى . وبالتالي فإن المآخذ الذي يؤخذ على الأرضية الإغريقية اللاتينية أن هذه الأرضية مرت بمر مظلم ، وهو العصور الوسيطة الأوروبية ، حيث كان من الصعب على الإنسان أن يفكر . فقد كان مجرد ممارسته للتفكير محرماً عليه ، وإذا كان لا مفر من ذلك فإن عليه أن يبحث لنفسه عن وسيط ليفكر له . ونعني بذلك النسق الكنسي الغربي ، بمعنى السيطرة الكاملة لفكر الكنيسة .. وكانت النتيجة أن صودر الإنسان ، وعتم قلبه .

ولم ينقذ عقل الإنسان الأوروبي المصادر إلا الحضارة العربية الإسلامية ، حين أشرقت شمسها عليه . ولولا التأثير بتعاليم العلامة العربي ابن رشد من بين التأثيرات الأخرى لما كانت العقلنة الغربية . وتؤكد العقلنة العربية الإسلامية على أن العقل لا ينفي الوحي ، وأن الوحي لا ينفي العقل ، لأن العقل في خدمة الوحي ومكلف من أجله .

هذه الوصفة المبسطة للغاية ، التي تمثل إطاراً فلسفياً عند ابن رشد ، وجدت طريقاً إلى الفكر الكنسي ، وتأثر به القديس توما الأكويني ، كما تأثر به خصوم الكنيسة . ولم يقتصر لتأثر بفلسفة ابن رشد الإسلامية وغيره من مفكرى الإسلام على من تحفظوا على الكنيسة من خصومها ، بل امتدت لتغذى الكنيسة ذاتها ، ولتعتلها ، فهي في الواقع خلفت تياراً متكاملاً . فالكنيسة لم تكف بالتنظير ، بل بدأت تتحرك مع توما الأكويني ومن حوله لتحكم (!) العقل في بعض المواقف ومن بدأوا يتحفظون على الكنيسة قالوا : إن هناك بجوارنا حضارة أندلسية إسلامية مؤمنة ، حضارة لها إله ، حضارة لم تقم بإلغاء العقل . وبدأ التساؤل لديهم يطرح نفسه في مطلع عصر النهضة الغربية : لماذا لا نهج نهج هذه الحضارة ؟ .

ومع الأسف ، فإن كثيراً من النصوص العربية الإسلامية انتحلت لتصبح نصوصاً لاتينية . فقد حذف اسم المؤلف من على كل كتاب ، وأضيف

— عوضاً عنه — اسم المترجم أو غيره ، أو الحق بمجهول أجنبي . لكن هذه الانتحالات أخذت اليوم تستعيد هويتها لحسن الحظ من الغرب نفسه . فقد بدأ العلماء يعيدون النظر في هذا التلوّث الثقافي التاريخي ، ليعطى كل ذي حق حقه .

فالحضارة العربية الإسلامية لم تكتف بأنها شغلت حيزاً طويلاً من الزمان وحيزاً عريضاً من المساحة في هذه الرقعة الممتدة من بحر الصين شرقاً إلى جبال البرانس غرباً . وإنما كانت أساساً يَبْنَى من بين أسس الحضارة الغربية المعاصرة التي من الصعب أن تُعزل جذورها عن الإسلام . فهناك علاقة عضوية بينهما ، اللهم إلا إذا تنكر الابن لأبيه ، وعندئذ تغدو حضارة لقيطة .

والسؤال المتداول الآن على الساحة الكونية : هل الإسلام ما يزال قادراً على المواجهة والتحدى في هذا الربع الأخير من القرن العشرين لشرق من جديد في عصر العملقة الذهنية ، وعبور الكواكب ، عصر الكمبيوتر والتكنولوجيا التي فاقت معطياتها كل خيال ؟

لكن حقيقة الأمر أننا حينما ننظر إلى الإسلام في عصوره الأولى ، ثم ننظر إليه ثانية عبر القرون التالية نجد أنه مازال بخير ، قادراً بمبادئه ، وقادراً بعبائنه على أن يمنح المسلم ما يطمح إلى نواله منه . الإسلام مسيرة طبعت مسيرة الأمة الإسلامية ، بل مسيرة البشرية جمعاء . وحينما ننظر إلى الإسلام حالياً ومستقبلاً — حتى مع صرامة المنهج ، وقدرة التفكير ، والرؤية الموضوعية الهادئة النزهة — نجد أن ليس للإسلام قضية مع العقل في القرن العشرين . ومهما كانت المجازفات المطروحة حالياً في ساحات المدارس الوضعية فإنه من المستحيل ، ونقولها بكل تحد ، أن تسجل إصابة واحدة على شرعية الإسلام باسم العقل ..

ها هو الإسلام ، وبعد أربعة عشر قرناً ، مازال يتحدى . ومن الصعب على عالم نزيه أن يزعم غير ذلك ، ومن أجل هذا نرى العديد من مفكرى العالم يشهرون إسلامهم على الملأ . وبعضهم الآخر مازال في قائمة الانتظار .. فالإسلام بخير . وقد أعطى من الحيثيات في عصر النبوة ما يلزم ابن القرن العشرين بأن ينحني إجلالاً وإعزازاً أمامها .

الإسلام هو الذى كفل لهذا المسلم أن يبقى فى القرن العشرين . فهو الذى أعطى حيثيات الوجود المتكامل الشامل الذى يسعى بعضهم الآن فى تمزيقه مد الأرض أو مد التاريخ ، ونشر اللغة كما أشرنا من قبل . وبالرغم من أن جسد الأمة الإسلامية اليوم مثخن بالجراح فإنه لن يمزق أبداً . وسيبقى عبر التاريخ رغم كل بدع الأعداء ومكرهم وزيفهم ، ورغم مساعي سماسرة الحروب وموهى الحقائق . والإسلام هو الضمن الذى يلجأ إليه المسلم فى أزماته .

كانت الحقب الكبرى من تاريخ هذه الأمة حقب إشراق الإسلام .. والمسلم لا ينتكس من طعنات العدو فى لحظات الأزمات الكبرى ، بقدر ما ينتكس حينما ينتكس الإسلام نفسه فى قلبه . وحينئذ يتهوى جسده ويخور ، ويصبح فريسة للآخرين . وقد يتأزم المسلم ويتراجع حينما يبدأ باسم أغراضه الشخصية ليقود إسلاماً بطريقته . لكن الإسلام لا يتوقف أبداً ، وهذا فى حد ذاته معجزة وقدرة تؤكدان لنا حفظ هذا الدين ، وأنه الدين المنقذ لهذا الكون فعلاً .

فالمسلم ، ونقولها بكل أسى ، هزم الإسلام فى وجدانه أولاً ، ليتأهل بعد ذلك للانزهاض من أمام الآخرين . فالمشكلة هى فى المسم نفسه ، وليست فى جوهر الإسلام ، لأن الإسلام ظل هو هو عبر الحقب ، لكن المسلم تهوى وتراجع وخار . وخير لمن يقول « وإسلاماه !! » أن يقول : « وامسلساه ! » . فالمفروض بالمسلم الذى يخشى على الإسلام ، أن يقوم بإصلاح ذاته أولاً ، لأن المشكلة مشكلته وليست مشكلة الإسلام .

والإسلام حالياً — كما فى السابق — لديه إمكانيات متعددة لكى يتمكن من تخطى العراقيل التى وُضعت أمامه ، أو ما افتعله — بنفسه — من حواجز وموانع ومُعوقات . بمعنى أن الأرض مهياة ليس فقط للإسلام الذى سيقود من آمنوا به فى عقر دار الأمة الإسلامية — وهم الآن مليار من البشر المسلمين — ولكن ليقود عالمها ، أو على الأقل ليشارك فى قيادتها .

وبكل صراحة ونزاهة فكرية لا نعتقد فى جدية حلول تتم فى غيبة الإسلام .. إن الحلول التى تطرح الآن باسم حضارة العصر إنما هى أمور

فيها نوع من المغالاة والمبالغة في قدرتها الإنقاذية . إن الغرب الآن عملاق مندفع في كل يوم بفضل التقدم التكنولوجي والصناعي والعلمي . ولكن هذا الإنسان الذي يزعم أن العقل والتعقل يأتي بما هو لا معقول باسم العقل .

يأتي زعيم دولة عظمى .. إنسان سوف ينزل القبر مثل غيره من البشر ويقول : أستطيع أن أدمر الأرض أربع عشرة مرة بالذرة وبالحراب البيولوجية والصواريخ الهيدروجينية . وكان الأولى به أن يعلن أنه بمقدوره أن يعمر الأرض أربع عشرة مرة ليعمها الخير أكثر ، وتصبح أقدر على العطاء للبشرية أربع عشرة مرة أكثر مما هي عليه الآن .

إن العالم بكل آثامه وشروره مهياً فعلاً للإسلام . فالإنسان أصبح إنساناً آلياً ، ولم يعد إنساناً ذا عواطف ومشاعر ، يكره ويجب ويستريح ، ويحقق ذاته . وإنما هو محسوب ، كل مشاعره الداخلية تحتاج إلى من يثبها فيه بوسائل مصنعة مثل الجبوب . فالحبوب الآن تحركه ، يصحو وينام ، ويتقوى ويتهدأ بالحبوب . وهذه الجبوب تقوده إلى ما يسمى بالانتحار الصامت الشامل . فالحضارة الغربية حضارة بلا قلب ولا وجدان ولا مشاعر . فهي حضارة الإنسان في غيبة الإنسان ، حضارة تتحرك على حساب الآخرين ، كما يقولها فلاسفتهم ، ولا ينبك مثل خير . ونحن - المسلمين - نلث وراءها كالمئب لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . والمسلم الذي يبحث عن الهداية خارج الإسلام إنما يضع وقته وحياته وقدراته .

فالإسلام هو المعيارية الوسطية ، والأمة الإسلامية هي الأمة الوسطية الشهيدة على هذا الكون . وبهذه الوسطية البناءة ، وبهذه المعيارية التعاقدية يتاح للمسلم أن يكون في موقع القيادة في القرن الحادي والعشرين . فرسالة الاسلام رسالة لإنقاذ الإنسان ولإسعاده ، وهي دعوة إلى الخير والنجاة ، وهي دعوة إلى الصلاحية ، ودعوة إلى المصادقية .

وثمة سؤال يطرح نفسه إذ : كيف من حال المسلمين المتأزم .. ينطلق الإسلام لإنقاذ العالم ؟ .

إن حال المسلمين المتأزم لن يعوقهم — يقيناً — عن إمكانية الوصول إلى الإسلام ، لأن الإسلام لن يتجه إلى العالم الشرقى أو الغربى الفارق في المشكلات ، إنما هم — وبمحض اختيارهم — سوف يتجهون إلى الإسلام . يروونه سفينة نجاة لا منقذ سواها . وسيقلب الإنسان الغربى حتماً (كإنسان) أوراقه بحثاً عن مخرج من أزماته المستحكمة كإنسان . لكن هذه الأوراق لن توصله إلى نتيجة . وأخيراً سيقول : لماذا لا تنصفح أوراق هذا الدين ، الذى هو الإسلام ؟ إن رواد الفكر وعمداء الفلسفة في القرن العشرين يجمعون على بروز مأزق حضارى ، جاء نتيجة . لأن إنسان هذا العصر إنسان الحيرة . إنسان القلق : إنسان الاكتئاب . إنسان لا يشبع في استهلاكه ، ويبحث عن الرفاهية ، وعن الرخاء بأمور يفتعلها ويصطنعها ، إنسان الحيرة هذا ! وقد أجاد « هايدجر » عميد فلاسفة القرن العشرين في وصف هذا العصر حينما قال :

« إنه عصر يبدو كقصر شامخ في منظر كئيب ، يعانى سادته من الأرق والقلق ، ويقاسى خدامه من المرض والجهل والجوع » .

والآن ما العمل ؟؟

وكيف يواجه المسلمون المستقبل وهم على مشارف القرن الحادى والعشرين ؟ .

كما ذكرنا آنفاً ، ولا تعتقد في جدية حلول تتم في غيبة الإسلام .. حلول مبالغ فيها يصورها لنا العقل الغربى المتأزم هو أصلاً . بمعنى أننا نلاحظ التركيز حالياً على التنمية الاقتصادية . والنظم السياسية .. وكل يغنى على ليلاه .. المشكلة الديمقراطية . المشكلة النقدية : المشكلة الاقتصادية .

كلها مشكلات افتعلت بدهاء حتى تغيب المشكلة الحقيقية .. غياب الإنسان الواعى القانع المتفاهم مع نفسه بمعنى مشكلة الإنسان .. إنهم يصدرون للمسلم أكبر قدر من (التدوين) حتى يصبح لا يدري من أين تأتى المشكلات والهموم .. تفرض الأشكاليات وتنفعل ، حتى تبدو الرؤية

شبه منعدمة ، ويصبح غير قادر على تبين حل لمشكلته ، بل إنه لا يرى ذاته ،
ويصبح فريسة فى أيدي الآخرين ، يفعلون به ما يشاءون .

لذا ..

نطالب الذهن العربى المسلم المفكر بأن يحاول تعميق تجاوزه انذهنى
وعطائه ، تجاوزاً بذكاء للتخفيف من حدة الأزمة الخائقة عن طريق إعطاء
فرص حلول ، ولا أقول حلولاً نهائية ، أو حلولاً لكل الأجيال القادمة ،
وإنما هى حلول التجاوز للاختناق . فهناك رغبة هائلة الآن لخلق هذه الأمة
تماماً . وقد آن للذهنية العربية الإسلامية الواعية أن تتعامل مع هذه القدرة
الفكرية الذهنية الهائلة التى تكمن وراء الخلق لكى تقلت من مشنقته .

على العقول أن تتحرك الآن ، لأن هناك ترويضاً ذهنياً مروعا فى الربع
الأخير من القرن العشرين ، وعلقة ذهنية . وبالتأكيد فإن هناك ذهنيات
عربية إسلامية معاصرة قادرة . فلنعطها الفرصة لكى تتحرك ، لكى تواجه
ذهنيات فى قمة الفكر والدهاء ، وتخفف من حدة الصدمات الكبرى التى
تهدف فى النهاية إلى شل حركة هذه الأمة وتجزئتها والتهامها جزئية تلو
أخرى .

إن المعركة الآن بالفعل معركة ذهنية ومعركة فكر . وعلى العقلية
العربية المسلمة الآن أن تفكر لأنها أمام مجازفات وأمام مخاضات كبرى
لمحاولة كشف كل ممرات الخطر بطريقة موضوعية وعدم توسيع موجة
التعتيم وموجة التضليل . لنواجه العدو فى طريق مواجهتنا لأنفسنا ، لأن
العدو يعلم أننا غير قادرين على أن فواجه أنفسنا لنجعله يدرك أننا - فى
هذه المرحلة - قررنا فعلاً أن نخوض المواجهة ، واعترفنا بأمور كثيرة ،
لا اعترافاً بالخصم ، وإنما اعترفنا بأخطاء كثيرة لدينا ، حتى تأتى الأجيال
القادمة لتصحيح لنا هذه الأخطاء ، وليس ليصححها العدو لنا .

إن المواجهة الذهنية قدر محتوم على الأمة الإسلامية بعد أن فاتتها
فرصة الالتحام الجسدى المصيرى ، فى نهاية الأربعينيات ، بالجسم الغريب
الذى زرع ليُقتنى وجودنا .

ومن غير بكاء على أطلال الماضي أقول : لو أن هذه الأمة طرحت في هذه الحقبة مبدأ التضحية ، لا مبدأ المزايدات ، وضحت برحالها من القادرين على الاستشهاد عام ١٩٤٨ لضمنت الأمة حياتها وكرامتها ، ولقامت بعملية اختزال للأزمة ، ولكن أما وقد أضاعت الأمة فرصتها في الالتحام العضلي لتدافع عن كيانها فلم يبق لها إلا أن تستعمل قدرة الذهن العملاقة لا لتتنصر بها ، لأن هذا لن يكون في عهد هذا الجيل ، إلا إذا بدأنا تتصور وجود عصا سحرية ! .

وكذلك نكرر القول وثؤكده : فليقلل هذا الجيل ما أمكنه - من خلال القدرة لذهنية - من انعكاسات الأزمة وسلباتها ، ومن آثار التركة التي سترتها الأجيال القادمة حتى لا تُضيع الأجيال القادمة وقتها في سداد ديون جيل لم يضبط دفاتر حساباته كما ينبغي .

وليس ضرباً من معرفة الغيب ، بل استقراء علمي لواقع العصر أقول : إن مائدة العملاقة الكبار لن تُخلى من أمامها حضارة الغرب التكنولوجية المعاصرة ، إلا إذا حدثت هزات كونية كحرب هيدروجينية مثلاً . ولكن - وبناء على قدرة التطور في حد ذاته نرى أنها لن تكون الوحيدة لأنها ليست الوحيدة في الكون الذي تستحوز على كل عطاء التقدم . فهناك دول غربية تمتلك الآن « رأس الرمح » وهي التكنولوجيا كاليابان التي دخلت معها ، والصين التي ستدخل معها . وحينما ننظر إلى العالم الإسلامي نجد أنه - وإن لم يمتلك « رأس الرمح » وهي التكنولوجيا - يمتلك الطاقة ، ويمتلك العطاء البشري والمادي . ونعتقد أن هذه المائدة سيكون للأمة الإسلامية نصيب في جزء منها . وستكون هناك ضوضاء كونية نابذة من هؤلاء وأولئك لاقتسام جزء من المائدة إلى جوار العملاقة الجدد . وتتمنى للأمة الإسلامية بطاقتها وفكرها وعضلاتها أن تكون بين صفوف العملاقة وليس من أصحاب الضوضاء ..

وبعيداً عن عموميات الفكر وتجريداته ، ما هي - بالتحديد - الخطوات التي نبدأ بها رحلة المستقبل لتجاوز الأزمة الكبرى التي تأخذ بخناقنا ؟
لنتفق على الدعوة لفكرة عقد مؤتمر فكري عربي وإسلامي . ولنتفق

على حد فكري أدنى ، من دون أن يكون لكل أحد أرضية مبيتة جاء ليدافع عنها . ولعله من الأفضل أن نقترح منذ البداية مثلتي بين المسؤولين تربوياً من أجل إعادة النظر في النسق المدرسي التربوي (البيداغوجي) ، ليناقدوا إلى جانب تطوير أدوات التدريس ومناهجها ، ذاتية إنسان هذه الأمة ، وليخرجوا - لا أقول بميثاق أو بدستور - وإنما بينود مفادها أن هذه هي ذاتيتنا التي ينبغي أن تدخل في أطر التربية من الحضانة حتى الجامعة .

فلا شك في أن قضية تأصيل الانتماء من أخطر القضايا التي ينبغي التركيز عليها في مجال تربية الطفل المسلم في سنواته الأولى . ففي المجتمعات الليبرالية مثلاً نجد أن الأسرة تحرص على إرسال أطفالها إلى (السيسترات) أو الأخوات في الكنيسة رغم عدم قناعتها بالقس راعي الكنيسة أحياناً . ولكنها تعتبر ذلك أمراً لا بد منه لتحقيق الانتماء ، وزرع بذوره . والشئ نفسه يحدث في الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية بشكل عام ، حيث يبدأ الطفل تعلمه الابتدائي في بيئة يسيطر عليها التنظيم الماركسي واللينيني . ولكن يلاحظ أن الوسائل في مفهوم ثقافة مجتمعتنا قد انقلبت إلى غايات : فنجد الأسرة تهتم بطعام الطفل ولباسه وصحته ، وما إلى ذلك مما يعتبر وسائل خادمة لا مخدومة .

وفي هذا الإطار التربوي تعبر فكرة التفاهم حلقات ، بمعنى أن يمر المسلم ثلاث حلقات للتفاهم : يتفاهم مع نفسه أولاً ، ثم مع إسلامه ، وبعد أن يتفاهم مع نفسه ويتفهم إسلامه ، يعود ليتفاهم مع غير المسلم .

وأرى أن قضية الطفل حتى عمر الثانية عشرة ، ينبغي أن تكون هي تحقيق انتمائه . وأتمنى أن يُمنع منعاً باتاً إعطاء أطفال هذه الأمة حتى تلك السن أي انتماء أو نموذج أو قدوة ، عدا انتمائه الحضاري ، كما تفعل ذلك الأمم الأخرى ، والدول التي تواجهنا الآن في حلبة الصراع الحضاري .

كما أنه ليس من الحكمة أبداً أن نحدث أطفالنا قبل هذه السن عن سقراط وجان جاك روسو ولوك وشكسبير وغوته وغارibaldi و نابليون وغيرهم من رجال الغرب الفكريين والسياسيين . هذا لا يكون إلا بعد أن تنضج

كل مدارك الطفل : وتصبح المرجعية الإحالية أو القيم المرجعية لديه واضحة وثابتة ، وبعد أن يفهم قيم رجالتنا الذين رسخوا دعائم الإسلام وصنعوا حضارته .

ويمكن خطر إعطاء الطفل نماذج من حضارة الغرب إلى جانب نماذج من السيرة النبوية العطرة والتاريخ الإسلامى ، فى أن ذلك يشوش ذهنية الطفل ويدخله فى حيرة ، ولاسيما أن الحضارة الغربية تمتلك قدرة الحضور والجذب وهى أنموذج مبرر . وهذا يؤدى تلقائياً إلى صراع فى اللاشعور بين الأنموذجين ، ينتصر فيه الغازى الذى هو حاضر أمامه ، أو أنه يلغى الأنموذجين معاً ، فينتهى به الأمر إلى ما نلاحظه الآن من انحصار فى التكوين الحضارى ، وليس هذا الذى نقترحه كما يتصور بعضهم نوعاً من التجزؤ والانعلاق ، إذ أننا سنعطى هذا الطفل حتى الثانية عشرة وسائل الاتصال الحضارية : نعلمه لغات أجنبية ، وبالعق نفسه للغة العربية ، ولكن من غير أى انتماءات أو نماذج أو إحالات . وحين نقدم له أمثلة يجب أن تكون نابعة من تاريخه ووطنه ، كما تفعل ذلك الأمم الأخرى .

وعلى هامش هذا الملتقى التربوى فلتكن هناك لقاءات فكرية بين كبار المؤرخين ، ولتكثف الحوارات فى الصحف والمجلات والاذاعات حول تعسيق مبدأ الإدانة ، ونعميق مبدأ الأزمة ودون محرمات (تابو) مع البعد عن الحزازات الشخصية أو المهاجمات أو التمسك المبيت بوجهات النظر الشخصية . ولا نعتقد بجدية كلمات مثل (قتل - يقتل) و (قلب - يقلب) ذلك أن الأزمة لا تبنى نفسها على القتل ولا على مسلسل الانقلابات ، فربما هذا يفيد المجتمع الصناعى ، لأن له نوعاً معيناً من التنظيمات الواسعة العريضة والرأى العام . وهذا يكون لديه نوع من تعبئة الصراع وحصره وتجاوز الانقلابات .

أما نحن - العرب المسلمين - فلدينا الكثير من فائض صراع تاريخى متعدد الخلفيات ، نصدره إلى الآخرين ، ولسنا فى حاجة إلى القول : نبدأ من جديد ليصارع بعضنا بعضاً . لأننا بهذا ربما نحل مشكلاتنا الديموغرافية (السكانية) : بتوسيع المقابر بدلا من امتداد العمران . وسيصنف بعضنا

بعضاً تصفية جسدية ، لهذا لا ينبغي أن يتجه الفكر نحو إثارة الفتنة التي لعن الله من يوقظها (أو أيقظها) . ونعتقد أنه لا داعي أبداً لأن نوجه صراعنا نحو الماضي . ولنتجه بصراعنا الواعي نحو المستقبل ، ليس لتصفية الحسابات فيما بيننا ، حتى يصل الأمر إلى تصفية كل فرد للحسابات مع نفسه هو أيضاً ، لأنه جزء من هذه الأمة .

وعليه فهذا يتطلب منا تصورات إسلامية واضحة لحياتنا اليومية تعتمد على رؤية منهجية واضحة تجعل المسلم يعيش بإسلامه داخل عصره لا خارجه .. فمن المعروف أن الحضارة السائدة بشقيها الليبرالي والماركسي أملت على إنسان العصر ، بل فرضت عليه ، تخصصات تحدد سلوكه ليس فقط في بيئة أسرية أو اجتماعية (سوسيولوجية) بل تخصصات تحاول أن تفهم حوارها الداخلي مع ذاته شعورياً ولا شعورياً . السيكولوجيا إلى جانب هذا التخصص الذي يطرح بناء الإنسان عبر نتاجه التراثي تقاليد وعادات وأعراف (الاتربولوجيا الاجتماعية والثقافية) . ولم تقدم التخصصات في شكل عفوى بل ركزتها على مناهج باحثة وشارحة تحاول من خلالها أن تسيطر على الظواهر الإنسانية لا بهدف اكتشاف قوانين كما هو الحال في العلوم التجريبية التي تتعامل مع الظواهر الطبيعية ، وإنما لاكتشاف طبيعة التكرار والانتظام في الظواهر ، توطئة لحصر العوامل المهيئة للسببية . وهكذا قدمت الحضارة السائدة تصوراً للإنسان ، ولم تكف بالوقوف عند نصوصه الأمثل طوباوياً .

وهذا يدفعنا إلى أن نتساءل : إلى أى حد يمكن الانتفاع بهذه المناهج المستحدثة دون أن يكون في هذا الانتفاع تأثير على الاختيار الأساسى لإنساننا ، وهو أنه إنسان مؤمن بما ثبت في قلبه وصدقه بعمله ومسلّم بوفائه كما أمره به الوحي من تطبيق والتزام بحدود الله وشرائعه وشعائره .

هل الأولى بالمسلم أن يقف من هذه المناهج وهذه التخصصات موقف المصادرة والإلغاء باعتبارها دخيلة ومبتدعة ، أو أن يقف موقف الحماسة إلى حد المغالاة والتبني لها قلباً وقالباً إلى الحد الذى يعرضه تحت ثقل المحاكاة والتقليد للمسوخ والغش والتزييف ، أو أنه يشق طريقاً وسطاً يرتكز

اساساً على تثبيت خطوانه الإسلامية في مسيرته مستتيراً أولاً ، وقبل كل شيء ، بنور الوحي ؛ ومن إشراقات الوحي ونورانيته دفع العقل إلى التأمل والتفكير والتبصر . ومن ثم وفاء لهذا الوحي الخاد ؟ أما آن للمسلم المعتز بوحيه والمحرك لعقله أن يتطلع إلى بضاعته وقد ردت إليه ؟ ونعني بذلك ما استطاع العقل المسلم في عصوره المزدهرة أن يقدمه في مختلف العلوم والفنون ليصبح ركيزة من الركائز التي أسهمت في إرهاصات حضارة الغرب الحديثة والتي تزعم أنها مجدت الإنسان في وضعه ، وأبرزت فلسفته منه وإليه .

لا شك أن حضارة الغرب قد أضافت الكثير فيما يعنى تنشيط منهجية العقل وتنوع طرق بحثه و' استجباره عن الظواهرات ، كما أنها اذنت في تنشيط قدراته الشارحة فضلاً عن قدرته التجريبية في المعامل والمخابر . وهذه القدرة الشارحة لم تكتف بقراءة الإنسان أو الطبيعة كنص وإنما سعت إلى تعرف تركيب الظواهر بعد إجراء التجارب عليها واكتشاف قوانينها . ولم تقف عند الظواهر الطبيعية ، بل طمحت إلى تشريح الإنسان كظاهرة طبيعية واكتشاف خباياه . وفي فترة تالية تجاوز بها الطموح الإنسان كجسد طبيعي لتحاول اكتشافه كظاهرة إنسانية إن كان من الصعب عزلها والسيطرة عليها مخبرياً ، لوعياها بالتجربة ، فعلى الأقل رصدتها وصفاً وشرحاً وتعليلاً لهدف التعرف إلى العوامل المسببة لطبيعة الانتظام أو التكرار بما يمكنها من طرح احتمالات راجحة أو مرجوحة بالنسبة لمالية تصرفاته وسلوكه ونفسيته وفعله وردود فعله .

إن توظيف هذه الإمكانيات بالنسبة إلى المسلم خير ضمان لمستقبله القادر على أن يتعامل ويتحاور مع الحضارات السائدة ندأ لا سائداً ولا مسوداً . وربما في فترة تالية تؤهله ليتجه نحت راية إسلامه عبر المستقبل نحو تحقيق نموذج الإنسان الشامل حقاً الذي لا يتنكر لوحيه ، ومن ثم ينحني إجلالاً أمام خالقه الذي منّ عليه بالقراءة ، وعلمه ما لم يعلم . فلا يطغى ، وإنما يظل وفيّاً لرسالة السماء التي فيها يمكن إنقاذ البشرية فضلاً عن تطلعه إلى

النجاة عبر بلائه الديوى لىتمتع بالفوز فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو الفوز العظيم .

لهذا نرى أنه آن الأوان لأن نكف عن البحث فى خفايا الآلام والمعاناة الكامنة فى العديد من القلوب .

آن الأوان لأن نقول : نحن فى مركب واحد ، ولنا شاطئ أمان واحد .
وحيثما يفرق جزء من مركبنا يهلك جميع ركابه معه .

● كلمة أخيرة :

فى النهاية ، وبين المتشائمين والمتفائلين ، أين يسير الاختبار بنا على ضوء ما أسلفنا ذكره ؟ .

إننا نتبنى موكب التفاؤل بالنسبة إلى هذا الجيل وهو بالطبع تفاؤل مشروط . وعموماً نحن على يقين من أن ما نراه الآن نوع من الكابوس الذى يعج بالأحلام المزعجة .

ويقينا ستأتى أجيال الـ ٣٠٠ مليون أو الـ ٤٠٠ مليون عربى ، محزمة بمليار من إخوتها فى الإسلام . وسوف تنظر هذه الأجيال إلى هذه الكوايس المزعجة على أنها كانت فترات مخاضات كبرى استطاعت الذهنية الواعية المتسلحة بإشراق الوحى الإلهى أن تجتازها لتعيش فى زمن سابق لزمانه .

future in which he can interact with the contemporary dominant culture as an equal. May be this would, in a later period, qualify Muslims to move under the banner of Islam, towards the future and towards attaining the ideal of the complete man who does not deny his revelation, and therefore would bow in respect to his creator who granted him the gift of reading, and taught him that which he knew not, so that he will not transgress all bounds, but remain loyal to the message of God by which we may save mankind in heaven and earth, and this is verily the greatest of all triumphs.

It is therefore high time to desist from wallowing in the pain and suffering lying in many hearts.

It is time to say: We are all in the same boat, and we have only one safe shore on which we can land safely. Those who abandon ship will be drowned.

Concluding statement:

In conclusion, amongst the ranks of the pessimist and the optimists, where exactly are we going in the light of our previous discussion?

I take up my place among the optimists as far as the present generation is concerned. My optimism however is conditional. Generally speaking we are all sure that what we are seeing now is some form of nightmare.

Surely, the future generations of 300-400 million Arabs will come in time, supported by billions of Muslim brothers. These generations will look upon this horrible nightmare and will see it as a period of labour, in which the conscious mind armed with divine revelation was transcending its troubles to realise a new future.



rarily on the contrary these stressed research and explanatory methodology through which they try and control human phenomena not only to try and discover the rules that govern behaviour, as is the case in the empirical sciences which deal with natural phenomena, but to discover the consistency and patterns of recurrence of these phenomena, in order to determine the factors governing behaviour. This is how the present culture sees man; it does not simply present an idealised conception of man.

This drives us to pose the question: to what extent can we make use of these new disciplines and methodology without this use influencing the primary goal of man, that is that he should be a staunch believer in Islam in his heart and in practice:

What should the Muslim's attitude be vis-a-vis these disciplines and methodology? Should he reject and suppress them because they are foreign, and new, or should he enthusiastically adopt them in spirit and letter and imitate them to the extent of mutilation and metamorphoses? Or should he choose a middle way based on finding his guidance in Islam, which will elucidate his first steps in the light of revelation? One of the major and brightest features of revelation is that it drives the mind to meditation, thought and vision, and thus loyalty to eternal revelation. Does not the Muslim, who reveres the revelation that set his mind free to think and meditate, now look at his attributes as they are returned to him? I am here referring to the achievements of the Muslim mind in its flourishing ages in the different sciences and arts as it became the foundation for modern Western culture, and in which it glorified man and his philosophy.

There is no doubt that Western culture has contributed a great deal towards stimulating the methodology of rationalism, and the variety of its research and investigative methods. It has also stimulated its explanatory powers and its experimental capabilities in laboratories. This explanatory power of modern science did not restrict itself to reading man or nature as a text, but has gone even further in seeking to define the structure of phenomena after conducting experiments in order to discover the rules governing it. It did not stop at natural phenomena, but went on to dissect man as a natural phenomenon. In a later period its ambition drove it to go beyond discovering the secrets of the human body to the discovery of the secrets of man as a human phenomenon. Although it is difficult to conduct experiments in the laboratory on this aspect of man, at least it could observe, describe, explain it, order to find out the factors that contribute to man's consistency in behaviour and recurrent behavioural patterns, and finally determine the probabilities of his act, behaviour, psychological makeup, actions and responses.

The use of these potentials for the Muslim is the best guarantee of a

and Islamic History is that this usually confuses him and puts him in a dilemma, particularly when western culture is continually fed through the media. This leads spontaneously to an unconscious conflict between the two ideas in which the intruding ideal usually emerges triumphant because it is always present before him; or the child will find himself in a situation of cultural schizophrenia which marks our societies today. What we are suggesting here is not a form of narrow-minded chauvinism, because we will provide the child until the age of twelve, with all the means of cultural communication; we will teach them foreign languages with the same intensity as we teach them Arabic, but free from any sense of belonging or foreign ideals and values. And when we present children with examples they have to come from his history and his homeland as is done by other nations.

Beside this educational conference, we should hold mini-conferences for major historians, and intensify dialogue in newspapers, magazines and radio about furthering our principles without false indictments, without taboos, and steering away from personal prejudices and vendettas and without a priori personal views. I do not believe in the seriousness of arguments in which threats of killing and coup d'états are bandied about. The crisis will not be solved by killings and coup d'états. These may fit industrial communities, because they already control public opinion and have well established organizations, which may enable them to mobilise public opinion and contain a coup d'état.

As for us Muslim Arabs we have a surplus of historical struggle in different backgrounds, which we would gladly export to others. It goes without saying, that we do not need to fight one another once again, as if this might solve our population problem, by expanding the cemeteries instead of our cities. We are not supposed to engage in genocide. Therefore, thought must not engage in causing sedition and civil strife, for Allah damns whosoever evokes sedition. I believe that we should direct our conscious struggle towards the future, not towards settling old accounts with others but towards first settling our accounts with ourselves, because each of us is part of this nation.

Therefore, this requires a clear Islamic conception of our daily life which depends on clear methodological vision which will allow the Muslim to live with his religion in his age and not out of it. It is well known that the contemporary culture, liberal or Marxist, imposed specific specializations to determine his behaviour not only within his family and society (sociology) but also those that examine his internal dialogue between his conscious self and his subconscious. In addition to psychology there are those disciplines which study the make up of man as a product of his traditions, customs and conventions (cultural and social Anthropology). These disciplines were not presented arbit-

and to escape the major crisis that is strangling us?

Let us first agree on the call to hold an Islamic Arab conference on thought. Then let us agree on a minimum of specific intellectual policy, without anyone coming to this conference to defend a predetermined policy. It might even be better in the beginning to hold a meeting for educationalists to review the pedagogic curricula at the school level, and to discuss developing the tools and methods of teaching as well. What is more important is that they have to discuss the making of man. They should reach agreement, not on a charter or a constitution, but on a list of items that make the Islamic self, and that these items should become part of the curriculum from Kindergarten to the university.

There is no doubt, that the issue of deepening the sense of belonging is one of the most important issues which must be emphasized in the education of the Muslim child in his very first years. Even in liberal societies we find that families insist on sending their children to the nuns in the church, despite the fact that they may not be very happy with the Priest of the Parish. But these families consider this a necessary matter to sow the seeds of the children's sense of belonging. The same thing also happens in the Soviet Union and the countries of the Eastern block in general, where children start their primary education in an environment fully under the control of the Marxist-Leninist organization. But we note that in our communities the means have become objectives, we find that in our culture, families pay more attention to the feeding and clothing of children and their health, and all these are means and not objectives.

In this educational framework, the idea of understanding passes through three stages, a Muslim first has to understand himself, then he understands Islam and then he has to understand non-Muslims.

I believe that the major issue of children up to twelve has to be that of achieving their sense of belonging. I hope that we would completely prohibit giving the children of this nation up to the age of twelve any model, ideal or sense of belonging other than their own cultural belonging. Many of the countries that are now confronting us in the arena of cultural conflict, actually practise what I have recommended here.

Moreover, it is not wise to talk to our children before this age, about Jean Jacques Rousseau, Shakespeare, Goethe, Garibaldi, Napoleon and many other western political figures and thinkers. We can only do this when the child matures, and his own set of referential values become clear and established and not before he understands the value of our own political, intellectual and religious figures, who established the pillars of Islam and made its culture.

The danger in giving children ideals and values from Western culture in addition to ideals and values from the prophet's biography

Arab mentality must think of the risks and dangers in an objective manner, in order to narrow down the obfuscation, and the disinformation campaigns. Let us face the enemy as we face ourselves, because the enemy knows that we are incapable of facing ourselves. Let us make him aware that we have decided to face him down. We have to recognize and admit our faults, so that the forthcoming generations will find remedies for these errors: our enemies will not remedy our problems.

This mental confrontation is part of the inevitable destiny of the Islamic nation, especially after it missed the opportunity for a physical confrontation at the end of the forties with the foreign entity that has been implanted amidst our nation to destroy it. Without crying on the ruins of the past, I must say that if our nation then had taken its struggle seriously, and sacrificed its men as martyrs in 1948, it would have guaranteed its dignity.

Now that the nation has lost its opportunity to fight for its own entity, it only has its great mental ability left; not to win this struggle because it cannot be done within this generation, except through a magic wand. Let us repeat and emphasise this once again: the present generation can say what it wants intellectually, concerning the negative effects of this crisis, and the legacy the present generation will leave for the forthcoming ones. The next generation will not waste their time in paying the debts of a generation that has not done its book keeping properly.

What follows is not purely speculative, it is rather a scientific deduction based on the reality of this age. I say that the developed countries in our age will not give up the contemporary Western technological culture without universal catastrophes like a nuclear war, for example. Basing our argument on the logic of development we would find that these countries will not be the only countries to possess technology and development. There are many other countries than the western world who now possess technological expertise such as Japan; and shortly China will join the parade. When we look at the Islamic world we find that it does not possess technology, but it possesses energy—human and financial resources. We believe that with these resources the Islamic world is entitled to a seat at the table of the developed countries. It will definitely get its seat at this table. There will also be a great fuss about sharing the contents of this table. And we hope that the Islamic nation with its resources and potentials will be among the ranks of the leading countries and not among the ranks of those who will make a fuss to share in the feast.

Let us leave the generalities and abstractions of thought for the moment and concentrate on the particulars. What exactly are the steps that the Islamic nation should take to start on the journey to the future

it is the people themselves, of their own choice, who will go to Islam; they will see it as a life-boat without which they will have no saviour. The western man will search in his learning for a way out of his plight, but he will find nothing in his learning. Finally, he will say to himself: why not look for a way out in Islam? All great thinkers and philosophers of the twentieth century unanimously believe that a serious cultural crisis will emerge, as a result of the fact, that man in this age is anxious, distressed and depressed. Man in this age is an avid consumer, always searching for his wellbeing and prosperity in the most artificial manner. Heidegger, the leading philosopher in the twentieth century, describes this age as follows:

“It is an age that looks like a towering palace in a depressing setting, whose masters suffer from anxiety and insomnia, while the servants suffer from disease, ignorance and hunger.”

And now what do we do? How are Muslims going to face up to the future on the threshold of the twenty-first century?

As I previously mentioned, we do not believe in solutions for the condition of man that are provided in the absence of Islam: exaggerated solutions provided by a Western mind that is in a state of crisis. That is to say, we note an emphasis now on economic development, political doctrine, everybody seeking his own narrow self-interest, the problem of democracy, the financial and economic problems, etc.

All these are artificial problems cunningly made up so that the only real problem remains ignored: that is, of the absence of a self-aware man who fully understands himself and is in harmony with the self. This is the real problem of man. The West exports to the Muslim so many problems he loses himself in his endless troubles. Finally, under pressure, he loses his vision, and becomes incapable of seeing the self, and becomes a victim in the hands of others, simply to be toyed with.

Therefore, we call upon the Muslim Arab thinker to try and transcend his present plight, by mentally easing the present strangulation, through providing the opportunity to find temporary and expedient solutions, so as to be able to transcend the present crisis. There is a tremendous force now seeking to strangle this nation. It is high time for the conscious Islamic Arab mentality to deal with the tremendous intellectual force behind the move to strangle this nation.

Arab minds should take action now, because there are many wide scale attempts for mental manipulation of Muslims in the last quarter of the twentieth century. Surely there are contemporary Islamic mentalities capable of dealing with the challenge. Let us then give these mentalities the opportunity to deal with these problems, and absorb the major shocks which are directed to paralyzing and dividing this nation, and then dealing with each part on its own.

The battle now is a mental and intellectual one. The Muslim

Islam today, as was the case before, has many potentials for overcoming the obstacles that have been put in its way, or those that Muslims themselves have put in their own way. That is to say that the world is not just ready for Islam to guide those who believe in the homeland of the Islamic nation, and they are now more than a billion people, but it is also ready for Islam to lead the world, or in the very least to participate in leading it.

In all honesty, and with the utmost intellectual integrity, I must say that I do not believe in the earnestness of solutions that are provided in the absence of Islam. Solutions for problems that are provided now in the name of contemporary civilization exaggerate their ability to save mankind. The West today is a giant rushing down his own road because of advances in technology, industry and science. But Mankind, which claims that it is the epitome of reason and rationalization, continues to act absurdly in the name of reason.

Any leader of a superpower, a man who will eventually go to his grave like any other man, says "I can destroy the Earth fourteen times over with my atomic and hydrogen bombs and the many forms of biological warfare that we possess." It would have been much better for him to have said that he could develop the earth fourteen times over so that everyone will have enough and the Earth will be capable of offering more.

The world, with all its sins and evils, is ready for Islam. Men have become robots, without feelings or emotions, who neither hate, love, rest, or find forms of self-expression. Everything has been predetermined. Even his internal feelings need artificial stimulants, like drugs. Drugs that are uppers and downers, drugs to wake up and drugs to go to sleep, drugs to pacify him and others to give him strength. These drugs are leading mankind towards what is called a total silent suicide. Western Culture is a culture without a heart, emotions and feelings. It is a culture of man without humanity; a culture that moves at the expense of others, as their philosophers say; and nobody should know better than them. We Muslims "pant" after this culture to no avail. And the Muslim who searches for guidance outside Islam is wasting his time, his life and his abilities.

Islam is the essence of moderation and balance, and the Islamic nation is a moderate and balanced witness of the universe. With this constructive moderation Muslims can take a leading position in the twenty-first century. The message of Islam is the saving of mankind and giving him happiness. Islam calls for the saving of man and his well being. It calls for moral reform and truth. The question here is: How could Muslims in their present crises get Islam to save the world?

The present plight of Muslims will surely not hinder us from reaching Islam, because Islam itself is not going to go East or West, but

ogy that has surpassed the imaginary?

In fact, when we look at Islam in its earliest ages, and look at it once again over the centuries, we find that it is still vital, still capable with its principles, of giving Muslims what they are looking for. Islam is a culture that has left its mark clearly stamped not only on the Islamic nation but also on Mankind as a whole. In fact, if Islam is examined now or in the future, rigorously, objectively, honestly, and in an unbiased manner, we find that Islam has no disputes with reason in the twentieth century. Whatever the problem that is being debated now in the area of Positivism, I emphatically and challengingly say, that nothing in Islam is antagonistic to reason.

Islam, after fourteen centuries, is still challenging the world to find fault with it. It is impossible for an unbiased scholar to claim otherwise. This is why we find many world thinkers declaring their conversion to Islam openly. Others are still waiting on the side lines. Islam is still in good shape, for it has given, at the time of the prophet (PBUH), enough reasons to drive man in the twentieth century and make him bow in respect and gratitude before it.

It is Islam that has given the Muslim the means of survival in the twentieth century. Islam provided the rationale for a comprehensive and integrated view of man, that some are now trying to tear apart and replace with the blind inevitability of history. It has also spread Arabic as we previously pointed out. Despite the fact that the body of the Islamic nation is now covered with wounds, it will never be torn apart. It will continue to exist throughout history in spite of the trickery, the slyness and falsity of the enemy; it will continue to exist in spite of the endeavours of warmongers and the disinformers. Islam is the only form of support to which Muslims take refuge in times of crisis.

The most important periods of the history of this nation are those in which the dawn of Islam arose. A Muslim is not defeated by his enemy at times of crisis as much as he is setback, when the Islam in his heart grows feeble and falls. Only then does his body give way, and he falls victim to others. A muslim may face crises and taste defeat, if he pursues his own personal interest in the name of Islam. But Islam itself will never end, and this in itself is a miracle that stresses the importance of this religion: it is the religion that will actually save this universe.

Muslims, I say this with the deepest sorrow, must have defeated Islam in their own souls before they became vulnerable to defeat by others. The problem lies in the Muslim himself, and not in the essence of Islam. Islam has continued unchanged throughout history, though some Muslims have given up, withdrawn and lie defeated. It is better for Muslims to cry out for Islam than to cry out for Muslims. It is assumed that Muslims who care for their religion should mend themselves first, because the problem is not in Islam but in themselves.

imperative for him to think it had to be done through a medium, namely the Church. That is to say that the Church had total control over thought and this resulted in the confinement of man's intellectual ability.

The only thing that saved the oppressed European mind was the emergence of the Islamic Arab Culture. Without the influence of the teachings of the Arab scientist Ibn Rushd, inter alia, there would have been no Western rationalization (Reason). Islamic Arab reason emphasises that the mind does not deny revelation (al-Wahiyy), and that revelation (al-Wahiyy) does not reject reason, because reason should be put into the service of revelation.

This extremely simple recipe, which represents Ibn Rushd's philosophical framework found its way into the thought of the Church and influenced St. Thomas Aquinas and the opponents of the Church. Ibn Rushd's Islamic philosophy and the philosophy of fellow Islamic thinkers was not restricted in its influence to those who had reservations about the church or to those who opposed it. It went further than that, as it pumped new thought into the church itself, and gave it the stamp of rationalism. In fact, Islamic influences created a new and integrated current of thought. The Church did not restrict itself to theorizing, it went further than that. Hand in hand with Thomas Aquinas it moved towards using reason in some situations. Thinkers who had reservations about the Church started saying: "Over there beside us, exists an Islamic Andulasian Culture that believes in God, but which has not impounded reason." Their self questioning started at the beginning of the western Renaissance. They wondered why they could not follow the footsteps of this culture?

Unfortunately, many Islamic Arab texts were plagiarized and became Latin texts. The name of the real author was deleted from translated books, and the name of the translator or an unknown person was added instead of the original author. But the real identities of the authors are fortunately being restored today by the efforts of the West. Scholars have started to reassess this historical and cultural mutilation, so that every rightful author would be given his due.

Islamic Culture did not only cover a long period of time and vast territories, extending from the China sea in the east to the Pyrenees in the west, but it was also one of the main pillars in the foundation of contemporary Western Culture. It would be very difficult to isolate the roots of western culture from Islam. There is a clear organic relation between the two cultures; "if the son would deny the father," Western culture will become a bastard culture.

The universal question now is: Is Islam still capable of facing the challenge in the last quarter of the twentieth century to rise once again in the age of ingenuity, interplanetary travel, computers and a technol-

and was adopted by other peoples living outside the borders of Arab lands. Indeed, a culture which puts itself in the service of high ideals, eternal values and a sublime creed, as in the case of Islam, becomes a cultural cycle with a dual sense of belonging, a spiritual and material belonging.

We may say that al-Ridda (Apostasy) wars after the death of the Prophet (PBUH) represented a situation of choosing between two options for Arabs and Muslims; a choice between forsaking the cultural cycle so that it would be fragmented once again into ethnic cycles, or that of pushing forward in the form of a cultural cycle which is what actually happened. It is not possible for a cultural cycle to move from one phase to another without passing through a curve or a bend, that is through a crisis which might drive it to go forward or push it backwards. Praised be Allah, for al-Ridda wars, which generated the necessary driving force to the desired cultural stage, which in its turn led to the spread of Islam in all continents.

It is Islam that led to expansion in territories, language and History. All these expansions were due to Islam. The Islamic cultural stage covered a large area territorially and demographically, and over a long period of time. As a dominant culture for more than a thousand years, it elevated man and fed all the other cultures of man with ideals and a driving force. There were many fine cultures that cannot possibly be ignored, before the advent of Islam such as the Greek and Roman cultures, representing reason and logic, in addition to the Indian and Persian cultures which produced wisdom, mathematical sciences, and Astronomy. The Arab Islamic culture came and dominated the civilized world, thus transcending all other cultures. This was followed by Western Culture, which cannot be considered a leap of real achievement springing from innovation and miraculous accomplishment. Western Culture is merely the product of a long course in the history of Mankind which was initiated by Ancient Oriental cultures, Greek and Roman Cultures and then the Islamic Arab culture.

The question that is always posed by specialists is: If the Islamic Arab Culture did not exist, would the Western Culture that the West is now enjoying have come into existence?

The answer on which almost everybody agrees, except some biased intellectual fanatics, is that without the Islamic Arab Culture there would have been no contemporary Western Culture. Islamic culture, was capable through a wonderful integration and balanced intellectual equilibrium, of giving everyone his rights. We have to point out that although the Greek and Roman culture illuminated some areas, it failed in others. Therefore, we blame the Greek and Roman background for the dark ages or the Middle ages in Europe, where it was difficult for man to think. In fact, thought was prohibited, and if it was

accordance with the logic of development, that change would come from Byzantium and Rome and not from the Arabian Peninsula.

When Byzantium was defeated and Rome declined, Islam rose from this peninsula to influence the development of the world. This, Islam did not achieve through major wars, but through its morality and behaviour. Thus, the Empires, before the Islamic way of life, turned into peripheral entities.

Development always influences behaviour, behaviour also adapts to development. Philosophers have always disputed which of them influences the other? Is it behaviour or development? And when does it happen? Here we find almost complete agreement that development controls behaviour in good times when things are going well. In times of crisis, it is behaviour that leads man to development. Man has been able to overcome the major crises of humanity by his behaviour and not by his development. It is definitely wrong to say that it was development that led humanity in its old societies, it was behaviour, i.e. the message of Allah and divine revelation (al-Whiyy al-Allahi), which gave the lead to these communities living in paganism, and incapable of explaining and rationalising even the simplest matters. This divine revelation has led humanity to meditate. This is what Durkheim, the atheist philosopher said "Behind every philosophy is a religion, it is impossible to imagine a philosophy that is not founded on religion."

Religion, then, is what motivated humanity to meditation and woke up the wise men and evoked visions of the future. Therefore, it was behaviour, initiated by the message of the Creator, which rectified the course of primitive communities and communities suffering from ignorance and ambiguity. Islam is considered, without doubt, the most important phase in the radical rectification of the development of behaviour because the rectification of behaviour does not happen because of development.

Islam caused a deep and radical change in the way of life of the Arabs living in the Arabian peninsula, in the first instance. It has also caused the same deep change in many Muslim nations since their earliest days. Besides the eternal divine gift of Islam, it embodied the beginning of the tremendous cultural cycle that followed its course until it prevailed throughout the whole world. Some tribes which were continually engaged in defending their homeland, were capable via Islam, to transcend this sense of belonging and commitment to a more sublime commitment, representing higher ideals and sublime values. This is how the Arabs achieved their cultural cycle. It is impossible for a philosopher of history to think of the Arabs' cultural cycle in the absence of Islam. This Arab cultural cycle became a well illuminated beacon and a stable permanent culture after it transcended its origins,

Introduction:

This paper will not deal with vain speculations made in the name of what is called inevitable reality or futuristic predictability because the future lies in Allah's Hands, and nobody can know the future except for Almighty Allah.

We start from this axiom in an age when some scholars positively think that they could explore and predict the future: this is known as the science of Futurism. Among the prominent scholars in Futurism are people like Fichtheim, Berger, Erroll Joseph and others, who classified the future into the following: the immediate future which covers a period of a year; the very near future which covers a period of five years; the near future which covers a period of twenty years; the distant future which covers a period ranging from twenty to fifty years. There are also studies by scholars of technology and demography on the limits of development, world dynamics, pessimistic tendencies, the Malthusian expansion and many other pessimistic and optimistic, futuristic projections. These studies are carried out now by a number of specialized associations and institutions in Futurism such as The Himmler Futurist Institute, The Hudson Institute, The futurist Institutions in America at the end of the sixties, the International Association for the Study of the Future which has more than two thousand members, the many conferences held on Futurism at the end of the seventies, and later on, Toffler's work on Future Shock. The study of the future also includes those who warn us of the forthcoming crisis and those who point to the way out: the harbingers of a miserable future and the forecasters of a bright future. We find that all these people agree on one thing: the tremendous driving force in everything around man, resulting from his inventions and from the bitter crises and violent suffering, that he experiences. Some scholars have called man "a new kind of traveller" a traveller in time and unfamiliar places who inevitably has to face many shocks which could lead to his defeat and destruction, or on the other hand, could lead him to find new ways of adaptation to enable him to deal with the challenge of the future.

Within the previous framework, I cannot spend too much time on the details of futurism which are not directly related to the purpose and topic of this paper, namely Islam. Or more specifically, how are Muslims, who are guided by Islam, facing up to the future? And how did Muslims adapt to the sciences in different ages?

When Islam came on the world, the major cultural achievements were in the hands of the larger Empires. It was thus assumed, in

Muslims and the Challenges of the Future

**“The problem lies in the Muslim himself, not
in the essence of Islam.”**

Auss voyons-nous qu'il est temps de cesser de fouiller dans les maux et les souffrances enfouis dans beaucoup de cœurs.

Il est temps de dire: nous sommes sur un même navire et nous avons un même rivage de sécurité. Si une partie de notre navire vient à couler, tous ses passagers périront aussi.

UN DERNIER MOT

Enfin, entre pessimistes et optimistes où l'expérience nous mènera-t-elle, à la lumière de ce qui a précédé?

Nous optons pour le cortège de l'optimisme en ce qui concerne notre génération; mais c'est, bien entendu, un optimisme à conditions. En tous les cas, nous sommes certains que ce à quoi nous assistons aujourd'hui n'est qu'un cauchemar terrifiant.

Il est certain que ce sera, un jour, l'avènement des générations de 300 ou 400 millions d'arabes entourés d'un milliard de leurs frères dans l'Islam. Ces générations futures considèreront les cauchemars d'aujourd'hui comme des moments de grande peine que leur esprit conscient, armé de la lumière de l'inspiration divine, a pu surmonter pour leur permettre de vivre dans une époque antérieure à la leur.

* * *

Nul doute qu'on doit à la civilisation occidentale un apport considérable en ce qui concerne l'activation de la méthodologie de l'esprit, la variété de ses domaines de recherche et d'investigation sur les différents phénomènes de l'univers; de même qu'elle a réussi à motiver la compétence analytique de l'esprit, sans compter sa compétence expérimentale dans les laboratoires. Cette compétence analytique ne s'est pas contentée de lire l'homme ou la nature comme un texte, mais elle a cherché à connaître la structure des phénomènes en soumettant ceux-ci à l'expérimentation pour en découvrir les lois; elle ne s'est pas limitée aux phénomènes de la nature, mais elle a eu l'ambition de disséquer le corps humain en tant que phénomène de la nature et d'en découvrir les secrets. Dans une phase ultérieure, cette ambition a dépassé l'homme en tant que corps de la nature, pour essayer de le découvrir en tant que phénomène humain. Celui-ci étant difficile à isoler et à dominer dans les laboratoires à cause de sa parfaite conscience de l'expérimentation, il fallait tout au moins observer de près ce phénomène humain pour le décrire, l'expliquer et le justifier et, par là même, déterminer les constantes qui résident derrière les aspects de régularité et de répétition; par ce processus il a été possible de proposer des probabilités et des théories sur la finalité de la conduite de l'homme, de sa psychologie, de ses actions et de ses réactions.

L'emploi des compétences intellectuelles est, pour le musulman, la meilleure garantie pour un avenir susceptible de négocier avec les civilisations dominantes d'égal à égal et non de dominant à dominé. Peut-être, dans une phase ultérieure, cela lui permettra d'avancer sous l'étendard islamique, à travers les siècles à venir, vers la réalisation du modèle de l'homme vraiment complet qui ne dénie pas sa religion et qui se courbe en signe de vénération devant son Créateur qui lui a fait le don de la lecture, et lui a appris ce qu'il ignorait; un musulman qui n'use ni d'injustice ni de cruauté, mais qui demeure fidèle au message divin dans lequel réside le salut de l'humanité; un homme qui aspire à éviter les malheurs terrestres qu'il croise sur son chemin pour jouir de la félicité dans la vie sur terre et dans l'au-delà, ce dernier étant l'extrême félicité.

formation de l'homme à travers son héritage de traditions, de mœurs et d'habitudes: c'est "l'anthropologie socio-culturelle". La civilisation prédominante n'a pas présenté ces spécialisations de manière empirique, mais les a fondées sur des méthodologies de recherches et d'explication à travers lesquelles elle essaye de maîtriser les phénomènes humains, non dans le but d'en découvrir des lois, comme c'est le cas dans les sciences expérimentales, mais pour en découvrir les normes de répétition et de régularité; cela n'étant qu'une préparation au recensement des facteurs explicatifs. C'est ainsi que la civilisation prédominante a présenté une image réaliste et non pas une image utopique de l'homme d'aujourd'hui.

Ici nous sommes obligés de nous demander: dans quelle mesure est-il possible de tirer profit de ces méthodologies modernes sans que ce profit n'influence le choix initial que nous avons fait pour l'homme de notre conception: un homme confiant en cette foi fixée dans son coeur, prouvée dans sa conduite et accomplie par sa fidélité aux ordres de la religion, c'est - à dire par l'application et le respect des règlements de Dieu, de Ses lois et de Ses rites?

Convient-il au musulman d'adopter à l'égard de ces méthodologies et de ces spécialisations une attitude de confiscation et d'annulation, parce que considérées comme intruses et excentriques, ou une attitude d'enthousiasme exagéré, d'adhésion totale de fonds et de forme au risque de tomber, à force d'imitation, dans la déformation, le plagiat et l'artifice? Ou bien se frayera-t-il un chemin où ses pas de musulman éclairé seraient consolidés avant tout et surtout, par la lumière de la foi? Inspiré par la lumière émanante de cette foi et mû par sa fidélité pour elle, poussera-t-il son esprit à la méditation, à la réflexion et au discernement? N'est-il pas déjà temps pour que le musulman, fier de sa foi et de ses capacités mentales, aspire à récupérer son dû? Nous voulons dire, par "dû", les contributions de l'esprit musulman au cours des époques florissantes de son histoire- dans les différents domaines de la science et des arts et qui furent la base de ce qu'a produit la civilisation moderne de l'Occident; cette civilisation qui prétend avoir glorifié l'homme dans son monde et mis en relief sa philosophie intrinsèque.

historiens; on intensifiera les interviews dans les journaux, magazines et à la radiodiffusion, pour mettre l'accent sur une autre question importante: la notion d'accusation et la notion de crise. Sans tabous, mais aussi sans rancunes, sans attaques d'ordre personnel et sans entêtement prémédité sur des points de vue personnels. Par exemple, nous ne faisons pas foi au sérieux de termes tels que: (tuer) et (renverser); car notre crise n'est pas centrée sur des assassinats ni des séries de coups d'état successifs; ce serait peut-être pratique dans les sociétés industrielles parce que celles-ci disposent d'un système particulier d'organisation et d'une opinion publique très élaborés et très étendus; ce qui leur assure la possibilité de mobiliser la lutte, de la délimiter et de surmonter les tentatives de coups d'état.

Quant à nous, arabes musulmans, nous avons un énorme surplus de conflits historiques aux multiples références, exportable même à d'autres nations. Aucun besoin donc de nous dire: recommençons à lutter les uns contre les autres et à résoudre nos problèmes démographiques en élargissant l'étendue des cimetières plutôt que l'étendue de l'urbanisation. Et nous nous liquiderons les uns les autres. Il ne faut point que notre esprit soit détourné vers la création de discordes, de même qu'il est absolument inutile de diriger notre lutte vers le passé. Dirigeons plutôt une lutte consciente vers l'avenir, sans chercher à régler nos comptes entre nous avant que chacun ait d'abord réglé ses comptes avec lui-même, puisqu'il fait lui-même partie intégrante de cette nation.

Cela suppose que nous trouvions une formule islamique claire pour notre vie quotidienne: une formule basée sur une conception méthodologique précise, qui permette au musulman de vivre avec sa croyance à l'intérieur de son époque et non pas à l'extérieur. On sait que la civilisation prédominante, occidentale avec ses deux secteurs, libéral et marxiste, a imposé à l'homme de notre époque des spécialisations destinées, non seulement à déterminer sa conduite au sein d'un contexte familial ou social, mais qui essayent également de comprendre le dialogue qui se produit dans son for intérieur, avec son moi, consciemment et inconsciemment : c'est la psychologie. En plus d'une autre spécialisation qui étudie la

Je pense que le problème relatif à l'enfant jusqu'à l'âge de douze ans, doit être celui de son intégration. Et je souhaite qu'il soit absolument interdit d'inculquer aux enfants de cette nation jusqu'à cet âge aucun sentiment d'intégration, aucun idéal, aucun modèle, sauf ceux de sa civilisation, comme font les nations et les Etats auxquels nous sommes confrontés, à l'heure actuelle, dans l'arène de la lutte des civilisations.

Il n'est pas non plus opportun de parler à nos enfants avant cet âge (douze ans) de Socrate, de Jean-Jacques Rousseau, de Locke, de Shakespeare, de Goethe, de Garibaldi, de Napoléon et autres éminences occidentales dans les domaines intellectuel et politique. Cela ne peut se faire qu'après la maturité de toutes les facultés de l'enfant, quand les valeurs référentielles seront claires et nettes chez lui, et quand il aura compris la valeur de nos personnalités éminentes qui ont consolidé les fondements de l'Islam et élaboré sa civilisation.

Un grand danger réside dans le fait de présenter à l'enfant des exemples de la civilisation occidentale en même temps que des exemples de la vie du Prophète et de l'Histoire de l'Islam. Cela perturberait la mentalité de l'enfant et le mettrait dans l'incertitude, surtout que la civilisation occidentale jouit d'un pouvoir de présence et d'attraction et constitue un modèle éblouissant. Cela mènerait automatiquement à un conflit entre les deux modèles dans l'inconscient de l'enfant; dans ce conflit, de deux choses l'une: ou bien la victoire sera au modèle qu'il a sous les yeux, ou bien les deux modèles seront annulés à la fois, l'enfant sera sujet alors à ce qui se produit aujourd'hui sous la forme d'un schisme de la civilisation. Dans ce que nous proposons ici, il ne s'agit pas, comme on pourrait le penser, d'une forme d'endurcissement ni de renfermement puisque nous munirons cet enfant, jusqu'à l'âge de douze ans, des moyens de communiquer avec les autres civilisations: on lui apprendra les langues étrangères avec la même profondeur que la langue arabe, mais sans intégration, ni modèles ni imitation. Lorsque nous présentons des exemples, il faut que ceux-ci émanent de l'histoire de l'enfant et du contexte de sa patrie.

Parallèlement au colloque pédagogique en question, on organisera des réunions intellectuelles entre les plus grands

Loin des généralisations intellectuelles et des abstractions, **quelles sont -avec précision- les premiers pas à faire sur la voie de l'avenir afin de surmonter la grande crise qui nous étouffe?**

Entendons-nous d'abord sur l'idée d'une conférence de la Pensée Arabe et Islamique. Entendons-nous sur un minimum de pensée commune, sans que chacun n'arrive avec un thème préconçu qu'il sera venu uniquement pour défendre. Il serait peut-être préférable de proposer, dès le départ, un colloque entre les responsables de l'éducation pour réviser le système pédagogique et discuter, outre l'évolution des outils et des programmes de l'enseignement, l'identité de l'individu dans cette nation et en sortir avec - je ne dirais point une charte ni une constitution, mais du moins des clauses qui diraient dans leur ensemble, telle est notre identité, la seule qui doit figurer dans les différents cadres de l'enseignement, depuis les classes maternelles jusqu'à l'Université.

Il n'y a pas de doute que la question d'inculquer le sentiment d'intégration est une des questions cruciales dans le domaine de l'éducation de l'enfant musulman, dès son plus jeune âge. Dans les sociétés libérales, par exemple, nous remarquons que la famille tient à envoyer ses enfants chez les Soeurs à l'Eglise, quelquefois sans être elle-même convaincue par le prêtre responsable de l'Eglise. Cependant, la famille considère cela comme une chose indispensable à la création du sentiment d'intégration. Le même phénomène se produit en Union Soviétique et dans les pays du Bloc Est d'une manière générale; l'enfant commence son éducation au cycle primaire dans un contexte où prédominent les règlements marxistes et léninistes. Or, nous remarquons que, dans la conception culturelle de notre société, les moyens se sont transformés en fins; ainsi voyons-nous la famille s'occuper de la nourriture de l'enfant, de son habillement, de sa santé et d'autres aspects qui sont plutôt du ressort d'une servante et non du ressort de la maîtresse de maison.

Dans le contexte pédagogique, l'idée "d'entente" se fait par étapes; dans ce sens que le musulman passe par trois phases d'entente: d'abord il s'entend avec lui-même, puis avec sa religion, l'Islam, ensuite il s'entend avec les non-musulmans.

martyr ceux de ses hommes qui étaient capables de faire la guerre en 1948, elle se serait garanti une vie honorable et aurait gagné un temps précieux. Mais maintenant que la nation a râté la chance qui s'offrait à elle de réaliser la cohésion organique qui lui aurait permis de défendre son entité, il ne lui reste plus qu'à se servir de son potentiel mental gigantesque sans illusions de "vaincre"; c'est là une chose qui ne se produira pas dans notre génération, à moins qu'on ne croie à l'existence d'une baguette magique.

Nous insistons encore une fois sur la nécessité que notre génération atténue autant que possible, par son potentiel mental, les répercussions et les aspects négatifs de la crise, ainsi que les réminiscences que vont hériter les générations futures; de sorte que ces-ci ne perdent pas leur temps à payer les dettes d'une génération qui n'aura pas fait ses calculs comme il le fallait.

Je ne prétends pas lire l'avenir. Je fais plutôt une réflexion scientifique sur la réalité de notre époque en disant que: la table des grandes puissances ne sera déblayée de la civilisation technologique occidentale contemporaine que s'il se produit des secousses à l'échelle universelle, telles qu'une guerre hydrogénique par exemple. Or, vu le pouvoir intrinsèque à l'évolution elle-même, nous pensons que la civilisation occidentale ne sera plus seule à table, car elle n'est pas la seule dans tout l'univers à tenir toutes les données de l'évolution. D'autres pays possèdent également "la tête de lance", c'est - à dire la technologie - comme le Japon, qui partage déjà la table, et la Chine qui la partagera très bientôt. D'un regard sur le monde Islamique nous pouvons constater que, si ce monde Islamique ne possède pas encore "la tête de lance" qui est la technologie, du moins dispose-t-il de l'énergie, du potentiel humain et des moyens matériels. Nous croyons donc que, sur cette table, il y aura une place pour la Nation Arabe. Il y aura aussi du vacarme universel provenant des uns et des autres pour partager un coin de la table auprès des nouveaux géants; **et nous souhaitons à la nation musulmane d'être, par son potentiel et son esprit, parmi les rangs des géants et non pas des faibles de vacarme.**

surmonter l'étouffement. En fait, il existe, à l'heure actuelle, des tentatives redoutables pour étouffer totalement cette nation. Il est temps que l'esprit arabe islamique conscient établisse des rapports avec le puissant pouvoir intellectuel et rationnel qui se tient derrière cet acte d'étouffement, pour échapper à son emprise.

Les esprits doivent agir immédiatement car, dans ce dernier quart du vingtième siècle, il se produit une effrayante domestication de l'esprit: un gigantisme mental. Il est certain qu'il existe des esprits doués parmi les arabes musulmans contemporains. Donnons-leur l'occasion d'évoluer, d'aller à l'encontre des esprits qui ont atteint les sommets de l'ingéniosité et de la fourberie; l'occasion d'atténuer la violence des grands chocs qui visent en fin de compte à paralyser le mouvement de notre nation et à la partager, pour l'avaler ensuite morceau par morceau.

La lutte est aujourd'hui une lutte d'esprits et de pensées. Il incombe à la mentalité arabe musulmane d'aujourd'hui de commencer à exploiter ses facultés pour confronter les grands risques et les événements imprévus; elle se doit de découvrir, d'une manière objective, toutes les voies d'accès du danger pour ne pas élargir la vague d'obscurantisme et de supercherie. Il est certain que **notre Nation ne réussira à confronter l'ennemi qu'à travers notre confrontation à nous-mêmes. L'ennemi sait que nous sommes incapables de nous confronter à nous-mêmes. Amenons-le à comprendre - au cours de la phase actuelle de notre histoire-que nous avons effectivement décidé de faire cette confrontation, que nous reconnaissons avoir commis beaucoup d'erreurs, sans toutefois reconnaître l'ennemi et quitte à ce que les générations futures viennent rectifier ces erreurs plutôt que de laisser l'ennemi le faire lui-même.**

La confrontation mentale est une fatalité que doit subir la nation islamique, après avoir perdu, à la fin des années soixante, l'occasion d'adhérer à ce corps étranger qui lui avait été transplanté pour l'anéantir.

Sans verser les larmes sur les vestiges de notre passé, je dis: si cette nation avait adopté, à cette époque-là, le principe du sacrifice au lieu du principe des surenchères, et envoyé au

siècle est l'homme qui ne connaît pas de limites à ses consommations, qui cherche le bien-être et la fortune par des moyens qu'il simule ou qu'il fabrique. Cet homme de l'incertitude! Heidegger, l'archevêque des philosophes du vingtième siècle, a bien décrit notre époque :

C'est une époque qui apparaît comme un château grandiose sur un fond triste, dont les maîtres souffrent de l'insomnie et de l'anxiété et dont les serviteurs souffrent de la maladie, de l'ignorance et de la famine.

Et maintenant que faire ?

Comment les musulmans vont-ils affronter l'avenir, maintenant qu'ils sont au seuil du vingt-et-unième siècle?

Comme nous l'avons déjà dit: Nous ne nous fions pas au sérieux des solutions qui sont conçues en l'absence de l'Islam, solutions exagérées que nous offre l'esprit occidental qui est, lui-même, en pleine crise. Nous remarquons qu'on insiste, à l'heure actuelle, sur le développement économique, les régimes politiques ... le problème démocratique, le problème monétaire, la crise économique.

Autant de problèmes habilement fabriqués pour détourner les esprits du problème réel: celui de l'absence de l'homme conscient, satisfait, en accord avec lui-même. On exporte au musulman la plus grande quantité possible de "divertissants" afin qu'il ne réalise point d'où viennent les problèmes et les soucis. Les litiges artificiels se multiplient et s'imposent à lui, jusqu'à ce que sa vue devienne presque nulle et qu'il soit incapable de discerner où se trouve la solution de son problème. Plus encore, il ne retrouve plus son moi et se résigne facilement à son adversaire qui fait de lui ce qu'il veut.

Aussi . . .

incitons-nous l'esprit arabe musulman penseur à tenter d'approfondir ses capacités mentales et son rendement, de les approfondir intelligemment de manière à atténuer l'acuité de la crise étouffante en proposant différentes alternatives, pour ne pas dire des solutions définitives ou des solutions pour toutes les générations à venir. Seulement des solutions pour

qui hait, qui se repose, qui réalise son moi. C'est plutôt un robot. Ses sensations ne peuvent être extériorisées qu'à l'aide de moyens artificiels tels que les pilules. Aujourd'hui toutes ses actions sont réglées par les pilules. Il se réveille, se fortifie et se calme à l'aide de pilules. Celles-ci le conduisent vers ce qu'on appelle le suicide silencieux et général. La civilisation occidentale est une civilisation sans cœur, ni âme, ni sentiments. C'est la civilisation de l'homme en l'absence de l'humain; une civilisation qui se développe aux dépens des autres comme le déclarent ses propres philosophes; et ils sont d'ailleurs mieux édifiés pour le dire. Et nous autres musulmans, nous nous essouffons derrière elle comme un coureur perdant, le musulman qui cherche la conversion au droit chemin de la foi islamique ne faisant que perdre son temps, sa vie et ses capacités à suivre cette civilisation.

L'Islam est le critère de juste milieu. La Nation musulmane est la nation de juste-milieu qui témoignera de cet univers. Par ce juste-milieu constructif, par ce critérium symétrique, la chance est offerte au musulman pour occuper une place de commandement au vingt et unième siècle. Au fait, la mission de l'Islam est une mission de salut et de bonheur pour l'homme; c'est une invitation au bien et au salut; une invitation à la plété et à la loyauté.

Une question s'impose: comment, partant de la situation des musulmans en crise, l'Islam accourra-t-il à la rescousse de ce monde?

L'état critique des musulmans ne les empêchera certainement pas de retrouver l'Islam; car ce n'est pas l'Islam qui se dirigera vers le monde oriental ou le monde occidental noyés dans leurs problèmes, mais c'est eux - de leur propre gré - qui se dirigeront vers l'Islam, où ils verront un canot de sauvetage, sans autre alternative. L'Homme occidental, en tant qu'être humain, fouillera certainement dans ses papiers à la recherche d'une issue à ses problèmes incurables, mais ces papiers ne le mèneront à aucun résultat. Il dira enfin: Pourquoi ne pas feuilleter les pages de cette religion, qui est l'Islam? Les pionniers de la pensée et les éminentes autorités de la philosophie du vingtième siècle sont unanimes sur l'existence d'une impasse culturelle, résultant du fait que l'homme de ce

a d'abord trahi l'Islam dans sa propre âme, pour s'exprimer ensuite à la défaite devant autrui. Le problème réside donc à l'intérieur du musulman lui-même et non pas dans l'essence de l'Islam; car l'Islam est demeuré le même à travers les siècles, alors que le musulman a chancelé, a regressé puis a défaili. A ceux qui s'écrient: "A moi l'Islam" il serait plus opportun de dire: "O musulman!" En fait le musulman qui s'inquiète pour l'avenir de l'Islam devrait commencer par se réformer lui-même; le problème étant le sien et non celui de l'Islam.

L'Islam aujourd'hui, possède de nombreuses capacités qui lui permettent de surmonter aussi bien les obstacles qui sont jetés sur son chemin que ceux qu'il se crée lui-même. C'est à dire que le terrain est propice non seulement pour que l'Islam gère l'action des musulmans au sein même de la Nation musulmane-qui compte aujourd'hui près d'un milliard de musulmans- mais aussi pour gérer le monde, ou du moins, participer à sa gérance.

En toute franchise et en toute intégrité nous ne croyons pas que des solutions sérieuses puissent exister en l'absence de l'Islam ... Les solutions qui sont proposées à l'heure actuelle au nom de la civilisation de notre époque comportent en réalité des exagérations sur les capacités dont celle-ci dispose pour assurer le salut. L'Occident est aujourd'hui un géant qui prend de plus en plus de l'élan grâce à son extraordinaire développement technologique, industriel et scientifique. Or l'homme occidental prétend que c'est au nom de la Raison que l'esprit et le raisonnement produisent tous ces aspects d'irrationalisme qu'on observe autour de nous.

Le chef d'une grande nation ... un homme qui sera un jour enseveli comme tous les autres humains, se lève pour déclarer qu'il peut détruire la terre quatorze fois à l'aide de l'atome, des armes biologiques et des fusées hydrogéniques. Il aurait dû plutôt annoncer qu'il pouvait rendre la terre quatorze fois plus riche pour qu'elle puisse offrir à l'humanité quatorze fois plus que ce qu'elle offre actuellement.

Le monde, avec tous ses péchés et ses vices est donc préparé à l'Islam. L'homme est devenu un être mécanique; ce n'est plus un être pourvu de sentiments et d'affections, qui aime,

MIS EL BAKRY

Dr. ROUCHDI FAKKAR

PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU

EN DIALOGUE AVEC

**LES PROBLÈMES
DE L'HÉRITAGE CULTUREL
DES MUSULMANS**

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE.

14 Rue GAMHORIYAH

LE CAIRE - 1988

Première édition

1408 H. — 1988

TOUT DROIT EST RESERVE

مطابع المختار الاسلامي

conflit avec la Raison au vingtième siècle. Et, quelles que soient les théories étalées à l'heure actuelle sur les tables des écoles positivistes, il est impossible, et nous lançons là un défi, de marquer un seul but contre la légitimité de l'Islam, au nom de la Raison.

Voici que l'Islam, après quatorze siècles d'histoire, tient encore le défi. Il serait difficile à tout savant honnête de prétendre le contraire. C'est pour cela que **nous voyons de nombreux penseurs dans le monde se convertir ouvertement à l'Islam**. D'autres encore sont en voie de le faire. L'Islam a donné, à l'époque du Prophète, des considérants qui obligent l'homme du vingtième siècle à se courber par respect et par vénération.

C'est l'Islam qui a rendu possible au musulman de vivre au vingtième siècle. C'est l'Islam qui lui a donné les considérants d'une existence cohérente et complète que certains cherchent à disloquer; c'est lui qui a étiré la terre; étendu l'histoire et propagé la langue comme nous l'avons mentionné plus haut. Bien que le corps de la Nation islamique soit aujourd'hui parsemé de blessures, il n'en sera jamais déchiré pour autant. Il survivra tout au long de l'Histoire, en dépit de toutes les astuces des adversaires, de leurs fourberies et de leurs artifices et en dépit des efforts des agents de la guerre et des camoufleurs de vérités.

L'Islam est la garantie auprès de laquelle le musulman cherchera refuge dans ses moments de crises.

Les grandes périodes de l'Histoire de cette Nation furent celles du rayonnement de l'Islam... Et le musulman ne récidive point dans les moments de grande crise, autant qu'il rechute lorsque c'est l'Islam lui-même qui rechute dans son coeur. C'est alors que son corps chancelle et défaille et devient un gibier facile pour les autres. Il se peut que le musulman soit pris d'une crise et qu'il récidive; c'est qu'alors il commence, mû par des intérêts personnels, à conduire un Islam à sa manière à lui. Mais l'Islam n'interrompt jamais sa marche; ce qui est, en soi, un miracle et un pouvoir qui, tous deux, démontrent que nous devons sauvegarder cette religion qui est effectivement le véritable salut pour cet univers.

Le musulman, et nous le disons avec beaucoup de chagrin,

près de nous une civilisation andalouse islamique croyante, une civilisation qui a un Dieu, une civilisation qui ne s'est pas fondée sur l'élimination de la Raison. Une question avait commencé à s'imposer au début de l'époque de la renaissance occidentale : pourquoi ne pas suivre la voie de cette civilisation islamique ?

Ce qui est décevant c'est que de nombreux textes arabes islamiques furent plagiés pour devenir des textes latins. On a vu sur certains livres le nom des auteurs effacé et remplacés par le nom du traducteur ; parfois des livres étaient attribués à un étranger inconnu. Mais heureusement que les œuvres plagiées commencent actuellement à récupérer leur véritable identité par les mains de l'Occident lui-même, les savants ayant commencé à dénoncer cette imposture culturelle historique pour rendre à César ce qui est à César.

La civilisation islamique ne s'est point contentée d'occuper une place prééminente dans le temps et une place aussi prééminente sur cette surface qui s'étend de la Mer de Chine à l'Est, aux montagnes des Pyrénées à l'Ouest, elle fut surtout un des piliers de la civilisation occidentale contemporaine dont les origines seraient difficiles à isoler de l'Islam. Car il existe un lien organique entre les deux, sauf si le fils dénigre son père, cette dernière serait alors une civilisation bâtarde.

Une question se pose aujourd'hui sur le plan universel : **l'Islam est-il encore capable d'accepter la confrontation et le défi dans ce dernier quart du vingtième siècle et de retrouver son rayonnement dans cette époque de gigantisme intellectuel et de voyages vers les astres ; l'époque des ordinateurs et de la technologie dont les données ont dépassé toute imagination ?**

La vérité est que, lorsque nous considérons l'Islam à ses premières époques, et que nous le considérons une deuxième fois au cours des siècles postérieurs, nous constatons qu'il se porte encore bien, qu'il est capable, par ses principes et par son rendement, de fournir au musulman tout ce à quoi il aspire. Car l'Islam est un processus qui a laissé son empreinte sur l'histoire de la Nation islamique, voire même l'histoire de l'humanité entière. Et lorsque nous considérons l'Islam, même à travers une logique rigoureuse, une sérieuse réflexion et une vision objective, calme et intégrée, nous constatons qu'il n'est pas en

monde est d'accord, à l'exception des esprits emportés, extrémistes et de fanatisme intellectuel, est que, sans la civilisation arabe, la civilisation occidentale contemporaine n'aurait pas existé; car c'est cette civilisation islamique qui, par son admirable cohésion et ses convictions intellectuelles équilibrées, a accordé à chaque domaine de connaissance l'intérêt qui lui était dû. Alors que l'on remarque que la civilisation gréco-romaine, en éclairant certains domaines, en a obscurci d'autres. Par conséquent, ce qu'on reprend de commun aux deux civilisations grecque et romaine c'est qu'elles sont passées par un tunnel obscur, celui du Moyen-Age Européen, où il était difficile à l'homme de penser. La simple pratique de la pensée lui était interdite. Et s'il devait le faire à tout prix, il lui fallait trouver un tuteur pour le compte duquel il pouvait penser, en l'occurrence, le système ecclésiastique occidental; c'était donc la domination totale de la pensée de l'Eglise. Le résultat en fut la confiscation de l'homme et l'obscurcissement de son cœur.

L'esprit confisqué de l'homme européen n'a été sauvé que par la civilisation arabe islamique, le jour où ses lumières rayonnèrent sur lui. Sans l'influence des instructions du célèbre savant arabe Ibn Rouchd (Averroès), entre autres influences, le rationalisme européen n'aurait point existé. Le rationalisme arabe islamique affirme que la Raison n'exclut point la Révélation de même que la Révélation n'exclut point la Raison. Car la Raison est au service de la Révélation ; l'une confirme l'autre.

Cette recette simplifiée jusqu'à l'extrême, qui constitue un cadre philosophique chez Ibn Rouchd, a trouvé son chemin dans la pensée de l'Eglise au point d'influencer St Thomas d'Aquin et tous les adversaires de l'Eglise. L'influence de la Philosophie d'Ibn Rouchd et d'autres penseurs de l'Islam ne s'est point limitée aux adversaires de l'Eglise—ceux qui l'ont séquestrée—mais s'étendit pour nourrir l'Eglise elle-même et pour la rationaliser, donnant naissance, en réalité, à un mouvement assez cohérent. Ainsi l'Eglise, sans se contenter de théoriser, commença à agir avec Thomas d'Aquin et ses adeptes pour imposer l'arbitrage de la raison dans certaines situations. Ceux qui avaient commencé à séquestrer l'Eglise disaient: Il y a

A mon avis, on pourrait dire que les guerres de "Riddah" - (récusation) après la mort du Prophète, que prière et salut de Dieu soient sur lui, ont concrétisé la notion de choix pour les arabes et les musulmans; ce choix étant: soit la régression de l'ère culturelle et son morcellement une fois de plus en ères généalogiques, soit l'élan vers une ère de civilisation, comme ce fut effectivement le cas. Ainsi, toute ère de l'Histoire ne peut-elle évoluer qu'à travers un virement ... c'est à dire qu'à travers une crise, ou bien elle prend de l'élan, ou bien elle rétrograde. Et c'est grâce à Dieu que, de ces guerres de "Riddah", est née une poussée vers l'ère de civilisation souhaitée avec l'expansion de l'Islam sur les différents continents.

C'est l'Islam qui a étiré la terre, propagé la langue et étendu l'Histoire. Trois aspects réalisés grâce à l'Islam. L'ère de la civilisation islamique s'est donc répandue sur un espace démographique et temporel très vaste, ayant effectivement couvert plus de mille ans d'histoire au titre de civilisation prédominante ... une civilisation qui a conduit l'homme vers la sublimation et non vers la chute. C'est elle qui a nourri toutes les ramifications des civilisations humaines des notions d'idéalisme et d'élan. Il est des civilisations de niveau supérieur qui ont existé avant l'Islam et qu'il est impossible d'ignorer, telles que les deux civilisations grecque et romaine qui se sont caractérisées par le rationalisme et la logique ... et les deux civilisations indienne et persane qui incarnent la sagesse, les mathématiques et l'astronomie. Plus tard la civilisation arabe islamique se répandit dans le monde, surpassant toutes les autres civilisations; puis vint lui succéder la civilisation occidentale qui ne peut, en aucune façon, être considérée comme une éruption d'exploits née d'une créativité originale et d'un génie miraculeux celle-ci étant le rendement d'un processus apparemment long dans l'histoire de l'humanité auquel ont contribué les anciennes civilisations orientales et la civilisation arabe musulmane.

La question qui surgit dans l'esprit des gens spécialisés est la suivante: **si la civilisation arabe islamique n'avait pas existé, y aurait-il eu une civilisation occidentale telle qu'elle prévaut actuellement en occident et par le moyen de laquelle nous en dépendons?** La réponse sur laquelle heureusement tout le

l'humanité et les premières sociétés, car c'est plutôt la conduite, dans le sens de Message divin et d'inspiration divine qui a dirigé ces sociétés, alors plongées dans l'idolâtrie et le paganisme... incapables même d'expliquer les aspects les plus simples autour d'elles. C'est la conduite qui les a menées à la méditation car, comme l'a dit Durkheim- ce philosophe incroyant: **Derrière toute philosophie il est une religion, et il est impossible d'imaginer une philosophie non fondée sur une religion.**

C'est donc la religion qui a incité l'humanité à la méditation et éveillé les sages (les philosophes) à la vision futuriste... Par conséquent, c'est la conduite issue du message du Créateur qui a effectué le changement dans la marche des sociétés primitives et des sociétés qui souffraient de l'ambiguïté et de l'obscurité des valeurs; et nul doute que l'ère Islamique est considérée comme la phase primordiale, dans la réforme fondamentale de l'évolution par la conduite, et non point la réforme de la conduite par l'évolution.

L'Islam a produit une évolution essentielle dans la vie des Arabes de la Péninsule Arabique et dans plusieurs nations musulmanes, dès les premiers siècles de leur histoire. Car l'Islam, ce don divin, a concrétisé le début d'une extraordinaire ère culturelle qui s'est développée pour dominer la presque totalité du monde; en ce sens que l'ensemble des clans et des tribus qui jadis s'acharnaient à défendre leurs territoires, ont, par l'Islam, dépassé ce sens étroit de l'intégration et du devoir... pour une obligation plus noble, celle des valeurs et des idéaux...

C'est ainsi que les arabes ont eu leur propre ère culturelle... **Et il serait impossible pour quelqu'un qui étudie la philosophie de l'Histoire d'imaginer une ère culturelle des arabes en l'absence de l'Islam.** Cette ère culturelle arabe se transforma en une véritable civilisation au rayonnement culturel largement répandu; la civilisation islamique prit plus d'envergure et plus de poids après avoir dépassé les limites de sa terre d'origine et après avoir été adoptée par d'autres peuples au-delà des frontières de la terre arabe. Il est évident que lorsqu'une conception culturelle s'épanouit jusqu'à se mettre au service des idéaux et des valeurs éternelles de la noble croyance, elle devient alors- comme c'est le cas pour l'Islam, - une civilisation à double adhésion spirituelle et matérielle

Certains ont désigné l'homme de "Voyageur d'un genre nouveau"; il voyage dans le temps, dans l'insolite; de là, la nécessité d'une préparation qui le rende disposé à recevoir de nouveaux chocs qui risquent de le conduire soit vers la reddition et la rechute, soit vers plus d'excès et vers de nombreux modes d'adaptation et de commerce avec l'impossible.

Dans les limites de ce cadre et sans trop entrer dans des détails qui pourraient trouver une place plus appropriée dans d'autres domaines plus spécialisés et qui divergent, après tout, de l'objectif principal de notre étude qui est "l'Islam", nous nous posons les questions suivantes: Comment l'Islam conduira-t-il les musulmans vers l'avenir auquel ils aspirent? Comment les musulmans ont-ils escorté la marche des sciences tout au long de leur histoire?

Revenons aux tout premiers débuts. Dès l'aube de l'histoire de l'Islam, les grandes données de la civilisation étaient monopolisées par de puissants empires. Il était normal-selon la logique de l'évolution- que la renaissance de l'humanité ne vînt point de l'île Arabique, mais plutôt de "Byzance" ou de "Rome"

Cependant, avec la décadence de "Byzance" et le recul de "Rome", l'Islam surgit de cette île pour rectifier l'évolution mondiale, non par le moyen de grandes guerres, mais à travers des principes de morale et de conduite. C'est ainsi que les puissants empires se transformèrent en entités marginales face à une conduite durable: la conduite islamique.

C'est l'évolution qui généralement conditionne la conduite; de même que la conduite conditionne l'évolution Certains philosophes ont des opinions divergentes sur la question. Laquelle des deux contraint l'autre: la conduite ou l'évolution? Et quand est-ce que se produit un pareil phénomène? Ici, nous voyons une presque unanimité sur le principe que c'est l'évolution qui contraint la conduite dans les moments d'harmonie, lorsque la marche se fait sur un rythme commun, permettant alors à la première d'imposer le changement; alors que dans les moments de crise, c'est la conduite qui dirige l'évolution. L'homme a pu surmonter les grandes crises de l'histoire par sa conduite et non par son évolution. Ce serait une grosse erreur d'adopter l'idée que c'est l'évolution qui dirigeait

LES MUSULMANS ET LES DEFIS DE L'AVENIR

Nous écartons dès le départ, l'idée que notre exposé puisse être la consécration de certaines spéculations au nom des vérités déterministes ou des variétés futuristes, parce que Dieu est seul Maître de l'avenir et que nul autre que Lui ne peut percer l'Inconnu.

De cette évidence, nous nous lançons dans une époque où certains croient-en toute conviction-pouvoir découvrir le futur et prévoir ses secrets; tendance que l'on désigne aujourd'hui de Futurisme ou Futurologie, et que préconisent plusieurs experts, qui ont établi une classification de l'avenir. Ainsi : Le futur immédiat, qui couvre une période d'un an; un futur plus proche: d'une durée de cinq ans; un futur proche tout court, d'une durée de vingt ans; un futur général ou lointain qui s'étend au-delà de cinquante ans. Ajoutons à cela les études faites par certains spécialistes en technologie et certains démographes sur les limites du développement, la dynamique du monde, les tendances pessimistes, et autres visions futuristes, aussi bien pessimistes qu'optimistes, que concrétisent actuellement un certain nombre de sociétés et d'Institutions spécialisées dans le domaine de la futurologie; à commencer par l'Institution Helmer, passant par l'Institution Hudson et les Institutions américaines de futurologie de la fin des années soixante, la société Internationale de Futurologie qui compte aujourd'hui plus de deux mille membres, en plus de nombreux autres congrès qui sont apparus dans les années soixante-dix et tout ce qui a succédé jusqu'à l'école qui prévoit un choc futuriste; sans compter les préconiseurs de la Crise et de l'Issue, les menaçants d'un futur misérable, et les prometteurs d'un futur rayonnant. Or, nous remarquons qu'il existe un semblant d'accord implicite, entre toutes ces tendances, sur la force de propulsion qui se révèle dans tout ce qui entoure l'être humain comme résultat des inventions qu'il entreprend; accord aussi sur ce que l'homme endure de crises amères de toutes sortes

LES MUSULMANS ET LES DEFIS DE L'AVENIR

"Le problème réside à l'intérieur du musulman lui-même et non pas dans l'essence de l'Islam."

exposé donné en marge du Congrès Islamique réuni
à Kwait en Janvié 1987 en Presence de 44 Chef d'
Etat Islamique

دكتور « رشدي فكار »

● المؤهلات ، والعمل ، والانتاج .. باختصار :

— من مواليد الكرنك بمحافظة قنا — جنوب مصر العربية .
— بعد أن التحق بمعهد قنا الديني ، ثم معهد القاهرة الديني بالأزهر وتخرج منه وحصوله على البكالوريا الفرنسية أيضاً بالمعادلة . واصل دراسه في مصر ، ثم تابعها في أوروبا بالقسم العلمي للدراسات العليا بالسوربون ، حيث تخرج منه بحصوله على دبلوم في الدراسات العليا . كما حصل في نفس الوقت على ليسانس الآداب « تخصص فلسفة بالمعادلة » من جامعة جنيف .

— حصل على دبلوم في الدراسات العليا من باريس أحدهما في الاجتماع ، والآخر في العلاقات الدولية .

— حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع رتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦ .

— توجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ، على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة جنيف عام ١٩٦٧ .

● الوظائف الجامعية التي تقلدها .. والعضوية في الأكاديميات العالية والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، وقرار ترشيحه لجائزة نوبل في الآداب منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ :

— مكلف بمحاضرات بالسوربون في القسم العلمي للدراسات العالية بعد تخرجه منه لمدة عام .

- محاضر في جامعة جنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .
- عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيو شاتل ١٩٦٢ — ١٩٦٣ .
- أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤ .
- أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨ .
- أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخرى .
- شارك في الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدمة في الجامعات الأوروبية والعربية .
- ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤتمراً عالمياً مثل :
- عضويته لجمعية استرنبرج الاسكندنافية بالسويد .
- عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية أدلف (A. D. E. L. F.) بباريس .
- اشخب عضواً مشاركاً في الأكاديمية الفرنسية للعلوم بجامع لخالدين دائرة ما وراء البحار منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣ .
- أقر ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية « لجائزة نوبل في الآداب » منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ بساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :
- أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة اعمية للكتاب بالفرنسية « أدلف » وتزكية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو) . والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..
- إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعالمية .

❶ الإنتاج العلمي :

- يتجاوز إنتاجه العلمي حالياً ١٤٠ بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات ، وتعليقات باللغة الفرنسية أساساً . والعربية والإنجليزية .

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتاج يراجع « الكتالوج الدولي لجامعة جنيف .. وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس » ..

● في الانتاج العالمى بالفرنسية والانجليزية .. على سبيل المثال :

— السوسيولوجيا (علم الاجتماع) ، الاشتراكية الدولية - وأصول الماركسية في مجلدين (عدة طبعات في عدة لغات) عن دار النشر العالمية دولا شونستليه نيوشاتل وباريس سنة ١٩٦٨ .

— المراهنة الصناعية ، في خمس مجلدات بالاشتراك مع أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من الجامعات في دول الكتلة الشرقية خصوصاً المجلد الخامس عن (الصناعة وأزمة الحضارة) منشورات « دى نويل » .. « كوليج دى فرانس » والأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٧٢ .

— علم الاجتماع ، وعلم النفس والاثروبولوجيا الاجتماعية ، معجم موسوعى عالمى ، أربعة أجزاء في مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جنتير ١٩٨٠ — ١٩٨١ .

● وفي الانتاج بالفرنسية عن العالم العربى والاسلامى :

— نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى — الفرج بعد الشدة — عن دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥ .

— تأملات في الإسلام .. فى عدة طبعات عن دار النشر العالمية ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣ .

— انعكاسات السوسيولوجية الوضعية وأصول الماركسية في العالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جنتير بباريس سنة ١٩٧٤ .

— أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جنتير بباريس ١٩٧٣ .

— الحياة اليومية في مصر إبان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية ميزونيف سنة ١٩٧٥ .

● في الانتاج باللغة العربية :

— دراسات أثروبولوجية اجتماعية (السحر وما حوله) دار النجاح
— بيروت سنة ١٩٧٣ .

— الشباب وحرية الاختيار .. مكتبة المعارف — الرباط ١٩٧٤

— أوجست كونت عملاق السوسيولوجيا وموقفه من الإسلام
(منشورات مركز البحث العلمي) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع
سنة ١٩٦٨

— وضعية الدراسات السوسيولوجية في المشرق العربي (منشورات
مركز البحث العلمي الجامعي) بالرباط سنة ١٩٧١

— الإسلام بين دعائه وأدعيائه — الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦
— الماركسية والدين — الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر
(الإنتاج العالمي) سنة ١٩٧٩ .

— في البغاء الوحشي — القاهرة — مكتبة وهبة والرباط . المكتبة
الجامعية سنة ١٩٧٩

— تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع .. في مجلد موسوعي
القاهرة مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠

— نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. في مجلد — القاهرة — مكتبة
وهبة سنة ١٩٨٠

— في المنهجية والحوار — مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢
إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة .

● ومن أحدث مؤلفات د. رشدي فكار . كما اشرفنا سلفا :

— موسوعة ضخمة في علوم الإنسان تتكون من أربعة أجزاء بالفرنسية
والإنجليزية والعربية حاول فيها أن يعيد النظر في مضامين هذه العلوم على
مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة — تعتبر منرجا هاما في
التقنين المعرفي « الابتسومولوجي » لمفاهيم علوم الإنسان الأساسية
ونظرياتها الرئيسية ..



محتويات الكتاب

الصفحة

٥	مدخل : وعن الاسلام والمسلمين يتساءلون
١١	المسلمون .. لماذا تخلفوا ، وكيف السبيل لتقدمهم ؟
٢٠	السيرة النبوية تتحدى كل محاولات النيل منها ودنوتها باسم المنهج العلمي
٢٥	الكعبة المشرفة وقبر الرسول ﷺ : ثوابت تاريخية راسخة في عصر العقل المتورد
٣٠	اثر الفكر الاسلامي على الحضارة الاوروبية .. بين العرفان والجحود
٤١	قضايا تراث المسلمين .. ليس للاسلام قضية
٦٣	قضايا تراث المسلمين من خلال تاريخ المؤرخين
٨٥	قضايا تراث المسلمين امام علمية التاريخ وفلسفته وسجلته
٩٩	قضايا تراث المسلمين وعلوم الانسان المستحدثة
١١١	تراث المسلمين واعمال المستشرقين
١٢١	تراث المسلمين وتراث الآخرين ، وواقع التعامل بينهما
١٣١	الاجتهاد بين الاسلام وتراث المسلمين
١٣٨	قضايا تراث المسلمين في الفكر العربي الاسلامي عبر هذا العصر
١٤٨	المسلمون .. وتحديات المستقبل
	Muslims and the Challenges of the Future
١٧٧	« المسلمون وتحديات المستقبل » - باللغة الانجليزية

- ١٩٦ « المسلمون وتحديات المستقبل » — باللغة الفرنسية
١٩٧ دكتور رشدي فكار : المؤهلات . والعمل . والانتاج
٢٠١ محتويات الكتاب

* * *

اسلاميات

(سلسلة العالم العربى الاسلامى)

للدكتور رشدى فكار (١)

● عن دور النشر العالمية :

- الفرج بعد الشدة عند مفكرى الاسلام ، لاهى بخهوف ، باريس ، ادريان ميزونيف مجموعة كارنو ، ١٩٥٥
- تأملات حول الاسلام : أسس العقيدة والجانب الاجتماعى ، باريس ، ميزونيف ولاروز ١٩٧٢ وفى عدة طبعات أخرى .
- أصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم العربى ، باريس ، جتنير ، ١٩٧٢ وفى عدة طبعات .
- انعكاسات السوسيولوجيا الوضعية فى العالم العربى ، باريس . جتنير ، ١٩٧٤ وفى عدة طبعات .
- الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، باريس ، ميزونيف ولاروز ١٩٧٥

● عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :

- الفكر التقدمى فى أوروبا واثره فى الشرق ١٩٥٩

● عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية) :

- السحر وما حوله مع ملحق عن أنسان القرآن ، دراسة انثروبولوجية اجتماعية ١٩٧٣ .

١١) لمزيد من التفصيل عن الانتاج الكامل للدكتور رشدى فكار بالفرنسية ، والعربية والانجليزية ، يراجع : كتالوج مكتبة جامعة جنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لأهم المؤلفات والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكار مع تبذة عن سيرته المودعة « بمؤسسة نوبل » باستكهولم ، السويد ، وكتالوج الكتبة الوطنية بباريس حرف (ف) ...

● عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع ، القاهرة (بالعربية) :

- تأملات اسلامية في قضايا الانسان والمجتمع ، في مجلد سنة ١٩٨٠ .
- نظرات اسلامية للانسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى ١٩٨١ .

- لمحات عن المنهجية والحوار ... الطبعة الاولى ١٩٨٢ .

- خميس البكرى ، د. رشدى فكار المفكر الاسلامى العالمى فى حوار متواصل حول مشاكل العصر ، ١٩٨٦ .
- خميس البكرى ، د. رشدى فكار المفكر الاسلامى العالمى فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين ، ١٩٨٧ .

● عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :

- امصريون فقط ؟ حوار مطول حول القضايا الايدولوجية المعاصرة ، فى كتاب عن الدكتور رشدى فكار وضعه الكاتب المصرى المعروف على الدالى ١٩٧٦ .



رقم الايداع : ٧٩٩٠ / ١٩٨٧
الترقيم الدولى . - ١٢٠ - ٣٠٧ - ٩٧٧

- Voies musulmans sur l'Homme et la Société après 14 siècles, (1981).
- Méthodologie et dialogue. (1982) .
- Khamis el - Bakry, Dr. Rouchdi Fakkar en Dialogue avec Problèmes de Notre Temps. (1986) .
- Khmis el-Bakry, Dr. Rouchdi Fakkar en Dialogue avec Les Problèmes
- **Edition, Maison du Peuple, Le Caire (en arabe).**
de L'Héritage Culturel des Musulmans. (1987) .
- Longue dialogue sur les problèmes idéologiques, contemporains à travers la pensée de Dr. Rouchdi Fakkar, ouvrage sur lui, élaboré par l'écrivain égyptien, bien connu, Ali Dali. (1976) .

* * *

ISLAMIA TE

(Serie du Monde arabo-musulman)

de Dr. R. FAKKAR

● Editions Internationales.

- La Délivrance après l'Angoisse, La Haye, Nijhoff, Paris, Adrien Maisonneuve, Collec. Garnot, 1955.
- Réflexions sur l'Islam, fondement de croyance et aspect social, Paris, Maisonneuve et Larose, 1972 et Plusieurs éditions.
- Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1972 et plusieurs éditions.
- Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1974 et plusieurs éditions.
- Aspects de la vie Quotidienne en Egypte, Paris, Maisonneuve et Larose, 1975.

● Edition Al-Hilal, Le Caire (en français).

- La Pensée progressiste en Europe et influence en Orient. (1959).

● Edition Dar Al Najah, Beyrouth (en arabe).

- La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d'Anthropologie sociale. (1973).

● Edition Wahbah, Le Caire (en arabe).

- Reflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société I Vol. (1980).

- 1) Pour les œuvres complètes de Dr. R. Fakkar : ouvrages principaux et autres travaux, en français en anglais, et en arabe voire, Catalogue de la Bibliothèque de l'Université de Genève, Lettre F., la Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkar publiées Jusqu'à 1981 et déposée à la fondation Nobel, Stockholm, et Catalogue de la Bibliothèque Nationale de Paris, Lettre F.

compte son passage comme conseiller en information auprès du centre des études financières et commerciales Islamiques à la Faculté du commerce de l'Université AL-AZHAR. Il a été également membre au sein de nombreuses commissions chargées des affaires religieuses aux conseils nationaux auprès de la présidence. Outre ses qualités L'Auteur est un écrivain tempéré partisant du dialogue, qui ne pèche ni par l'excès des termes, ni par l'emportement du verbe.

En réalisant le second volume du « dialogue continu » avec le penseur Islamique, mondialement connu, le Dr. ROUCHDI FAKKAR, l'auteur vient de combler un très grand vide que la bibliothèque musulmane en souffre.

L. WAHBAH



SOMMAIRE

Au Nom D'Allah. Le clément, Le miséricordieux.

« Prêches pour le chemin de Dieu par la sagesse, le bon conseil, les meilleurs arguments » . (CORAN KAREM)

Ce livre est le second volume de la collection.

« Dialogue continu avec le penseur islamique mondialement connu, le Dr. ROUCHDI FAKKAR, le 1er volume a été élaboré par le même auteur KHAMIS EL BAKRY, traitant les problèmes du siècle.

Le second volume est consacré aux problèmes de L'héritage culturel des musulmans. Il a commencé par montrer qu'il ne sera Jamais question d'un problème avec L'islam. L'Islam n'est pas un héritage culturel à étudier historiquement, mais est une réalité vivante, concrète et active, toujours permanente, dans les coeurs des milliards de croyants vivants avec et pour l'Islam. Cela se voit depuis le premier cri de naissance jusqu'à la mort, l'enfance, le mariage et chaque Jour exprimé cinq fois à travers les prières, le pèlerinage ...

Cette éternelle présence de l'Islam dépasse la vision archivée que certains essaient de le faire emprisonner pendant. L'Islam n'est pas pour inaugurer ou clore les occasions et les anniversaires L'Islam d'hier, c'est l'Islam d'aujourd'hui et sera l'Islam de demain.

De là, s'est engagé le dialogue pour traiter les questions de l'héritage culturel des musulmans et la façon dont les sciences de l'homme les ont approché; commençant par l'histoire, sa philosophie et son scientisme, le dialogue s'est penché par la suite sur la psychologie, la sociologie, l'Anthropologie pour revenir à la notion d'«Al IJTIHAD» et démontrer ses limites, ses possibilités actuelles; pour conclure le dialogue, avait pour sujet, le problème de l'orientalisme, ses courants, les plus divers et notre pensée contemporaine; Islamo-arabe, Arabo-Islamique, ou simplement Arabe contre ou pour l'Islam.

L'Auteur de ce présent volume est KHAMIS EL BAKRY. Ecrivain islamique connu dans le monde arabe par les différents apports qu'il a consentis au plan du savoir contemporain, l'un des rédacteurs les plus éminents du quotidien AL AHRAM. L'Auteur se distingue autant par sa probité intellectuelle que par la crédibilité de son savoir entre autres fonctions qui lui ont été dévolues. ou ses apports ont été prolifique L'on